

عبد الرحمن العيسوي

مَاذَا أَنَا مُسْلِمٌ؟

يطلب من :

مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية - عابدين

القاهرة تليفون : ٩٣٧٤٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء

هذه (الطبعة الرابعة) من كتابي (لماذا أنا مسلم ؟) أقدمها إلى شباب مصر
الناهضة ، الذين اتجهوا إلى آداب الإسلام وشرائعه ، ليثقفوا مجتمعهم
ويثقفوا مداركهم .

وهم واجدون فيه من الأجداد ما يدفعهم إلى الاعتزاز بدينهم والفخر
به ، والإيمان بأنه دين العقل والعلم والمجتمع الرفيع .

عبد الرحمن العيسوي

رمضان سنة ١٣٧٣ هـ

مايو سنة ١٩٥٤ م



انسانية الدعوة الاسلامية

بقلم الامام الشهيد

حسن البنا

في العالم اليوم دعوات كثيرة يقوم معظمها على أساس العصبية القومية التي تستهوى قلوب الشعوب لهذا العصر (١). فهتلر في ألمانيا ينادى بالعصبية الآرية ، وموسوليني في إيطاليا يهتف بالقومية اللاتينية ، ويصنع بها إيطاليا الفاشستية ، وأتاتورك يعتز بالجنسية الطورانية ويعممها في تركيا ، والإنجليز في بلادهم - كما يدعون - أعرق البلاد الديموقراطية ، يعتقدون أن الدم الإنجلوسكسوني دم ممتاز لا يقاربه عنصر آخر . ومن هنا تعالت هذه الصيحات : ألمانيا فوق الجميع . وإيطاليا فوق الجميع . وسودى يا بريطانيا واحكمى . إلى غير ذلك من العبارات الشعبوية التي تهتف بها أمم هذا القرن وتجعلها شعاراً لها ، وكلها تنطق كما ترى بإيثار القوميات الخاصة والتشيع لها والحرص عليها والتفريق بين بنى الإنسان على أسس واهية من الأشكال والألوان .

ولسنا بصدد تحليل هذه الدعوى ولكننا نعتقد على كل حال أنها دعوات غير طبيعية ، غير دائمة وغير صادقة ، إذ من المحال أن تكون كل أمة فوق الجميع وهي مع هذا تسعى إلى العالم كله وتقلق الإنسانية وتترك الجنس البشرى في تناحر دائم وتنازع مستمر . وما هذا الاضطراب الذي أعجز الساسة وحير المصلحين إلا أثر من آثار هذا الجشع القومى ، والواقع أصدق دلالة من حجج الساسة وتخلصات الحكومات . أما الإسلام فقد ظهرت فيه الدعوة الواضحة لإصلاح الإنسانية جميعاً فهو حين يشرع ، يشرع للعالم كلها . وحين يصلح ، يصلح العالم جميعاً . وحين ينظر يرى بنى الإنسان شعباً

(١) كتب هذا البحث في سنة ١٩٣٨ حينما كان الصراع بين هذه الدعوات على أشده .

واحداً مهمة النظام الإسلامى فيه ، أن يتناوله فى كل مرافق حياته
بالإصلاح الشامل .

يرفع الإسلام الناس كلهم إلى نسب واحد ويردهم إلى أصل واحد .
ويذكرهم دائماً بهذه الصلة بينهم ويطالبهم بمراعاة هذه القرابة الإنسانية
ويقسم بما بينهم من أرحام ووشائج ويصرح بأفصح العبارات بالقضاء على
العصبية الجنسية والتفاضل بالألوان والتعاطف بالآباء والأجداد والصلوات
والأنساب (الناس لآدم وآدم من تراب) . « يا أيها الناس إنا خلقناكم من
ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » (١) . (ليس منا من دعا إلى
عصبية) (٢) .

وإلى جانب هذا المعنى يوجد الإسلام الهدف الذى تقصد إليه الإنسانية
جميعاً ويحدو الناس إلى مثل أعلى ينزل الجميع على حكمه ويستظلون بظله
ويحتمون بكنفه ذلك هو كنف الله « ففروا إلى الله ، إني لكم نذير
مبين » (٣) وما أبلغ وأحكم أن يجمع القرآن هذا المبدأ والختام فى آية واحدة
حيث يقول تعالى « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » (٤) بعد قوله
تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها
زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء » (٤)

على هذه القواعد جاء الإسلام . ولتحقيق الوحدة الإنسانية الكاملة
وضعت شرائعه الحكيمة . وهو دين عملى لا يقنع بوضع القواعد ورسم
المناهج حتى يوضح للناس طريق تحقيقها ويلزم بالعمل بها والسير عليها
ولهذا أشربت فروعه العملية هذا المقصد السامى وظهر فيها كلها المعنى
الإنسانى النبيل .

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) من خطبة للنبي محمد عليه الصلاة والسلام - المؤلف .

(٣) الذاريات : ٥٠ (٤) النساء : ١

جاءت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم للعالم كله وللناس كافة ، بشيراً ونذيراً ، وأيد القرآن هذا المعنى في قول الله تبارك وتعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » (١) مع قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٢) وفي ذلك تحقيق الوحدة الإنسانية بتوحيد الفكرة الدينية التي ظلت قبل الإسلام مصدر الفرقة والخلاف بين أتباع الأديان المختلفة حتى جاء الإسلام فجمع الإنسانية على دين واحد ونبي واحد وهو حين يدعوها إلى ذلك الاجتماع يتجنب الاصطدام بمقدساتها وموروساتها ويضع لها الحق في نصابه فيزكي الأنبياء جميعاً ويشهد للكتب السماوية جميعاً ويرضى عن السابقين الأولين من مؤمنى الأمم السالفة . « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (٣) مع قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه » (٤) ومع قوله تعالى : « إن الدين آمنوا والذين هادوا والصابئين والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٥) ولقد ظل هذا المعنى بعيداً عن أذهان بعض الناس فما زال الحق يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم ، وما زالت حوادث الدنيا تدعوهم إلى التعاون والتواصل وما زال التفكير في السرعة في وسائل الانتقال كل ذلك يقرب بين قلوبهم وأجسامهم ومصالحهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ » (٦)

وأنزل الله القرآن عربياً وجعله أساس هذا الدين ومظهر العبادة وركن الصلاة وأفضل القربات إلى الله ، حتى يجد الناس أنفسهم بحكم عقيدتهم

-
- (١) سبأ : ٢٨ (٢) الأنبياء : ١٠٧ (٣) البقرة : ١٣٦
(٤) الشورى : ١٣ (٥) البقرة : ٦٢ (٦) فصلت : ٥٣ .

مدفوعين إلى تعلم لغة القرآن فيتوحد اللسان وبذلك تنحقق الوحدة اللغوية بعد الوحدة الدينية ، ويكون القرآن هو (الاسبرانتو) الذى ينطق به كل مؤمن بدين الإسلام . وإن من الناس من يرى الخيال فى هذا القول أقرب من الحقيقة لولا أن التاريخ يحدثنا عن أسلافنا من الفاتحين أنهم عربوا لسان العالم المعروف فى زمنهم فى أقل من قرن من الزمان ، ولقد نقل (دوزى) عن العرب فى الأندلس أنهم صبغوا غرب أوروبا بلسانهم فكانت العربية لسان التخاطب والمحادثة والعلم والأدب والثقافة فى هذا الجزء كله ، حتى بين القوط والوندال ، ولو كتب للعالم أن يسعده الله باستمرار هذا الفتح العلمى لرأينا أممه الآن تنطق العربية وتتواصل على أساس القرآن الكريم غير مهددة بما ينتابها الآن من مشاكل الجشع المادى ، ولكن مضى قدر وبقى أسف ومع اليوم غد .

ليست الصلاة التى يصطف فيها الناس جميعاً بين يدى الله تبارك وتعالى ، والزكاة التى ينزل فيها الغنى عن جزء من ماله للفقراء ، أياً كانوا ، والحج الذى يجتمع فيه أهل الأرض على اختلاف ألوانهم وأشكالهم ومظاهرهم فى صعيد واحد لغرض واحد ، إلى غير ذلك من أحكام تعاليم الإسلام ، إلا مظاهر سابعة من تكريم الإنسانية الفاضلة فى أية أمة وفى أى قبيل .

ولا أنسى لحظة من لحظات الصفاء النفسى سمعت فيها صوت المؤذن يهتف بألفاظ الأذان العذبة فإذا كلها حداء للناس جميعاً إلى الله ورسوله ، وإلى الخير والفلاح ، والغاية الله ، والوسيلة الصلاة ، والنهاية الفلاح ، ما أعذب هذا . أترى فيه دعوة إلى عصبية أو هتافاً بجنسية ؟ أو إشادة بقومية ؟ وهل ترى فيه غير دعوة طاهرة بريئة إلى إنسانية عامة فاضلة ؟ !

الله فوق الخلق فيها وحده الأمر شورى والحقوق قضاء

وإنك لتقرأ القرآن فكثيراً ما يخاطب الناس جميعاً ويتقدم للناس جميعاً وينادى الناس جميعاً « يا أيها الناس اتقوا ربكم » (١) « يا أيها الناس إن وعد الله حق » (٢) « يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى

الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين» (١) وهو حين ينادى هذا النداء يساوى بينهم فى الحقوق والواجبات ، ويقضى على أسباب الفتنة ، ويحض على التعاون ، ويحرض على الجميل والمعروف « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابذوا بالألقاب» (٢) «وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» (٣) .

تلك هى الإنسانية العامة فى دعوة الإسلام ، وأما الإنسانية فى الفرد فما من نظام علا بها وعمل على ترقيتها كما عمل على ذلك الإسلام الحنيف ، وحسبك بدين يغالى بكرامة الإنسان حتى يجعله خليفة الله فى أرضه ، ويفضله على كثير من خلق الله تفضيلاً ، ويعلى من قيمة الضمير الإنسانى بعد ذلك كله فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « استفت قلبك وإن أفتوك ، وإن أفتوك ، وإن أفتوك » وهل علمت إنسانية أسمى من هذه الإنسانية التى أثرت عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : فجعلت أحدهم يحاكم نفسه فيقضى عليها وينفذ ، فيكون شرطياً وقاضياً وجلاداً فى وقت واحد كما فعل أبو لبابة الأنصارى رضى الله عنه ؟!

وهل علمت سمواً بالعاطفة يقارب سمو الإسلام بها فى التراحم والتواصل ودقة الشعور والإحساس وهو الذى يفرض على المسلم أن يكون رحيماً فى كل أحواله حتى لقد اتسع أفق الرحمة فى الإسلام فشملت الإنسان والحيوان والنبات على السواء .

ولأمر ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فى كل ذات كبد رطبة أجر » . كما كان يوصى الجاهدين من أصحابه فيقول : « لا تغلوا ولا تغلروا ولا تقتلوا امرأة . ولا طفلاً ، ولا تتبعوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح

(١) يونس : ٥٧ (٢) الحجرات : ١١ (٣) المائدة : ٢

ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تعفروا بغير آ إلا للأكل ، وستمرون على أقوام ترهبوا في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .

« وبعد فانظر كيف صرف الإسلام غريزة العلو والتسلط في الإنسان فجعلها إلى خير الإنسانية كلها . وفي فطرة الإنسان حب التسلط والاعتزاز بالنفس . وفي نظام الإسلام وحدة بين الناس ومساواة في الحقوق والواجبات ، وتقدير للفطر والطبائع وتطويع لحكم الواقع . أتدرى كيف وفق الإسلام بين الموقفين واستخدم لخير الإنسانية كلتا الحالتين؟ إنه جعل ثمن الزعامة حراسة العقيدة فيرث الإمامة في الأرض من يستطيع أن يخلط نفسه بأبنائها فتفنى مصلحته في مصلحتهم ويعمل لخيرهم أكثر مما يعمل لنفسه ويكون أقوامه عنده الضعيف حتى ينال حقه ، وأضعفهم عنده القوى حتى يأخذ الحق منه ، وبهذا الأسلوب البارع الذي هو صياغة القدرة الربانية وصنع الله الذي أتقن كل شيء ، نصب الإسلام الإمام للناس ، وانظر في ذلك قوله تعالى : « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور » (١) :

لماذا أسلمت ؟ (١)

للمجرى المسلم

الدكتور جرموناس

الأستاذ بجامعة بودابست

خالجنى منذ طفولتى حنين إلى أرض الإسلام . وكأنها أرض الميعاد الخيالية ، فإن الاندفاع نحو الأهداف المادية والرغبة الملحة فى السرعة وهما طابع الحضارة الأوروبية ، أبدأ إلى الشرق الإسلامى ، دنيا سحرية تفيض بالشعر وتزدان بالمثل الإنسانية .

وإنى أنا الرجل الأوروبى الذى لم يجد فى بيئته إلا عبادة الذهب والقوة والسطوة الميكانيكية ، تأثرت أعمق التأثير ببساطة الإسلام وعظمة سيطرته على نفوس معتنقيه .

فى الوقت الذى يمنحنا فيه الغرب كل عام جديد ، أداة انتقال أسرع أو أداة إهلاك وتدمير أفكك ، ويدفعنا إلى حروب استغلال شنيعة . يبقى الشرق الإسلامى مستولياً على لى بروحانيته ومثله العالية . فبينما اتجه الأوروبيون بملكات الكشف والاختراع إلى استحداث وسائل تدمير الحياة الإنسانية . حافظ الإسلام على مبادئه الداعية إلى الإخاء والحرية والمساواة بين أبناء الجنس البشرى .

وبينما التمس الأوروبيون أسباب سعادتهم فى الاستزادة من نعيم البدن كفل الإسلام للإنسان راحة نفسه إذ قامت تعاليمه على أن السعادة لا تكون فى عرض زائل كسيارة أو طائرة بل فى رضا الضمير ، وسبيله أن يقوم الإنسان بواجبه نحو ربه ونحو الناس فيحس الأفراد بعد الوفاء بهذه الواجبات

(١) نقل هذا الفصل إلى العربية الأستاذ فتحى رضوان .

اطمئناناً قليلاً أطول عمراً من السعادة العابرة التي تصدر عن طريق الأسلحة وتنبعث عن الرغبة في التدمير .

والحق أن الكنائس الأوروبية لا تكاد تفترق تعاليمها الروحية عن الإسلام إذ أننا لو استبعدنا من المسيحية فكرة التثليث نجد أن أهدافها ومثلها ، هي استخلاص القانون الإلهي . هذا القانون الذي يجب أن نطيعه .

أما الفارق القائم بين الشعوب الإسلامية والشعوب المسيحية ، فيرجع في الحقيقة إلى الحضارة الأوروبية ، إذ أن الأوروبيون لا يطبقون تعاليم دينهم على أمور حياتهم ، بينما استمر الإسلام مؤثراً في كل ما يتصل بحياة المسلمين .

اقتصرت المسيحية على عبادة ساعات من كل أحد ، بينما امتلأت بقية الأيام بكفر عظيم ، وبكل شيء يتحدى تعاليم المسيح . . أما الإسلام فلا يزال العقيدة المتجددة أبداً ، والتي يجب أن يعيش المسلمون طبقاً لقانونها وليس مجرد تعاليم نظرية فقط .

ولقد تدهورت ثروة المسلمين واضمحلت معارفهم وضوّلت سلطتهم السياسية ، حتى لقد أصبح من العسير بعد الحرب العظمى الماضية أن نجد أمة إسلامية حرة . ولقد وهم السطحيون من الناس - حين قارنوا حال الدول الإسلامية بتزايد نفوذ الدول المسيحية - أن الدين الإسلامي هو علة سقوط دولة المسلمين.. ولكنني أستطيع أن أجهر بمنتهى الجراءة بعد إذ قرأت كتاب المسلمين المقدس وثقافة الإسلام . بأنه لا يوجد في تعاليم الإسلام كلمة واحدة أو عمل واحد من شأنه أن يعوق تقدم المسلم أو يمنع زيادة حظه من الثروة والمعرفة والقوة .

إن تعاليم القرآن هي أوامر الله وهي مرشد أبدي للبشر ، إنه كتاب ملؤه الصراحة والوضوح لمن صدقت رغبته في تفهمه . وإن محمداً رسول الله لأعظم مصلح ثوري عرفه التاريخ مؤيد بوحى من عند الله ، ونحن مأمورون

أن نفهم تعاليمه ونطبقها على شئون حياتنا الدنيوية مع الإيمان بأن ما أوحى به إليه إنما هو أساس لا يهتز ولا يتغير لكونه إلهياً .

ولقد أخطأ المسيحيون إذ لم يفهموا الإسلام على حقيقته وبالتالي لم يتشبعوا بروحه .



إن ما يميز الإنسان عن الحيوان هو إدراكه أن الكون تحكمه قوانين روحية ، وتسيره قوى غير محسوسة .

وهذه الحقيقة هي أساس كل دين . ولكنه لا يوجد دين يؤكد ما أكثر من دين الإسلام الذي يبسط أمام الإنسان طريقاً وسطاً لا تتجرد فيه الروح عن البدن ولا البدن عن الروح ، بل يكون وسطاً بين المادة والروح على أن لا ينسى مطلقاً أنه كائن روحى قبل كل شئ :

ليس في تعاليم الإسلام شئ لا يمكن تحقيقه عملياً وهي مفخرة عظيمة يتميز بها عن سواه .

إن أحجار الزاوية في بناء هذا الدين هي أن الناس أمام الله سواء . من آمن منهم بهذا الدين وارتضى شريعته . ويترتب عن هذا أنهم أمام بعضهم البعض سواء .

ويطلب الإسلام من المسلمين أن ينظر أحدهم إلى الآخر كأخ له لما بينهما من صلة الإيمان بالعدل وتقوى الله :

ومن حق غير المسلمين ممن اهتموا إلى حقيقة الله عن طريق أى كتاب من كتبه المنزلة ، أن يعيشوا في هدوء وسلام مع المسلمين .

وفي التاريخ الإسلامى الدليل على أن المسلمين الصادقين لم يضطهدوا أحداً من جيرانهم الذين لم يؤمنوا بإيمانهم :

على أن الفوارق القائمة بين المسلم وغير المسلم تسقط بمجرد اعتناق الإسلام ، فلا ميزة للمسلم ابن المسلم على المسلم ابن المشرک ولا فضل لقرشى على حبشى :



إن أوروبا لم تعرف الإخاء بين الناس ، إلا بعد الثورة الفرنسية . بينما دعا الإسلام إليها وطبقها المسلمون قبل ثورة فرنسا بنحو ألف عام ولقد كانت فكرة المساواة والديموقراطية ، ابتكار القرن السابع عشر في أوروبا ، بينما هي من حقائق الإسلام وأصوله منذ نشأ .

ولم يعترف حكام أوروبا بالاشتراكية إلا في السنوات الحديثة بينما سبقهم الإسلام إلى المؤاخاة بين المسلمين وأهل الكتاب (يهود ومسيحيين وغيرهم) فأقام بذلك النظام الاشتراكي الصحيح واستمتع في ظل نظامه كافة الناس بكافة الحقوق الإنسانية . والاشتراكية الأوروبية تدهورت إلى حضيض الشيوعية المنطوية على حرب رؤوس الأموال ، أو إلى الوطنية الألمانية الاشتراكية القائمة على اضطهاد همجي لليهود وغلو في تطبيق نظرية (الجنس الممتاز) .

أما الإسلام فقد نسق نظامه الاشتراكي — الطبقات والثقافات والأجناس على اختلافها — في عقد اجتماعي مركّز على حسن التوازن .

ولقد حرم الإسلام الخمر وسبق أوروبا إلى قوانين الصحة الحديثة بأكثر من ألف عام . ولقد حض على النظافة • وعلم أتباعه آداب المعاملة الرقيقة ولقنهم الفروسية . ولأن لأجرؤ على القول بأن الإسلام منح المرأة حقوقاً قانونية أكثر مما كان لها في ظل المسيحية . ولقد اعترف بإباحته تعدد الزوجات في حدود معقولة ، بالأمر الواقع أي بما تقتضيه غريزة الرجل ، فحال بهذا دون تعدد الزوجات غير المشروع الذي يسود الجماعة الأوروبية في هذه الأيام .

ولقد تمخض الإسلام في العصور الوسطى عن ثقافة عظيمة صانت الثقافة القديمة من الضياع ونقلتها إلى العصور الحديثة .

والمسلم إذا كان صادق العقيدة فهو إنسان متدين ، روي ، مستنير ، ذو حاسة إنسانية من طراز سام ، مما يثير التقدير والحب له .

على أنه من القوانين الطبيعية أن يكون للنجاح والثروة من التأثير ، مثل ما للكواكب الكبيرة من الجاذبية على المذنبات الصغيرة

لذلك لا يجب أن يقع من نفوسنا موقع الاستغراب أن تعيش عيون طائفة كبيرة من المسلمين أمام أضواء السيادة السياسية التي ظفرت بها دول أوروبا وأن يتعلقوا بمظاهر حضارة هذه الدول .

ولقد قررت بعض الدول الإسلامية رسمياً اصطناع الحضارة الأوروبية وما تقضى به من أساليب الحياة وطرائق التفكير ، اصطناعاً هو التقليد الأعمى بعينه . ولقد كان لهذا التقليد أثر كره على المسلمين الذين جعلوا يمارسون رذيلة السكر والطيش والاستهتار .

وبالجملة تسربت إلى البلاد الإسلامية مفاسد أوروبية جمّة ، جنباً إلى جنب مع بعض الفضائل الجديرة بالحمد .

إن الأمم الإسلامية اليوم معدمة واهنة متخلفة في ميدان الحضارة، لكنى كنت ولا أزال متعلقاً بالإسلام على الرغم من أنني أوروبي خال من كل دم دخيل ، وذلك لاعتقادي بأن مستقبل العالم وخلاصه من الاصطدام الاجتماعي الذي يهدده ، لن يكون إلا في المزاوجة السعيدة بين الحضارة الأوروبية بدرسها وعلمها . . . والروحية السامية التي تنطوى عليها عقائد الدين الإسلامي .

إن عاتق أوروبا قد أبهظته أثقال جنونها بالرأسمالية والوطنية الاشتراكية ولا تزال أوروبا قادرة على الدفع بالجنس البشرى إلى بربرية شبيهة بما كان عليه الناس في عهد الجاهلية الذي علا فيه شأن النزعة الطائفية ، حتى أصبحت كل قبيلة تحسب أن دمها هو وحده الخالي من الشوائب . فتمزقت بفعل هذه النزعة ، الجماعة الإنسانية . . .

لقد كانت المادية الصارخة والتشيع للأجداد - أى الإيمان باللحم والدم - هي الدوافع المحركة قبل الإسلام ، وكان العنف هو الحكم الأسمى . وهنا جاء وحى القرآن وهبطت كلمة الله معلنة بأن التفاخر بالأنساب والاعتزاز بصلة الدم والتشيع للجنس ، لن تؤدي إلى صيانة الحياة الإنسانية ولا إلى

تحقيق الهدوء والنجاح وأن الطريق إلى ذلك هو تقوى الله والصلاح واتباع
قوانين السماء .

لقد وضع الإسلام حداً للنظرية التي كانت تعتبر الإنسان وحدة في
قبيلة ، أو وحدة في شعب أو ابناً للغة من اللغات وسماً بالأفراد من وحدة
الحيوانية إلى أفق إنسانية فسيحة .

وإني لأؤمل بل أتوقع أن يكون الإسلام قادراً مرة أخرى على تحقيق
هذه المعجزة في الوقت الذي تحيط بنا فيه ظلمة كثيفة، وإني لأُمِدِّدِي لِإِخْوَانِي
المسلمين وأنخرط في صفوفهم ، مجاهداً في سبيل الإسلام ، باذلاً ما أستطيع
من إخلاص وحسن طوية ، كاشفاً عن الجروح . باحثاً عما يطهرها ويشفيها ،
متحملاً في سبيل ذلك ما يتحمله المجاهدون من نصب مؤملاً في النجاة التي
كتبت للمتقين .



الباب الأول

أنا مسلم لأن :

- ١ - طرق الاستدلال على وجود الله يوحى بها التأمل والفكر .
- ٢ - وراء هذا الكون كوناً روحانياً آخر .
- ٣ - أدرك بالنفوس ما ليس يدركه الحس :
- ٤ - الحقيقة الإلهية كما أظهرها الإسلام .
- ٥ - الدين لا يخضع للعلم ودين الإسلام يرعى العلم ويعظم العلماء :
- ٦ - هداية العقل البشرى لا تغنى عن هداية النبوات .

طرق الاستدلال على وجود الله

يوحى بها التأمل والفكر

نشرت مجلة (فورم الأمريكية) في شهر نوفمبر سنة ١٩٣٨ استفتاء قام به الدكتور « أدامز » (١) بين طوائف العلماء ، عن الإيمان بالله .

وثبت منه أن علماء الطبيعيات : الكيمياء والرياضيات والفلك ، تميل أكثرهم إلى الإيمان . . أما علماء السيכולوجية فتميل أكثرهم إلى الإلحاد . وقد استنتج من هذا أن المتصلين بالسيכולوجية يعرفون عن العقل أكثر مما يعرفه غيرهم من العلماء وهم لذلك لا يؤمنون !

ولكن رد عليه في نفس المجلة الدكتور « براون » فقال :

إنه لا غبار على حقيقة الاستفتاء . ولكن الاستنتاج الصحيح هو أن علماء الرياضيات والطبيعيات والفلك يعالجون علوماً قديمة راسخة ثبتت قواعدها وتحققت نظرياتها . وهم لذلك يؤمنون بالله في ضوء ما عرفوا من هذه العلوم .

أما علم السيכולوجية (علم النفس) فمن العلوم الجديدة التي لا تزال تعتمد على الفروض ، ولذلك فإن ما يقوله علماء هذا الفن لا يعتمد عليه .

فيتبين أن العلم الثابت القواعد يهdy إلى الإيمان بالله وقد كان «جاليليو» و«نيوتن» من أعظم المؤمنين . . .

(١) مدير مرصد جبل ولسن .

ولم تكن هداية العلم الحسى إلى الإيمان ، عن طريق الحواس ، فليس
التصور الحسى ضرورياً البرهنة على حقيقة وجود الشيء ، إذ أن قوة
العقل قوة خفية لا يعرف لها وجود حسى ، فهل إذا لم أستطع لمس
أو رؤية عقل القارئ ، يجوز لى أن أحكم بأنه لا عقل له ؟ ؟ !
طبعاً ذلك لا يجوز . . .

ثم أن الادعاء بأن الإحساس والتصور أعظم خطراً من الاستدلال
بالفكر ، غلط صريح . فالبحث عن العلل المختلفة وراء الظواهر المادية ،
أخطر وأعظم من رؤية الظواهر نفسها ، ولا يكون إدراك تلك العلل
إلا بالفكر .

والفكر البشرى يقرر أنه ليس على كل شيء برهان ، بل تمت مبادئ
يقع التصديق بها لذاتها ، مثل القضايا الواجب قبولها في المنطق .

ومثاله أن من بديهيات الفكر الإنسانى أن الكل أعظم من الجزء
— بدون برهان — كذلك من بديهياته أن للكون رباً أوجده . ولا نقصد
بالفكر ما يرادف العقل ، ولكنه التأمل الذى يكشف للنفس البشرية
ويصلها بالفكر الأول .

فلدينا فى الاستدلال على وجود الله طريقة فطرية هى أن نتجرد عن
التفكير بالألفاظ ونأمل المعانى ، فتنكشف لنا من تلقاء نفسها ، تلك
الحقيقة الكامنة فى نفوسنا .

أما العلم والعقل والحس فعاجز كل هؤلاء عن إدراك الله تعالى
والاستدلال على وجوده .

وأما عجز الحس فى أن من المقرر أن المدركات الحسية إنما هى
حقائق اصطلاحية . . . فلو أن طفلاً نشأ فى الجبل ثم ذاق السكر

وكان مريض أعصاب اللسان فوجد طعمه مرّاً لأدرك بإحساس ذوقه ، أن السكر اسم لهذا الشيء المر ، حتى لو شفى فوجده حلوّاً ، لاعتقد أن به مرضاً جعل هذا المر حلو ، ولو أطعمته السكر وقلت له هذا اسمه حنظل ، لكانت حواسه سبيلاً إلى تحصيل الإدراك الخاطيء ، فالحنظل يكون في عقله اسماً لهذا الشيء الأبيض الحلو . . ! !

ثم إن طبيعة الحواس أنها لا تدرك الأشياء المجردة بل تدرك صفاتها وصورها . ولنبرهن على هذا بالبصر وهو أرق الحواس فنشرح طبيعة تركيبه التي لا تسمح بأن يدخل الشيء المنظور في طبقات العين ، حتى تدركه فإن طريقة تركيب العين تتبع نواميس النور التي منها أن الصور تنتقل في الضوء على خطوط مستقيمة دائماً ، فإذا مرت بجسم أكثف من الهواء ، انضمت أجزاءها فإذا جاءت الأشعة من الجسم المرئي ومرت بالهواء ووصلت إلى الشبكية مباشرة لم ترسم الصورة في العين لأنها تكون متفرقة فلهذا كانت القرنية محدبة من الخارج ومقعرة من الداخل لتتلاقى النور فتجمعه ثم يمر في أوساط أخرى تزيد في تجمعه وهي الرطوبة المائية للعين ، ثم يمر الضوء بالبلورية لينفذ إلى الرطوبة الزجاجية لتفرقه من جديد .

ثم يجتمع على الشبكية ليرسم ضوء الشيء المنظور معتدلاً ، فتفريق الرطوبة للصورة بعد تجمعها في البلورية وفي ما قبلها جعل الصورة التي حملها النور تجتمع بعد الانحلال على الشبكية معتدلة .

ولو لم يكن من مظاهر وجود الله في أنفسنا إلا هذا التركيب العلمي الطبيعي لكنى برهاناً على أن موجد الكون عاقل قادر واسع عايم ، فأهل العلم الطبيعي والرياضي يحاكون صنعته فهل تكون هذه الصنعة الفنية البالغة غاية الدقة ، من عمل الصدفة أو من عمل نواميس مجنونة ؟

وقد كانت العدسات في التلسكوبات الصغيرة والكبيرة مصنوعة من كتل زجاجية كل منها محدبة السطحين فلما رأى العلماء أنها لا تنق بالغرض

لأن مناطق من النور الملون تتكون حول الشبح الذى ترسمه بسبب انحلال النور إلى ألوانه حين مروره فى المنشورات الزجاجية التى تتكون منها العدسة . اتجهوا إلى محاكاة تركيب العين البشرية ، لأن لها أكثر من وسط واحد لكسر الأشعة وجمعها . ففيها العدسة والرطوبتان الزجاجية والمائية ، فصنع العلماء للتلسكوب عدستين ، الأولى كثيفة محدبة السطحين ، والثانية أقل من الأولى كثافة وتحديداً ، ولصقوا الأولى بالثانية بمادة تسمى (بلسم كندا) ينكسر النور فيها مثل انكساره فى الزجاج .

فنعلم من ذلك أن الحس لا يحصل الأشياء ذاتها ، ولكن يدرك صوراً أو آثاراً لها .

فهذه الحقيقة مضافة إلى الانخداع الحسى المستمر ، كما فى مسألة رؤية أشياء ذات ألوان . وهى فى الحقيقة لا لون لها . تجزم لنا بأن الحس ليس وسيلة وحيدة للإدراك ، ولا هو وسيلة صالحة ، فضلاً عن أن يكون فى طاقته إدراك الله وتصوره .

وليس الحس وحده هو الذى ينخدع . بل العقل البشرى أيضاً فى أكثر الأشياء منخدع وعاجز . أما انخداعه فمثاله حقيقة الزمان والمكان التى تعتبر بديهية عند عامة الناس . مع أنه لا وجود لها ، كما أثبت ذلك « أينشتاين » واضع قانون النسبية وتابعه جمهور العلماء على رأيه . فأينشتاين يقول إن الزمان هو حركة المادة فى انتقالها . والمكان هو نسبة إلى شاغل ولا معنى له بلا وجود أجرام . فوجود المادة هو الذى قرر وهم المكان والزمان .

وللبرهنة على ذلك يقول :

تصور أن المادة اضمحلت تماماً من الوجود فلم يبق لها أثر ولم يبق فى الوجود إلا عقلنا المجرد فقط يتصور . فأى صورة تكون فى العقل للمكان أو الزمان ؟ ؟ !

وكذلك قالوا في الحركة والسكون إنهما في ذاتهما عدم محض .

ومن عجب أن الفخر الرازي يقول في تفسيره الآية «وسع كرسيه السموات والأرض» (١). وكان عرشه على الماء أى لا مكان عند كرسيه ولا زمان عند العرش . قبل «أينشتاين» بمئات السنين !

ومن أمثلة قصور العقل أنه لم يهتد إلى حقيقة الأثير إلا بعد أحقاب متطاولة من ملايين السنين . فالأثير موجود منذ نشأ الكون ، ولكن العقل البشرى لم يكن يستطيع أن يتصور أن رجلاً يتكلم في لندن فيسمعه الناس في جنوب أفريقيا والهند وكان يصر على عدم الإيمان بهذا القول مع أن الأثير كان موجوداً ومع أن خاصيته ملازمة له (وهى نقل الأصوات والضوء) ومع أن سماع الصوت من لندن في جنوب أفريقيا والهند كان موجوداً بالقوة في الأثير فلما كشف العقل العلمى هذه الحقيقة على طريقة الفرض ، آمن بها الناس . فهل إنكار وجودها فيما مضى كان يطنعن على حقيقة وجودها ؟ ؟

والعلماء الكاشفون لوجود الأثير . لم يلمسوه ولا نظروه لا شموه ولا تذوقوه ! ولكنهم مع ذلك آمنوا به ، وآمنوا بأنه لا يحس بإحدى الحواس ولا يدرك إلا بآثاره .

ف«ميكلسن» فرض وجود بحر من الأثير مالى للفضاء لأنه رأى النور لا يصادم أبصارنا فعلم أنه تموج . وأن هذا التموج نتيجة الانعكاس الأثيرى .

هذا كلامنا عن الاستدلال بالعقل والحس .

فهل استطاع العلم أن يتعرض لوجود الله أو ذاته أو سر الحياة ؟ كل ما وصل إليه العلم هو أن يلقى ضوءاً على عقيدة الوحي ويطابق

باستكشافاته حقائق الدين . أما هو بذاته فقد أعلن أن ذات الله ووجوده
وسر الحياة . أمران وراء غايته وفوق طاقته ، وما كان للعلم الذى لم
يكشف بعد كل أجزاء الأرض وهى أصغر كوكب . فى صغر عالم .
ملايين العوالم الكونية . أن يتناول إلى البحث عن حقيقة صانع هذه
العوالم .

فإذن حقيقة : الله تعالى فوق متناول العلم وفوق العقل وفوق طاقة
الفطرة - وهى أصدق وسائل الإدراك ، ولهذا جاء التكليف الدينى بالتوحيد
المجرد . ولم يأت بالبحث عن الصانع . لأن التوحيد مركز فى الفطرة
كما ذكرناه فى غير هذا الفصل ، أما البحث عن الصانع فيفوق جميع القوى
الإنسانية .

يرى العلم الطبيعى (وموضوعه دراسة الأكوان) أن الوجود نهاية
يقصر العلم عن الإحاطة بها وتقصر وسائله عن استقصائها فما بالنا بالموجد .
وانتهى العلم إلى القول بأن الوجود سر لا يمكن كشفه كله ، تتموج
فيه عوالم لا حد لها ، تتولاها قوى لا تدخل تحت حسابان . وكلما ظن
عالم أنه عرف أحدها ناقضه آخر . فإذا انتهوا إلى الإحاطة بحقيقة جزئية
عرفوا بها أن أمامهم سحبا من الظلام .
فالعلم العاجز باعترافه عن إدراك سر الوجود لا يغامر بمحاولة
معرفة الموجد . !

فلم يبق بعد عجز الحس والعقل والعلم إلا أن نستدل على وجود
الله تعالى بإحدى طرق ثلاث :
طريقة فرض وجوده كما فرض « ميكلفسن » وجود الأثير وكما فرض
« دالتون » نظرية الذرة .

ولا غبار على هذه الطريقة فـ « أينشتاين » كان يرفض البرهنة بالتجريب و«دالتون» هذا كان يعتقد ما كان يعتقد « جاليلو » من أن البرهان القائم على التجربة ليس ضرورياً ، وأن الإلهام يقوم مقامه . وقد قال « أينشتاين » في محاضرة له ألقاها سنة ١٩١٨ : « إن الشأن الأول في الاكتشاف العلمى إنما هو للبداهة » .

وطريقة تطبيق هذا الفرض هى أن نقول :

إن ظهور الشيء أو عدم ظهوره للعيان لا يمكن أن يؤخذ دليلاً على وجوده أو عدمه فإننا لا نستطيع أن نرى اللوح الزجاجى الصافى الأديم وهو مع ذلك موجود .

وقد اعترف العلماء الفلكيون بوجود كوكب رفيق الشعرى قبل أن يراه « ألفن كلارك » ودون أن يروه هم أنفسهم وكان دليلهم على وجوده اليقيني - وليس الوجود الفرضى - هو انجذاب كوكب الشعرى ، والجلذب من الخواص الميكانيكية للمادة فقالوا إذن هناك كوكب خفى يجذبه .

فعدم رؤيتنا الله سبحانه وتعالى لا تمنع من وجوده تعالى ، له الملك والحمد ، فثبت بهذا جواز الوجود .

ولدينا مثال أقرب من هذا حساً ؟ فهل يستطيع قارئ أن يتصور وجوداً مادياً لجزء من عشرة ملايين جزء من المليمتر ؟

إنه موجود ويسمى (أنغسترم) ويستعمله علماء الطبيعة فى قياس أمواج النور ! !

ثم ننتقل إلى القسم الثانى من الفرض :

ما دام لم يثبت أن حياة الكون ذاتية - أى نتيجة فعله الخاص - فلأمندوحة لنا عن فرض قوة مسيطرة عليه تمده بالحياة والانتظام وليست من ذاته بل هى خارجة عنه ، فلو قلنا إن التجاذب الميكانيكى التجاذب

الكهربائي أو التجاذب المغناطيسي هو قوام هذا النظام لاعتراضتنا
صعوبات منها :

هل هذا التجاذب ناتج عن طبيعة التركيب ؟ فيجب إذن أن يعمل
دائماً . ولو عمل في بدء التنوع لتحطم الكون .

فيجب أن نفرض عاملاً خارجاً عن طبيعة التركيب وعن طبيعة
التكوين . ولا تهملنا صفة العمل ونفرض لهذا المؤثر الخارجى المستقل
أنه عاقل . . . لأن انتظام التركيب وانتظام التكوين وتنوع المادة مع
وحدة العناصر واختلاف المركبات باختلاف نسبة الذرات يلزمنا بفرض
أن تلك القوة عاقلة .

ونفرض أنه واحد . . . لأنه يجب أن يكون أبسط من كل
مخلوقاته فعن الواحد تتفرع باقى الأعداد وعن النقطة الهندسية يمتد الخط
وتنشأ سائر الأشكال ، وما دام للواحد هذه القدرة العجيبة فلا يحتاج
معيناً ولا يقبل شريكاً بسبب طبيعته الأحادية !

الذى يخلق الكون وشموسه وكواكبه ومياهه وترابه وعقوله المفكرة
وأيدى الرسامين السحرة وأيدى الأطباء المهرة ، من ذرة تبلغ جزءاً
من مائة جزء من أربعة ملايين من البوصة ، عاقل وواحد ومستوجب
لكل صفات العظمة والتفرد .

والذى يخلق جميع ذرات العنصر الواحد متشابهة وزناً وشكلاً ، ويجعل
من تخالف تركيبها ، مخلوقات جديدة متنوعة ، ويجعل لتوالد كل عنصر
نسبة تركيبية ثابتة لا تتغير . عاقل وواحد ومستوجب لكل صفات العظمة
والتفرد .

فهذا الفرض أدى بنا إلى الافتناع العقلى وإن لم يكن أدى إلى اليقين .

والطريقة الثانية : هي الإذعان للوحي والتصديق بما جاءت به رسالات الأنبياء خاصة بحقيقة الألوهة ما دمنّا نحن نجعلها . وما دام الذين تحدثوا إلينا عنها قد أعجزونا بأقوالهم وأفعالهم ووافقوا أصل البداة البشرية المعتقدة بوجود إله .

وقد فصلنا هذا في الفصول التالية تفصيلاً يستند إلى العلم والعقل .

وتلك الطريقة بما فيها من القبول والاطمئنان ، تؤدي إلى التسليم القلبي وإن لم تكن تؤدي إلى اليقين .

والطريقة الثالثة : هي التعرض للتجلي الإلهي بواسطة التأمل والرياضيات والعبادة ، وهي طريقة موصلة إلى اليقين .



وراء هذا الكون كونا روحانيا آخر

الفلسفة المادية تقول بإخضاع كل حقيقة دينية للعلم ومشاهد الحس ، وهذا الرأي قديم صاحب نهضة الفكر الإغريقي ثم نادى به قوم في العصور المتأخرة ، وإنا لنعتقد أن الباعث عليه هو رغبة إشباع الحس بالذات والمتع : والفرار من الإيمان بوجود حياة أخرى ، فيها حساب وجزاء ، أى الفرار من كل فكرة تقيم رقابة على الطبيعة الحيوانية في الإنسان : فهي فلسفة لاتستند إلى مذهب علمي . وإنما مصدرها شهوة عادية جارفة .

وقد أثبتنا في فصل آخر أن الحس لا يغني في إدراك حقائق الوجود وفي فصل غيره أن حقائق الدين لاتخضع لوسائل العلم المادى التجريبي لإثباته فيه كل مقنع لكل عقل مستقيم .

وفي هذا الفصل نثبت أن وراء عالمنا ، عالماً روحانياً وعوالم أخرى ليس للحس إلى إدراكها من سبيل . وإنما يدرك الحس من جوانبها بعد أعنف المحاولات ، أضعف الجوانب الرامزة إلى قصوره ، والمشيرة إلى حدود طاقته .. قال الأستاذ « البرت دروشا » الفرنسي في كتابه « استخراج الحس الإنساني » ما يأتي ، نقلاً عن الأستاذ « لومبروزو » العالم الإيطالي الشهير وواضع علم النفس الجنائي :

« كنت شديد الإنكار للمذهب الروحاني بحيث لم يلحق شأوى فيه إلا قليل من العلماء ، ولأجل التحقق من ذلك ، يكنى أن يطلع القارىء على كتابي « المجانين والشواذ » وعلى كتابي « بحوث في النوم المغايبى » فقد استرسلت فيهما في الإنكار إلى حد أن أوسعت الروحانيين سباً . إلى أن قال :

« وبما أنه قد اقترح على (إشارة إلى كتاب كتبه إليه صديقه العالم الإيطالي الأستاذ كيا بارلى) أن أمحص حوادث تحدث بحضرة وسيطة خارقة للعادة حقاً ، هي مدام « أوزابيا » فقبلت هذا الاقتراح ، مرتاحاً إلى أن هذا التمحيص سيكون بمساعدة رجال ممتازين فى الأمراض العقلية وهم : « تامبورينى وفيرجيليو ونيانكى وفيزيوني » وقد كادوا يكونون مثلى فى إنكار صحة المسألة التى نحن بصدها . وتوقعت منهم أكبر مساعدة لى فى مراقبة ما يحدث من الظواهر .

اتخذنا قبل البدء فى التجارب أشد ما استطاع من التحوطات . ولما فحصنا الوسيطة من ناحية علم الأمراض العقلية الحديث ، رأينا أن لديها قصوراً فى التعقل واضطرابات هستيرية وربما كانت صرعية . وآثار جرح عميق فى العظم الجدارى الأيسر للرأس .

وقد أبطلت أنا والدكتور « تامبورينى » حركة رجلى الوسيطة ويديها بواسطة أيدينا وأرجلنا ، وبدأنا تجاربنا وأتمناها تحت ضوء مصباح مسرح وكان أحدها يشعل بغتة من آن لآخر ، عوداً من الثقاب لمباغثة التدليس .

أما الحوادث التى شاهدها والوسيطة على تلك الحالة فكانت عجيبة إذ استطعنا أن نشاهد فى الضوء الساطع ، ارتفاع المنضدة وارتفاع كراسينا أيضاً بمقدار يتطلب من القوة لإنزالها ما يعادل ٥-٦ كيلو جرامات .

وبناء على طلب أحد الحاضرين وهو المسيو « جيوفلى » الذى كان يعرف الوسيطة منذ زمن بعيد ، حدثت طرقات فى باطن المنضدة ، هذه الطرقات كانت تجيب فى الوقت نفسه على المسائل التى توجه إلى القوة التى نخشها ، متعلقة بمعرفة أعمار الأشخاص الموجودين وما سيحدث وحدث من الأمور . وكانت هذه الطرقات تحدث بفعل ما يدعى أنه روح ميت .

فلما أطفأنا المصباح ابتدأنا نسمع طرقات شديدة فى وسط المنضدة . وبعد قليل من الزمن أخذ جرس صغير كان موضوعاً على خوان يبعد عن

«أوزاياا الوسيطة» أكثر من ١٠ س ، يرن في الهواء على رؤوس الجالسين
ثم نزل واستقر على منصدتنا ، وبعد هنية ذهب واستقر على سرير يبعد
عن الوسيطة بنحو مترين .

وبينا كنا نسمع رنين الجرس بناء على طلب أحد الحاضرين كلفنا
الدكتور « اسنسى » بأن يقوم ويقف خلف مدام « أوزاياا » وأن يشعل عوداً
من الثقاب . واستطاع أن يرى الجرس معلقاً في الهواء ، ثم ذهب وسقط على
السرير خلف الستار .

وسمعنا بعد ذلك - لأننا كنا لانزال في الظلام - أن منصدة تتحرك
بينما يدا الوسيطة كانتا مقبوضاً عليهما بشدة من الدكتور « تامبورينى » ومنى
أنا. وفي نفس الوقت أحس الأستاذ « فزيولى » بيد تجذب شاربه وتخز ركبتيه ،
وكانت تلك اليد صغيرة وباردة .

وفي نفس الوقت أيضاً سحب من تحتي الكرسي ، الذى كنت جالساً
عليه ، ثم أعيد إلى مكانه ثانياً . وانتقل من مكانه فجأة بساط ثقيل في
حجرة النوم كان على بعد أكثر من متر من الوسيطة ، كأنما كان مدفوعاً
بتيار من الريح ، واتجه إلى مغطياً جسمى كله . فحاولت أن أتخلص منه
ولكنى لم أستطع ذلك . إلا بعد بذل جهد كبير .

وشاهد بقية الحاضرين السنة صغيرة من النار ، تتألق على بعد عشرة
سنتيمترات فوق رأسى ورأس الدكتور « تامبورينى » .

ولكن الذى أدهشنى أكثر من كل ما ذكرته ، هو انتقال طبق مملوء
دقيقاً دون أن يسقط مافيه ! كأنه استحال إلى جيلتين متماسك ، وقد كان
موضوعاً في حجرة النوم على بعد أكثر من متر ونصف متر منا ، وكانت
الوسيطة قد فكرت في تحريكه بإثارة مافيه على وجوهنا فقالت لنا وهى في
دور تشنجاتها : « خذوا حذرکم فسألقى بالدقيق الموجود هنا على وجوهكم
جميعاً » وعند ذلك أضأنا المصباح وفضضنا حلقة الاجتماع التى كنا عليها حول
المنصدة فوجدنا طبق الدقيق قد انتقل من مكانه :

وبعد قليل رأينا قطعة كبيرة من أثاث الحجرة التي كنا فيها ، موجودة بعيداً عن حجرة النوم وعلى مسافة مترين منا ، تسعى نحونا ببطء كأن أحداً يحملها . فكان الناظر إليها وهي تتحرك ، يخيل إليه أن حيواناً كبيراً يمشى إلينا .

وقد كررت هذه التجارب أخيراً مع الأساتذة « دوامبسي ، وكيابا ، وفردينوا » فرأيت فوق ما رأيت أن كرسياً قفز من الأرض إلى سطح المنضدة ثم عاد إلى مكانه الأول .

وقد عملت تجارب مشابهة لهذه بواسطة الدكاترة : « بارت ، وديفيوز » فكتبنا لي بأنهما شاهداً مراراً جرساً يدق وهو معلق في الهواء دون أن يحركه أحد . وكان معها المالى « هيرشى » . فطلب أن يتكلم مع روح إنسانة كانت عزيزة عنده فرأى وجهها وكلمته بالفرنسية . وكانت فرنسية الجنس وماتت منذ عشرين سنة . وكذلك الدكتور « بارت » رأى أباه الذى عانقه مرتين : وقد شاهد الجميع السنة صغيرة من اللهب فوق رأس الوسيطة مدام « أوزايا » .

وإلى القارئ قصة أخرى :

لما التأم مؤتمر المباحث الروحية فى باريس سنة ١٩٠٠ ميلادية تحت رئاسة الأستاذ الطبيعى الكبير « الفرد رسل ولاس » رأت لجنة من لجانه أن تحدث تجارب جديدة مع الطائفة الإسلامية المعروفة (باليسوية) فاستدعوا أفراداً منها إلى قاعة المؤتمر وقد احتشد فيها من أعضائه نحو ستائة رجل ثم طلبوا إليهم أن يظهروا بعض الخوارق التى اشتهرت عنهم وأن يخضعوا فى عملهم لكل ضروب التحييص التى تفرض عليهم ، فقبلوا .

ورأى الباحثون أعضاء المؤتمر أن يستعينوا بواحد من الذين لهم خاصية رؤية السبيلات الروحية بأبصارهم وهم أيقاظ ؛ ليروا ما يحدث من شأنها فى أثناء ظهور هذه الخوارق وهذه خاصية معروفة . توجد لدى بعض الناس

بدون كسب فيرون بواسطتها الإشعاعات الجسدية ، والسيالات الروحية بدون أقل مشقة .

فتقدم ثلاثة رجال من طائفة العيسوية . وأحاط بهم المجربون (أعضاء المؤتمر الطبيعى) من كل ناحية وراقبهم مراقبة شديدة وأخضعوهم لأسلوب التمهيص العلمى الدقيق . فكان ما أظهره العيسويون ، محيراً لعقول أعضاء المؤتمر ، لعدم استطاعتهم تعليله بالعلل الطبيعية .

وضعوا أمامهم أتوناً مملوءاً ناراً فأخذ العيسويون يحرقون فيه راتينج البنجوان . وشرع أحدهم فى استنشاق أبخرته بشدة وطفى بميل رأسه يميناً وشمالاً حتى حدث له خور جعله فى حالة عصبية فقد معها وعيه . وعندئذ تناول ثعابين حية وسامة وقطع أعناقها بأسنانه . ووضع منها بعضاً آخر حول عنقه . ثم كسر قلدحاً من الزجاج وشرع يعض قطعته تحت أسنانه مضغاً عنيفاً ثم يزدردوها بحالة مزعجة .

ثم وقف نفس الرجل بقدميه عاريتين على حد سيف وأخذ يثقل نفسه عليه ، ولما نزل حل حزامه من وسطه وأنزل سراويله إلى نحو عشرين سنتيمتراً ثم نزع قميصه وأسند بطنه إلى ذلك السيف الذى كان يمسكه اثنان ومكث على هذه الحالة دقائق وكان علو السيف عن الأرض نحو ثمانين سنتيمتراً .

فتمكن الحاضرون من رؤية جرح عريض فى أعلى بطن ذلك العربى . ولكنهم لم يروا دماً سائلاً منه !!

وما كان أكبر دهشتهم حيناً رأوا الجرح اندمل فوراً بعد أن مسح باللعاب وصار كأن لم يكن ! ثم أقبل عيسوى ثان فأدخل إبرة كبيرة فى خديه . مخترقة لسانه .

وجاء الثالث فأدخل مسباراً حاداً فى وسط جمجمته ودقه بواسطة قطعة من الخشب ، وكان قطر ذلك المسبار أربعة ملليمترات فنفذ فى عظم الجمجمة على عمق اثنى عشر ملليمتراً . ثم أنه هو نفسه أدخل إبرة كبيرة تحت جفنه

الآيمن فأحدثت جرحاً يبلغ عرضه من أربعة ملليمترات إلى خمسة ولكن لم تمض دقيقتان حتى اندمل الجرح كأن لم يكن • وشهد ذلك الحاضرون •

وقد سأل المؤتمر الرجل الذى استعانوا به على رؤية السيالات الروحية عما شاهده أثناء التجارب ، فأخبرهم بأنه رأى عند جلوس الثلاثة العيشويين القرفصاء ، ناقوساً كبيراً من قوى روحانية شملهم فى جوفه • وفصلهم عن الجماعة المحيطة بهم ، قال الرجل : وكان ذلك الناقوس من قفته يشبه البللور الناصع الشفافية ويأخذ فى العتامة شيئاً فشيئاً ، كلما قرب من الأرض وأن الناقوس دام شاملاً لهم مدة أن كانوا فى حالة سكون وخشوع • ولكن لما سطع دخان البخور تحول هذا الناقوس إلى قفص يبلغ ارتفاعه ثلاثة أمتار وعرضه متراً ونصف متر • وطوله أربعة أمتار ، وكان هذا القفص يفصلهم عن المحيطين بهم •



وهذه الوقائع الدالة على وجود كون روحانى آخر لا يخضع لحسنا ولا لنواميس طبيعتنا إنما نضربها أمثالا تنبئ عن مشيئات لها تتعدد كل يوم فى كل مكان •

وتؤيد هذه الوقائع بتحقيقات العلماء فنلفت النظر إلى كتاب ألفه عالمان كبيران هما «هيروارد كارنجتون» و«جون رميدر» وهو كتاب (الموت: أسبابه وجواهره) فنه يخرج القارئ مقتنعاً بأن الموت المادى للجسم نتيجة لازمة لكل كائن حى • وهذا لايعنى فناء الروح فإنها يمكن رؤيتها ومخاطبتها بالصوت المباشر وتصويرها بالفوتوغرافيا ويمكن تسجيل أصوات الأرواح على شريط ناطق أو اسطوانات •

وفى إنجلترا معهد دولى به معمل كامل الاستعداد يتولى تلك العمليات فى أى وقت • وتوجد إلى جانبه معاهد أخرى ترعاها الحكومة الإنجليزية لأنها تعتبر العلم الروحى ليس تدجيلاً أو شعوذة • وإنما هو فى مقام العلم

التجربى من حيث الثبوت والصدق • وتوجد مجلات أسبوعية وشهرية منتظمة ومطابع لاتطيع إلا الكتب الخاصة بعلم الروحيات •

ومن العلماء الطبيعيين المبرزين • من نادوا بالروحانية وألفوا فيها • وبينهم سير ويلكم كروكس ، والفرد رسل ولاس ؛ ولورد رالى ، وسير أرشيبالد جيكي ، وسير ويليام بارت ، وسير أوليفر لودج ، ودكتور أندريد (أستاذ علم الطبيعة فى جامعة لندن الآن) والعلامة أدنجتون أستاذ الفلك فى جامعة كمبردج الآن .

وقد أعلن لامبروز الإيطالى • وكاميل فلامريون الفرنسى (وهما من فطاحل العلماء) اعتقادهما بصحة الظواهر الروحانية • وإمكان التواصل بين عالمنا وعالم الروح : بعد أن كانا من أشد المنكرين . ووافق على صحة الظواهر الروحانية العالم الفسيولوجى الأشهر ريشيه فى كتابه (ثلاثون سنة فى البحث الروحى) وقد قال هذا الأستاذ فى كبرى المجلات العلمية الإنجليزية (نايتشر) أن الروح يمكن الوصول إليها بقوى تكشف لنا عن حقائق لا يمكن أن يظهرها النظر أو السمع أو اللمس .

ومن الساسة الذين ناصروا العلم الروحى ذلك السياسى العظيم غلادستون وزميله إيرل بلفور والأسقف بويد كارينتر وسير مارشال هول المحامى الإنجليزي المعروف ولورد تينسون والبروفسور ستيد .

ويقول آرثر فندلاى رئيس المعهد الدولى للبحث الروحى فى لندن فى كتابه (على حافة العالم الأثيرى) الذى ترجم إلى سبع عشرة لغة وطبع باللغة الإنجليزية أربعين مرة ما يأتى :

« إن المعرفة التى أمكن الحصول عليها عن طريق هذا العلم الروحى قد ثبتت ووطدت الحقائق العظمى التى ينادى بها الدين والفلسفة وقد اهتمينا فى بحوثنا إلى عقل يدبر كل شىء فيشكل الكون وبصوره •

والى منهاج عظيم هائل يقصر عنه إدراك أى فرد فى هذا العالم من تقصر عنه مدارك الغالبية العظمى فى العالم التالى (يقصد الجليل القادم) •

لقد وجدنا أننا نزرع هنا وسنحصده هناك فيما بعد .

وأن الحياة باقية لاتنعدم . وأن الذاكرة والشخصية هي أنفسنا الحقيقية
وأنها لاتندثر عند الموت . وإنما الذى يندثر هو غطاؤها الفيزيقي .

ومن الحقائق المسلمة أن الصحف الإنجليزية المختصة بدراسة المسائل
الروحية تنشر صوراً علمية معجزة . منها فى مجلة « بسايكك نيوز » صورة
وسيط فى حالة الغيبوبة ، وقد طار فوق رؤوس المتفرجين على أعمدة
من (الاكتوبلازم) لا تراها العين ، مخالفاً فى الظواهر قانون الجاذبية ،
وخاضعاً له فى الحقيقة ، وفى كتب الدكتور كروفورد صور للاكتوبلازم
وقضبانه مأخوذة فى ضوء المغنسيوم بعد تدريب الوسيط على احتمال هذا
الضوء المعيد للبناء الاكتوبلازمى الذى يخرج من نفسه .

ومن المقرر أن الأرواح تعيش معنا فى نفس جونا . ولكننا لا ندرك
وجودها لأن عيوننا وآذاننا لا تستجيب لاهتزازاتها . فعالم الروح أعلى
فى درجة الاهتزاز من عالمنا .

ومالنا نستنكر ذلك مع أن العلم التجريبي الحديث أنبأنا بأنه اكتشف
أضواءً غير منظورة ، وأصواتاً غير مسموعة للنظر والسمع البشرى . فمن
الأضواء : الاشعاعات اللاسلكية والسينية وفوق البنفسجية وتحت الحمراء .
ومن الأصوات ، الموجات التى استحدثها العلامة وود الأمريكى ، فالروح
من هذا الطراز .

والمادة أثير فى درجة اهتزاز تستجيب لها مشاعرنا والأثير مادة
فى درجة اهتزاز لا تستجيب لها مشاعرنا .

هذا هو حل اللغز المفقود ، لغز الروح والمادة :

وقد تشكك العلماء التجريبيون قديماً فى مخاطبة الروح للأحياء
واعتبروا هذا تدجيلاً وطرقاً احتيالية : حتى تقدمت المباحث الروحية
فاستندت كل جزئية من جزئيات مكتشفاتها إلى العلم التجريبي ، فعرفنا
أن الأرواح التى لاتسمح طبيعتها بأن تستجيب لأبصارنا وأسماعنا ، تستعين

على الظهور لنا ومخاطبتنا بأن تستعير من الوسيط ومن الحاضرين مادة
الاكتوبلازم .

فالروح تصوغ لنفسها قناعاً يخفض من اهتزازاتها العالية فيجعلها في
متناول إدراكنا الحسية ، مرئية مسموعة ملموسة .

وقد اخترع العلماء أجهزة جديدة لتصوير الروح وإظهار صوتها
فللأول رفلكتوجراف ، وللثاني تليفوكس . . . وألف هوارس ليف
كتاباً يشرح فيه قواعد (علم الوساطة الروحية) وكل قارئ لهذا الكتاب
يستطيع أن يجعل من نفسه وسيطاً .

ومن عجائب العالم الروحي أن الأطباء يلجأون إلى العلم الروحي
لعلاج الأمراض المستعصية بإشعاعات غير المنظورة . وهذا يحدث في
إنجلترا وعلى الخصوص لمعالجة وتشخيص السرطان والتدرن الرئوي
والروماتزم المشوهة والذبحة الصدرية والشلل والبول السكري .

ومن عجائب العلم الروحي أنه توجد في عالمنا هذا مؤلفات من تأليف
الأرواح وليست من تأليف أحيائنا منها كتاب (تعاليم سيلفر بيرش)
وقد حلّى صدر هذا الكتاب بصورة الروح مأخوذة بالطرق العلمية الحديثة
وهذا الروح المؤلف (تعاليم سيلفر بيرش) يظهر أسبوعياً ويحاضر في
مختلف الشئون وتستغرق محاضراته تسعين دقيقة متوالية . يدون خلالها كل
مايقوله . وسجلوا لهذا الروح صوته على اسطوانة نفدت بعد ظهورها بأيام .

فكل ما ذكرناه يدل بوسائل ثابتة مقررة على أن وراء عالم المادة
عالمًا روحيًا وأن هناك خلوداً وبعثاً وجزاء .

وقد خدم العلم الدين في إثبات نظرياته إثباتاً حسيًا ، وهذا يؤيد
ما قلنا به في فصل (الدين لا يخضع للعلم) ولكن العلم كلما تقدم صدق
الإسلام وأثبت ما قرره .

« فلأن دنيانا ليست هي كل شيء ولأننا سنرد إلى عالم الغيب فنجازي
ونحاسب ولأن الإسلام ينظم لنا الحياتين . . . لهذا أنا مسلم » .

أدرك بالنفس ما ليس يدركه الحس

ليست بنا حاجة : - من الوجهة العملية للبرهنة - بعد فصل « وراء هذا الكون كون روحاني آخر » إلى أن نتكلم في موضوع النفس والحس وإنما آثرنا أن نكتب هذا الفصل لنعطى القارئ ، الوجهة الفلسفية في موضوع (الروح وخلود النفس) وعدم إمكان الاستغناء بالحس في الإدراك ، لعدم كفايته في تحقيق المعرفة الوجودية ، إذ أن من تلك المعارف ما هو خارج على طاقة الحس وفوق متناوله ، بعد أن شرحنا الموضوع في الفصل المشار إليه من وجهة نظر العلم التجريبي .



جرى القدماء من الفلاسفة الإسلاميين على تقسيم العلم إلى عقلي وشرعي واعتبروا العلمين مع ذلك ، علماً واحداً . وأصرح الدعاة لارتباطهما الفيلسوف الإسلامي الأشهر ابن رشد وله في كتاب (فصل المقال في ما بين الحكمة والشرعية من الاتصال) .

وجرى أبو حامد الغزالي - وهو عندنا زعيم الفلاسفة الإلهيين في العصور القديمة والحديثة - على هذا الرأي تقريباً فقال في الرسالة اللدنية : « وأكثر العلوم الشرعية عقلية عند عالمها . وأكثر العلوم العقلية شرعية عند عارفها » .

وقال : إن العلم الشرعي نوعان ، علم أصول التوحيد ، الناظر في ذات الله وصفاته وأحوال الأنبياء . . . وأحوال الموت والحياة والبعث والحشر والحساب . . . وأن أهل النظر في هذا العلم يتمسكون بآيات الله تعالى من القرآن . . . ثم بأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ثم بالدلائل العقلية والبراهين القياسية .

ويقول الغزالي (ولنا مثل رأيه مخالفين الكثيرين) إن الله تعالى أخبر في القرآن عن جميع العلوم وجل الموجودات وخفيها ، وصغيرها وكبيرها مستدلاً على دعواه بآيات القرآن نفسه .

كقوله « ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » (١) و « ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » (٢) ونحن نفسر هذا المقال فنقول إن العلوم الكونية جميعاً مندرجة في القرآن ولكن هذا الاندراج إما أن يكون نصاً أو رمزاً وسيأتى بيان ذلك في فصل آخر .

كما أننا نعزو حضارة الإسلام ونبوغ المسلمين في العلوم الطبيعية والرياضية إلى توجيهات القرآن .

ونعود إلى تقسيم الغزالي للعلم الشرعى فهو يقول إن النوع الثانى من العلوم الشرعية هو علم الفروع أو العلم العملى ويشمل فى نظره ثلاثة أقسام : حق الله تعالى وهو أركان العبادات . وحق العباد وهو يجرى فى أمرين ، المعاملة والمعاودة وموضوعها (علم الفقه) وحق النفس وهو علم الأخلاق .

وأما العلم العقلى فله عنده أيضاً ثلاث مراتب : العلم الرياضى والمنطقى ثم العلم الطبيعى وصاحبه ينظر فى الجسم المطلق وأركان العالم وفى الجواهر والأعراض وفى الحركة والسكون وفى أحوال السماوات والأشياء الفعلية والانفعالية ، ومنه النظر فى أحوال مراتب الموجودات وأقسام النفوس والأمزجة وكمية الحواس وكيفية إدارتها لمحسوساتها . . وهو ينتهى عنده إلى علم صناعة الكيمياء .

والمرتبة الثالثة وهى العليا . النظر فى الموجود وتقسيمه إلى الواجب والممكن ، والنظر فى الصانع وذاته ، والعلويات والجواهر الفردة ،

والعقول المجردة والنفوس الكاملة ، وينتهى عنده إلى علم النبوات . .
والنظر في أحوال النفوس المقدسة . ومن فروع علم الطلسمات والزيجات
وما يتعلق بها .

ويقول الغزالي إن العلم الإنساني يحصل من طريقتين أحدهما التعلم
الإنساني والثاني التعلم الرباني .

والتعلم الرباني في رأيه على طريقتين ، التعلم من داخل ، أى تفكر
الإنسان في نفسه واستفادته من النفس الكلى وهذا النوع عنده أشد تأثيراً
من سواه .

وأنه إذا غلب نور العقل على صفات الحس ، يستغنى الطالب بالتفكر
عن كثرة التعلم فإن نفس القابل تجد من الفوائد بتفكر ساعة . ما لا تجد
نفس الحامد بتعلم سنة . . ويبرهن على صدق مذهبه في التعلم الرباني
وطريقته بأن النفس لا تستطيع أن تتعلم جميع مهماتها الجزئية والكلية
بالتعلم ، بل أنها تستخرج بعضها من الضمير بصفاء الفكر ثم يمضى في
شرح طريقة التعلم الرباني فيصفه بأنه على وجهين الوحي والإلهام .
ويصف الوحي بأنه تصريح بالأمر الغيبي . والإلهام بأنه تعريض به
وتوجيه إليه ويسمى العلم الحاصل عن طريق الوحي : علماً نبوياً . والحاصل
عن طريق الإلهام علماً لدنياً ويرى العقل آلة تحصيل العلم النبوى .
والنفس آلة تحصيل العلم اللدنى .

ويستدل الغزالي على أن العلوم مركوزة في جوهر النفس البشرية
وأنها تستخرجها بالتذكر ، باستدلال في غاية القوة العلمية والتجريبية
وهو طرود إصابات مرضية معينة على أشخاص من الناس يفقدون بها
معلوماتهم ؟ وتضيق ذاكرتهم فلا يعود أحدهم يعرف شيئاً مما كان يعلمه
قبلاً . فإذا زال المرض عاد المريض إلى تذكر كل شيء . فعلمونه
إذن لم تمنح وإنما حجبتها عارض طارئ .

ويبنى على ذلك رأيه في أن اشتغال النفس باستخراج العلوم والحقائق
المخبوءة فيها ، وإنما هو إزالة العوائق الساترة لتلك العلوم .

ولعلنا نجد دليلاً يؤيد هذا الرأي ، فيما يقدمه الفلاسفة برهاناً على أن التوحيد فطرة في النفس ، فإننا نجد رجلاً مادياً يحارب الله ويستخدم مواهبه في إنكاره . فإذا نزل به أمر يكرب له . فزرع إلى الله دون وعى .

وليس هذا من أثر وراثة المعتقد كما يتوهم بعض غلاة الملحدين فيدافعون عما يبدو منهم من هذه الظواهرات الإيمانية بهذا الوهم .

إذ أن الثابت في علم النفس الحديث أن قانون الوراثة لا ينسرى إلا على الاستعدادات دون الصفات والأفكار .

ومع ذلك فإذا تخيرنا رجلاً ملحداً من سلالة ملحدين وراقبنا اتجاهه النفسي في مآزقه وجدناه يضرع إلى الله .

فتكون إذن محاولات العقل البهري الحسى ، هى السائرة للمركز في النفس في حالتنا هذه وبالوقوع في مأزق تشل قوى هذا العقل ومنطقه المادى الكسبى . وتعمل قوى النفس فيظهر من حقائقها ما حجبته خطأ التعلم .

وللفلاسفة الإسلاميين في تفصيل الإدراك النفسى آراء تشوق علماء زماننا ومتعلميه . ويتلقاها كل قارئ بالقبول . فهم أكدوا أن الحس ليس وسيلة لإدراك كل شيء . وأن النفس بذاتها مدركة إدراكاً لا تستخدم فيه واسطة وقد بنوا هذا على ما فهموه من حقيقة النفس فلنعرض اتجاه (ابن مسكويه) في الاستدلال على حقيقة النفس لأنه يمثل اتجاه فلاسفة المسلمين قال ابن مسكويه في (الفوز الأصغر) :

« إن كل عضو من أعضاء البدن ، وإنما هو آلة مستعملة لغرض لم يكن لينال إلا به : فإذا كان البدن كله آلات ولكل آلة منها فعل خاص لا يتم إلا بها . اقتضى استعدادها كما تستعد آلات الصائغ والنجار وغيرها وليس يجوز أن يقال إن بعض البدن يستعمل بعضه هذا الاستعمال لأن ذلك البعض هو آلة أو جزء من آلة . وجميعها مستعملة . ومستعملها غيرها

فإذا كان مستعملها غيرها ولم يكن بجزء منها . وجب أن يكون غير جسم وأن لا يستعمل مكان الجسم ولا يزاحم الآلات الجسمية في مواضعها .

ثم التفت ابن مسكويه التفاتة علمية جبارة فقال : «المزاج والأعراض التي توجد في الجسم . كلها تابعة للجسم ومنفصلة عن نظام تركيبه ، فلا يمكن أن تكون مسيرة للجسم مع أنها ناتجة عنه » .

ومع ذلك فالآلة الميكانيكية لا يمكن أن تحيا بمجرد هذا التركيب فالتجاذب المغناطيسي العضوي أين هو وأين أثره ؟

لو كانت الحياة البشرية وليدة المغناطيسية ، لدارت الآلة الميكانيكية بنفس التأثير . وهذا لم يحدث ولن يحدث في فتوحات العلم . لأن نظرية الحركة الدائمة التي يدأب العلماء على تحقيقها وهي المؤدية إلى دوران الآلة الميكانيكية بنفسها ، إذا فرضنا أنها تحققت وهو احتمال قد يكون بعيداً فلأنها تعتمد على مغنطسة خارجية تلغى صفات المعادن الطبيعية وتبها صفات أخرى .

وذلك أن البروفسور « لندمان » تمكن من إحالة غاز الهليوم (لا يوجد إلا في الشمس) أمام طلبته في معرض الآثار في كنجستون بلندن ، إلى سائل . ثم خفض درجة حرارته إلى ٤ فوق الصفر ، ثم تمكن زميله البروفسور « سيمون » من تخفيض حرارة سائل الهليوم إلى واحد فوق الصفر واستحضر حلقة مفرغة من الرصاص ، وأحال درجتها الحرارية بواسطة سائل الهليوم إلى واحد فوق الصفر ثم أوصل بها تياراً كهربائياً وقطعه عنها في الحال ، فظلت تدور بعد انقطاعه ولا تزال إلى الآن تدور .

فهذه المحاولة العملية لا تقوم على جواز تحريك الآلة الميكانيكية حركة دائمة مستغنية بنفسها ، بل مستغنية بمؤثر خارجي ، وذلك يثبت أن الجهاز البشري يحيا بمؤثر خارج عن ماهيته .

وقد وقع كثيرون في الحيرة حيال كلمتي « الروح والنفس » وهل هما مترادفتان أو بينهما فارق ؟ . . ! الواقع أن بينهما اختلاف الإطلاق اللفظي ليس غير . أما مدلولهما فواحد .

وقد جرى العرب وجرى القرآن على إطلاق النفس وإرادة بعض قواها أى جوانبها . وجرى على التعبير عن الروح بالنفس ، وعلى التعبير عن مظاهر الحياة الحيوانية بالنفس .

فمن أمثلة الإطلاق الأول ، قول القرآن « إن النفس لأماراة بالسوء » (١) و « بل سولت لكم أنفسكم أمراً » (٢) .

ومن الثانى قوله « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم » (٣) .

ومن الثالث قوله « كل نفس ذائقة الموت » (٤) « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » (٥) .

ونستطرد إلى القول بأن القرآن لم يمنع من معرفة الروح أو النفس بقوله « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى » (٦) بل نرى أن الآية تعريف واضح للروح وإعلان لحقيقتها الأمرية أى أنها من غير عالم المادة المصاغة منها أجهزتنا . وقد فسر العلم الحديث عالم الأمر فى ظننا بمحصره الكونيات بين « الطاقة » و « المادة » مما ليس هنا محل تفصيله فنكتفى بالتوجيه إليه .

يقول الفلاسفة الأقدمون فى إثبات أن النفس تدرك غير ما يدركه الحس ، وأن لها ادراكاً بذاتها لأمر المعانى ، لا توسط فيه لغيرها .

إن من شأن الحس أن يفسد عليه المحسوس القوى . كالعين فإنها تكل وتضعف من الضوء القوى والأشياء المنيرة التى تفوق قوتها ، والسمع

(٣) النحل : ٢٨

(٢) يوسف : ١٨

(١) يوسف : ٥٣

(٦) الإسراء : ٨٥

(٥) الأنعام : ١٥١

(٤) آل عمران : ١٨٥

فإنه يقل ويضعف من الأصوات الهائلة التي تفوق قوته . وكذلك باقى الحواس ونحن نزيد على هذا أن المحسات التي هى أضعف من قوة التقاط الحواس لا يمكن ادراكها ، بينما النفس ، كما يقول ابن سينا والغزالي وابن مسكويه وغيرهم من الفلاسفة الإسلاميين وغير الإسلاميين تقوى بكثرة المعقولات القوية وبمداومة النظر إلى الصور المتعريّة من الهيولى .

ويقولون : إن شأن الحس إذا انصرف عن المحسوس القوى إلى المحسوس الضعيف . لم يمكنه ادراكه ، كالشمس إذا حذق إليها المحدث ثم انصرف عنها إلى ضوء أقل ، لم يمكنه ادراك ما يراه أى لم تمكنه رؤيته . فأما النفس إذا أدركت شيئاً قوياً من المعقولات ، لم يكن تصورهما لما هو أقل منه . ناقصاً عن تصورهما له .

وكذلك تدرك (النفس) الخفايا الدقيقة مهما تناهت في الضآلة .



فبعد ما بينا أن الحياة الحيوانية ليست مجرد تجاذب مغناطيسى عضوى ، وأن النفس تدرك بقواها الخاصة ! معارف عالم المعانى . وهو ما ليس في طاقة الحس ادراكه . يتبين أن النفس ليست مادة وإنما هى غير المادة . معنى أو طاقة .

ويتقرر بهذا كله أن النفس ذات حركة خاصة مستقلة . وأنها غير الجسد وأنها لذلك لا ترتبط بمصيره من حيث الفساد والفناء ، لأن التبعية بينهما منعدمة . والماهية في كليهما مختلفة .

فلأن النفس باقية ولأنها تدرك غير ما يدركه الحس . ولأن روحى تدرك بخواصها أن للكون رباً مدبراً . وأن النبوات حق . وأن نبوة محمد أحق . بل أن التعرض للتجلى الإلهى أمر يقع لكل مؤمن متريّض صافى النفس .

لهذا كله أنا مسلم . . .



الحقيقة الالهية كما أظهرها الاسلام

تقبلها مشاعري وترفض سواها

الفطرية البشرية مجبولة على التصديق بوجود قوة فوقها . وهي تعلم أنها محتاجة إلى هذه القوة المجهولة منها والتي تحسها من أعماقها وتدرکها بآثارها وإن لم تعرف ماهيتها . !

تلمست هذه الفطرة صوراً مجسمة لتلك القوة المجهولة ، لأن البدائية في البشر معناها الاعتماد على الحسيات . وكلما ارتفعت مكانة الأمة وارتقت آمنت بالمعاني ، لأن المعاني وليدة التأمل والفكر . والفكر والتأمل لا يعملان إلا في حالة الارتقاء الشعوري والعقلي . والفرد الإنساني مصداق ومقياس لهذه الحقيقة ؛ فالطفل يشعر قبل أن يدرك فالإدراك الحسي سابق - من حيث الوضوح - على الإدراك الوجداني الذي يكون غالباً مبهماً وغير واضح الحدود . إذ الحدود . من صفات المادة . والوجدان ليس مادة . فلا حدود للمعاني ولا للمشاعر التي تتخلق فيها تلك المعنويات ، ولكن الوضوح فيها معناه الانكشاف . والانكشاف قد يكون صريحاً كاملاً وقد يكون جزئياً غامضاً .

نشأ عن هذه الفكرة ، أن البدائية البشرية اتجهت إلى تجسيد الإله في حيوان قوى ترهبه . كالفيل والحيوت . ثم في حيوان نافع كالثور ولهر ، ثم في شمس ونيران ونحو ذلك .

ثم ارتقت نوعاً فاتخذت إلهاً جميلاً ، إنساناً أو فرساً أو شجراً ، يسجدون لأجل هذه الأشياء ! ، ثم اختلفت جوانب الرقي في نفوس

البشر فرأى فريق منهم أن الله يجب أن يكون نورانياً في صورته ، ذا سلطان ، مهيباً في حضرته ، لا يطاق القرب منه ، فاتخذ النار إلهاً ... لأن لها هذه الصفات . وآخرون اتحدوا في الفكرة مع هؤلاء ولكنهم رأوا النار شيئاً تحت تصرفهم ، هم يشعلونها وهم يطفئونها ... فاتخذوا إلههم أشياء لها هذه الصفات وليس في مقدورهم التصرف فيها ، وهى النجوم المختلفة . فمنهم من عبدوا الشعرى ومنهم من عبد المشتري وغير ذلك .

وكان آخرون أكبر إدراكاً من الفريقين وأوسع تأملاً ، فقالوا إن الله يجب أن يكون غير متصف بالصغر أو بالكبر بالإضافة إلى هذه الجواهر النورانية (أى النجوم) بل يكون أكبرها ، فعبدوا الشمس ، واستعلت الايجاهات الفكرية في غيرهم وتقدموا في طريق التوحيد مرحلة ، فقالوا : إن الله لا يجوز أن يكون له شريك في صفاته ، والشمس يشاركها في طبيعتها النورية غيرها من النجوم فعبدوا (النور المطلق) .

وكان لقدماء الإغريق آلهة متعددة ، فمنها زفس كبير الآلهة وزوجته الآلهة هيرا ممثلة الهواء وربة الزواج ، وأفلون ممثل الشمس وإله النور ، وأثينا إلهة الحكمة والصناعة ، ومارس إله الحرب ، والزهرة إلهة الجبال والتهتك ، وفوسيد إله البحار ، وهينست إله النار ومثير البراكين ، وإيزيس إله الظلمات والموت . والإغريق في هذا التفكير يمثلون القطرة البشرية في مرحلة انتقالها من البداوة العقلية إلى أول سلم الفلسفة وهى ابتداء التأمل ، فقد أزعجتهم هذه الظواهر ، الموت والظلمة والنار والحرب فاعتقدوا أن كلا منها إله . !

وكذلك كلما ارتقت البشرية واتسعت دائرة التأمل العقلي ، انكشف للوجدان الإنسانى بعض ما هو مودع فيه من الحقائق ، انكشافاً جزئياً هو الذى تدل عليه تطورات فكرة الألوهة عند الأقوام المختلفين في العصور المختلفة .

حتى جاء قوم أكثر ارتقاء فجاوزوا الحس وجالوا بأرواحهم المدركة وراء المحسوس ولكن ظل تأثيرهم بالمحسوس مصاحباً لتصوراتهم الفكرية فثقلوا الله موجوداً قاعداً على عرش وتحت رجله وعن يمينه وعن شماله ملائكة سموهم بأسماء زعموها ورسموا لهم صوراً تخيلتها أوهاهمهم .

وقال فريق من هؤلاء ، أرقى منهم تأملاً ، أنه غير متجسد ، فالحقيقة الإلهية اتخذت عند أهل الأديان صوراً مختلفة كما اتخذت عند منكري الألوهة ، معنى خاصاً ينسب عنها القدرة والعلم والتدبير ويصورها بأنها قاموس غير عاقل يحكم نواميس أقل منه . . . وهم يقولون تبعاً لذلك أن هذه القوة (الناموسية) لا تتصل بالبشر ولا تختار منهم رسلاً . . . وما هؤلاء الرسل إلا زعماء مصلحون أسندوا رسالاتهم إلى القوة المرهوبة لتكون أبلغ في إقناع الناس خوفاً من سخط الأرباب أو الآلهة . .

واتخذت تلك الحقيقة عند الفلاسفة ، ومنهم فلاسفة اليونان ، صور معان أرقى وأقرب إلى كينونتها واتخذت صفات هي باعتبارها كليات وأصول تطابق ما جاء به المرسلون في شرائعهم .

الحقيقة الإلهية عند اليهود :

جاء في التوراة : أن الرب بعد أن خلق العالم استلقى على ظهره ليستريح ووضع قدماً فوق الأخرى وقال : أنا الملك !

وجاء فيها : أن الله يعاقب الأبناء بذنوب الآباء إلى ثلاثة أجيال وكلما تحدثت التوراة عن الله ، وصفته (بالرب) . . وأنا أسلم بأن الرب اسم من أسمائه والربوبية تحمل معنى القهر والجبروت ، فالحقيقة الإلهية من هذا الوجه متجبرة قهارة ، والقهر والجبروت ألزم الصفات لها عند اليهود .

والشريعة اليهودية تعاقب المذنبين أقنص عقوبة ، فجزاء العين النازرة إلى المحارم أن تقلع ، وجزاء القدم الساعية في معصية أن تقطع ، وهكذا وليس في الشريعة عندهم رخص ولا تيسير ، لأن إلههم جبار لا يرحم !!

فما عسى يكون هذا الإله الذى وضع رجلاً على رجل واستلقى على ظهوره ليستريح ثم أَرْضَى غروره بقوله : أنا الملك ؟؟

الحقيقة الإلهية عند المسيحيين :

والمعتقد المسيحي يرى الله ثلاثة . ويراه متجسداً . وعبادته عندهم على شكل لا يتناسب وعظمته ، ولا الإجلال الواجب لألوهيته (كما بيناه فى فصل طرق الاستدلال) نضرب مثلاً لها بما جاء فى إنجيل متى (٩ : ١٣) وهو ما يسمى بالصلاة الربانية :

« أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك لتكون مشيئتك . . كما فى السماء كذلك على الأرض . خبزنا كفافنا أعطنا اليوم ، واغفر لنا ذنوبنا كما تغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا . ولا تدخلنا فى تجربة ولكن نجنا من الشر » فهذه الصلاة لئس فيها تمجيد لله ولا ثناء عليه ولا مخاطبة له بما يليق بجلال ألوهته أو بفيض رحمته وعظمة تفرده .

وهى تكشف عن معتقدهم فى الحقيقة الإلهية . فالله عندهم لا يأتى ملكوته ولا تكون مشيئته إلا إذا أصدروا إذنهم فقالوا « ليأت ملكوتك ولتكن مشيئتك » .

الحقيقة الإلهية فى الإسلام :

أما نحن المسلمين فنعتقد أن الله واحد وأن كلامه من غير حروف ولا أصوات ولا نغم . ومن غير لهأة ولا لسان . وسمعه من غير أذن وبصره من غير حدقة . وإرادته من غير قلب . وعلمه من غير نظر فى البرهان وأنه لا قبل له ولا بعد .

وأنه يغفر الذنوب جميعاً . وهو يشعرنا فى كتابه المنزل إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بأن ألزم صفاته له هى الرحمة فيبدأ لنا كل سورة من سور القرآن بقوله « بسم الله الرحمن الرحيم » (١) وقد قال الإمام محمد

(١) النمل : ٣٠ ، وافتتاح سائر سور القرآن .

عبده في تفسيرها : إن الرحمن معناه القائمة به صفة الرحمة دواماً بلا انقطاع .
والرحيم الموصوف بالرحمة . فالله يقول لنا في قرآننا إني رحيم لا تنفك
عني هذه الصفة كما ينفك الكرم عن الكريم فيدخل أحياناً والحلم عن
الحليم فيغضب أحياناً ، لأن صيغة فعلاّن في لغة كتابنا العربي ، دلالتها
استمرار قيام الصفة بالموصوف وعدم انقطاعها عنه .

إنه يلزمنا أن نعرف كيف يجب أن تكون الحقيقة الإلهية في نظر
الفطرة العاقلة المهدبة . ثم نقارن بين وصفها في الديانات ، لنرى أي
الديانات أظهرها كما ينبغي أن تعرف ؟

وقد ذكرنا في فصول الكتاب وفي هذا الفصل ، أن الله الذي تلك
آثاره يجب أن يكون واحداً لا ينقسم ، بتوالد ولا بغيره . قوياً رحيماً
غفوراً بيده مفاتيح كل شيء ، عالماً . متكلماً ليوحى إلى أنبيائه ، سميعاً
بصيراً يعلم ما في وجوده ، داعياً إلى الحق وهادياً إلى صراط مستقيم .
لا تدركه الأبصار . ولا تدركه العقول .

وقد وصف الله بهذا كله في كتاب الإسلام (القرآن) ووصف بأنه
تعالى له ماهية لا يحددها التعبير عنها بالألفاظ ، إلا أن يكون بسلب
صفات غيرها من الأكوان عنها . وتلك طبيعة الألوهة وما لأحد أن
يعترض على شيء في طبيعته . فليس لك أن تقول كان يجب أن لا تكون
النار محرقة أو أن لا تكون ذات لهب . لأن ماهية النار حرارة ولهب .
ولولاها لم تكن ناراً .

والقرآن يحثكم إلى الفطرة البشرية في تحقيق الألوهة ، وتحديد صفاتها
من الوحدانية والقدرة والعلم والسيطرة على الكون كله .

انظر إلى قول القرآن في سورة النمل : « الله خير أما يشركون .
أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبأنا به حدائق
ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ، بل هم قوم
يعدلون .

أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي
وجعل بين البحرين حاجزاً ، إله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون» (١)
إلخ الآيات ..

ثم يؤكد لهم ما استخرجه من وجدانهم بتقريراته ، فيدعمه بمنطق العقل
إذ يقول :

« وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ، صنع الله
الذي أتقن كل شيء » (٢) :

فهم لم يكونوا يعلمون حركة الأرض والجبال . فعلمها لهم مستدلاً
ضمنياً على أن علمه فوق علمهم إلخ

ثم انظر عبادة المسلمين لربهم ، تجدها أليق العبادات بعظمته ورحمته
ونعمته على عباده . إن الصلاة المفروضة علينا خمس مرات في اليوم
لا تصح إلا بقراءة الفاتحة وهي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن
الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . إهدنا الصراط
المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا
الضالين » آمين .. (٣)

فهذه الصلاة القرآنية فيها ثناء على الله وحمد له ووصف بالربوبية
والرحمة . وجهر بأنه لا يجوز الاستعانة بسواه لأن تقديم الضمير على
الفعل فيه الحصر والتعيين .



(٢) النمل : ٨٨

(١) النمل : ٥٩ - ٦١

(٣) سورة الفاتحة

ثم طلب الهداية منه . وهو بصيغته هنا يعطى للبشرى كل عظمة وعزة باعتبار أنه هو نفسه الأصل الأول فيما يفعل ثم يستعين ربه على توفيقه فيما يفعل .

ثم لا يطلب المسلدون من ربهم كل يوم خبزهم الكفاف . ولكن يطلبون شئون الروح والهداية والارتقاء الشعورى .

هذه هى الحقيقة الإلهية فى الأديان والفلسفات

فالحقيقة الإلهية فى الإسلام تقبلها مشاعرى وفطرقى وترفض كل صورة سواها .

وكذلك متحررون من أثر التعصبات الاعتقادية ، ناظر بالفكر المستقل والتأمل ، يرى الحقيقة الإلهية فى الإسلام هى الحق ولا حقيقة أبداً عداها.

٥٠

الدين لا يخضع للعلم

ودين الإسلام يرعى العلم ويعظم العلماء

ليس بين الدين والعلم عداًء ، وإنما سجل تاريخ العلم بين الفكر الضيق المحدود ، وبين الفكر الناظر في الآفاق الرحية ، نظراً يؤدي إلى معرفة الله والاستدلال على وجوده .



وليس مطلوباً من الكتب المقدسة أن تتوفر لها الجانب العلمي ، فإن مهمتها الأولى أن تهدي إلى الخير والبر والفضيلة ، وتعطي النفس البشرية غذاءها الضروري لها ، ضرورة الغذاء المادي للأبدان .

وقد برهنا على أن ماتعطيه لنا الكتب المقدسة لا يستطيع غيرها أن يعطيه .

فللعلم آفاق ، وللديانات آفاق . وليس بينهما تعارض . بل إن العلم ينتهي دائماً إلى إثبات مقررات الأديان .

ولم تكن الديانتان المسيحية واليهودية . ديانتى بحث : ولا كان العقل البشرى يجد في إحداهما ما يرضى مطالبه .

ويتميز الإسلام عن سابقتيه بإشباعه رغبات الروح والجسد والعقل : وجاء التعارض بين اللاهوت المسيحي وبين العلم ، التعارض الذى نتج عنه سيطرة الكنيسة على الفكر الأوروبي ، وإنشاء محاكم التفتيش . وحرق العلماء المكتشفين أحياء ، وتعذيب المفكرين في الأقنية المظلمة وبالحديد المحمى بالنار . جاء التعارض لأن السيطرة كانت لعقول رؤساء الكنيسة ، التى ضربنا

أمثلة لها في فصل آخر تدل على مدى بعد الآباء السابقين عن الفهم ، حتى
عن فهم نصوص الكتاب المقدس !

ولكى نثبت أن الدين لا يخضع للعلم نسأل القائلين بعدم التسليم لإبجئات
العلم التجريبي :

هل يستطيع العلم التجريبي أن يمتحن لنا قواعد العدل والفن والجمال
والقبح ؟ !

إنه طبعاً لا يستطيع لأنها ليست من مجال عمله . وهي مع ذلك من أصل
الفطرة البشرية . يؤمن بها الجهال كما يؤمن بها العلماء .

ثم نسأل ، هل يمكن أن تخضع لمقاييس المعمل وموازينه ، الأخلاق
والصفات النفسية ؟

ذلك بالطبع لا يمكن .

فإذن ليس العلم التجريبي مسيطراً على الوجوديات . بل منها ما هو خارج
عن نطاقه . وهو كل شئون الفطرة . وفي طبيعتها الإيمان والاعتقاد .

وكلما وجدنا تعارضاً بين الإسلام والعلم فعلياً أن نرده إلى خطأ العلم ،
لا إلى فساد الدين . فإن القرآن اشتمل على حقائق العلوم كلها . ودها إلى
العلم ووجه المسلمين إليه . واستشهد الله في القرآن على وجوده ، بالعلماء
واختص في الاستشهاد علماء الطبيعة ، فمن فروع علم الطبيعة : علم الجيولوجيا
أو تاريخ تكون طبقات الأرض . علم (البيولوجي) وعلم تكون الإنسان
(الأنثروبولوجي) وعلم النبات وعلم تكون المعادن (المينرولوجي) .

وعلماء هذه الفروع هم الذين وصفهم القرآن بخشيتهم الله في قوله :

١ - «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك، (إنما يخشى الله من عباده العلماء)» (١).

« وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)» (٢) .

٢ - « وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون)» (٣) .

٣ - « قل كونوا حجارة أو حديداً . أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذي فطركم أول مرة » (٤) .

٤ - « وفي خلقكم وما يبث من دابة ، آيات لقوم يوقنون » (٥) .

٥ - « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » (٦) .

٦ - « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (٧) .

ويطول بنا ذكر الآيات التي اشتملت تصريحاً على التوجيه إلى حقائق العلوم واستخدمت الاستدلال بالمنطق العلمي على وحدانية الله وصدق نبوة النبي محمد .

(٣) الأنعام : ٩٨

(٢) الرعد : ٤

(١) فاطر : ٢٨، ٢٧

(٦) فصلت : ٣٧

(٥) الجاثية : ٤

(٤) الإسراء : ٥١، ٥٠

(٧) فصلت : ٥٣

وقد خصصنا لهذا البحث فصلاً آخر . ولكننا نريد أن نقول : إن الإسلام لا يعادى العلم بل يرعاه . ولا يعارضه ، بل يوجهه إلى كماله . وأن الإسلام هو أبو العلم كله ، الفلسفى منه والعملى كما سنثبت عند الكلام عليه فى مكانه .

فعلىنا أن نخضع لكل ما يقرره الإسلام من حقائق ، فى شئون الاعتقاد بعد ما ثبت لنا أن العلم المادى أيد على قدر طاقته وبكل قوته عقائد الإسلام فكل ما كشفه العلم الحديث مطابق لما سبق القرآن بتقريره وهذا منطقياً قياس تصح به جميع العقائد الإسلامية الأخرى ، التى لم يوفق العلم بعد إلى تأييدها .

كل شرائع الإسلام لها أصل علمى ، كل أمر دينى فيه يستند إلى علم ، علم الاجتماع . أو علم القوانين . أو علم الطبيعة . أو علم الكيمياء . أو علم الفلك حتى أوقات الصلوات الخمس لها حكمة علمية فلكية صحيحة نفسية . النهى عن لحم الخنزير ، والنهى عن ملامسة الكلاب وغير ذلك .

فإخضاع الدين للعلم ، وانتظار رأى العلم فيما سبقت الديانة الصحيحة الصادقة بتقريره ، إنما يجعل الحضارة تمضى بطيئة تافهة . إننا نرحب بالعلم وتجاربه النهائية لأنها تؤيد عقائد الإسلام دائماً فإذا تعارضت معه فهى تجارب خاطئة يقيناً .

هداية العقل البشرى

لا تنفى عن هداية النبوات

قال فريق من الناس إن عقلنا يهديننا إلى ما فيه سعادتنا . فهو يوعز إلينا أن نعامل الناس بالحسنى وأن لانتعدى على الغير . الخ مواد القانون الأخلاقى . وقالوا إن عقول الفلاسفة اهتمت إلى وجود الله بدون توجيه الأنبياء لها فلا حاجة بنا إلى التدين . أو النبوات !

وهذا وهم خالص .

١ - فإن الطبيعة البشرية قد يطرأ عليها من الأطوار والمؤثرات ما تستفح به الحسن أو تستحسن القبيح .

٢ - ثم إن العقل البشرى لا يستطيع بدون توجيه النبى أن يدرك الغيبات التى لا تتحقق السعادة فى الآخرة إلا بها .

٣ - ثم إن من العلوم العقلية ما يجر إلى الخطأ .

٤ - ثم إن أثر فضائل الديانات فى الشعوب مشهور . وقبل الديانات لم يكونوا يعيشون على كمال الفضيلة .

٥ - وهداية العقل البشرى مع ذاك هداية فردية ، فلا يتبع الفلاسفة إلا فئة من تلاميذهم والماضون على طريقتهم فى الفكر ، ولا يكون العامة من أنصارهم ... أما النبوة فهدايتها عامة للنوع البشرى .

٦ - ثم إن الملهمين وهم مرتبة فوق الفلاسفة وأدنى من الأنبياء يعترهم الخطأ . والملهم فى شئ لا يكون ملهماً فى سواه بخلاف النبى فهو موحى إليه بحقائق كل الأشياء وعلم كل الموجودات ومعصوم عن الخطأ فى النهم وفى التبليغ .

٧ - ولا شك أن اختلاف التركيب التشريحي للناس يؤثر في نوع و كمية الانفعالات التي تصدر عنهم ، وكذلك غيره من المؤثرات فإننا نجد رجلاً يهيجه أقل انفعال ورجلاً يهيج من أقل شيء . فالطبيعة البشرية ليست متحدة الآثار والانفعالات . والعقل البشري - تبعاً لها - ليس مؤتلف الاتجاهات ولا متطابق الأحكام . فما يستحسنه عقل فرد قد يستقبحه عقل الآخر . ومن العسير أن نعرف أى العقلين على صواب إذا تركنا لأنفسنا ، فإن كل عقل من هذين سيجد عقولاً توافقه فتستحسن ما استحسنه وتستقبح ما استقبحه . وتبقى الحقيقة التي هي واحدة لاتعدد ولا تنجزأ ، غير معروف مكانها من هذين الموضعين !

٨ - وليس للعقل البشري طاقة بتصور الله وصفاته ، والعالم الآخر ومشتملاته ، والجنة والنار والصراط والحساب ومعانيها ودلالاتها وتلك كلها ضرورات ليعلم الإنسان شيئاً عن المقرر الذي سيرحل إليه بعد ما أثبتنا خلود الأرواح ، وأن نعرف شيئاً عن الكون الآخر يقوله لنا رجل مفاض عليه من العلم الإلهي . منكشف له الحجاب المانع لنا من المعرفة .

هناك إذن علم رباني لانستطيع أن نعرفه ما لم يعلم لنا ؟

الجواب : نعم كما قرره الفلاسفة .

فإن طائفة من الناس وهم الملهمون . تمتاز عن غيرها ، فالملهمون العبقريون يستحدثون في العلوم والفنون ومنها الشعر والموسيقى معاني وألحاناً لم يسبقهم إليها أحد ولا وضعوها على قياس أمر سابق .

فكيف عرفوها ؟!

وليس فرد من الناس إلا له قوة للتخلص إلى الغيب فيعلم من شأنه ما لم يكن يعلم ، برؤيا يراها أو برأى يبصره أو هتيف يسمعه أو حدس يتفطن له . وكل ذلك ليس من عمل العقل .

وكل حقائق العلوم مركوزة في النفس البشرية ركازاً إلهياً ؛ جاءت بذلك الأديان وأيدها التجريب .

ولإ فكيف نعلل بدء ظهور العلوم والفلسفات والصنائع من قوم لم يتلقوها عن غيرهم ؟

لاشك أنهم استخلصوها من نفوسهم بصفاء الفكر وصدق الاستعداد .
ثم إن كل متعلم علماً إنما يتعلم كليات فنه ، لأن العمر لا يتسع لجزئياته ثم يستيقن معرفة الجزئيات بالتجربة ، فيستخلصها وقيمها على القياس .

وهناك سؤال يوضح لنا هذه الحقيقة :

بماذا تدرك ذاتك ؟ .. وما هو المدرك من ذاتك ؟

هل يكون المدرك منك أحد مشاعرك . أم عقلك وقوة غير مشاعرك ؟
فإن كان المدرك لذاتك هو عقلك . وقوة غير قوة مشاعرك فهل تدرك حينئذ بوسيط أم بغير وسيط .

ومن ذلك نعلم أنك تدرك ذاتك بذاتك بغير افتقار إلى قوة أخرى وبغير قيام وسيط بين الإدراك والمدرك .. ثم تدرك الأشياء الخارجية بحواسك .
ولكنك إذا تحررت من السمع الظاهري وأصغيت إلى داخل نفسك علمت أنك تدرك ذاتك لا بالبصر ولا بالسمع ولا بعضو من أعضاء الجسد ولا بالقلب ولا بالدماغ ولا بأية آلة .

ومن أقوال « نيكارت » صاحب مذهب الشك في كتابه « التأملات » :
سأغمض الآن عيني وأسد أذني . وأحو من خيالي جميع الصور التي ارتسمت فيه : ولكنني لا أستطيع أن أتجرد عن الفكر وأنقطع عن إدراك أني ، (أي إدراك حقيقي) .

فالنفس حين تتجرد عن الملحقات المادية تدرك ذاتها بلا وسيط . وهذا يدل على أنها عالمة بذاتها علماً مودعاً فيها من الملاء الأعلى وأنه مركوزة فيها

حقائق الكون وإنما تحجبها عن الإدراك الواعي ، اللواحق المادية وطبيعة تركيب الجسد المانعة من إشراق النفس .

وليس كل عقل يستطيع أن يستخرج من ركاز النفس مافيه . وإنما طريقة استخراجها أى استخراج بعضه ، هى التفكير والتعلم الكسبي أولاً ثم التعلم الذاتى ، على أنه يشترط أن يكون هذا العقل معصوماً عن الخطأ فى تفكيره وفى قبوله للمعلومات .

فإذن لابد لنا من هداية العقل الذى يفاض عليه من الله فإن الأنبياء تنجرد نفوسهم بالإعداد الإلهى لطبائعهم ، عن كدر الدنيا وشواغلها متجهة إلى الروح الكلى الذى يفيض عليها من معرفته ويكشف لها ما هو مودع فيها ، ويعصم إدراكها وحواسها عن الخطأ فى تلقى هذه المعارف وعن أن تشبه عليها الحقائق ، والدليل على أن الأنبياء يتلقون من الله ، قدمناه فى فصل (نبوة النبي محمد) .

والعلوم العقلية ، منها التى يقع فيها خطأ وصواب . وأدق مراتبه العلم الرياضى والمنطقى ، وقد ذكر ستانلى جيفونس : « أن فى كل مائة من الناس ، تسعة وتسعين يعرفون علم المنطق ويمارسون بالغريزة حل القضايا والمناظرات . ويفرضون الفروض العديدة ويعيدون الأشياء إلى أنواعها وهم لا يعرفون كلمة المنطق ، فكل الناس منطقيون إلى حد ، ولكن أكثر منطقتهم خطأ » .

والفرق بين المنطق الغريزى والمنطق الاكتسابى . أن الأول قد يجرنا إلى سلسلة من الأغلاط لا نهاية لها . فالعلوم العقلية—بل أدقها وأثبتها—عرضة للخطأ ما لم تنهأ لها قوانين تضبطها . وهذه القوانين يستخرجها العقل البشرى بعد تجارب عديدة ، فى أحقاب طويلة . ومع ذلك تظل تلك القوانين غير معصومة عن الخطأ وقابلة للترقى . لأن العقل البشرى غير معصوم عن الخطأ .

فالبشرية لخبرها تحتاج عقلاً معصوماً عن الخطأ ، يهديها إلى نفعها ، ويوفر عليها مشقة التجارب وعناء المحاولات . ثم إن دراستنا لعصور بعثات

الأنبياء ، تدل على أنهم جاءوا ليحلوا مشاكل ، عجزت عقول البشر عن الاهتمام إلى حلول لها .

فلم توجد لدى عقول الإسرائيليين قبل رسالة موسى عليه السلام طريقة للخلاص من اضطهاد الفراعنة ، ولا لتوفير رخاء الشعب إلى آخر الحالات المستوجبة للعلاج .

ولا وجد قبل بعثة المسيح عليه السلام ، طريق لإدخال الأمل على النفوس اليائسة ، في عصر كانت تتألف فيه الجماعات السرية لتنظيم الانتحار ولقتل المترفين .. لأن الشعوب كانت ثن من الحرمان والفقر وكان الملوك وبطاناتهم يمسغون الذهب ! وكانت المادية تطفئ على الفضيلة . فلذلك بعث عيسى مخلوقاً روحياً ، فجاء عيسى بحل عجيب ، ليس من صنع العقل البشري ، جاء يقول للناس ، لا يلزمكم مزود للطريق ولا اقتناء ثوبين ولا عصا . فالمستغنى عن هذه الضرورات ، لن يحتاج شيئاً بطبيعة الحال ، فلن يشعر بألم الحرمان . وجاء يزهد الناس في الغنى بل ينفرهم منه ، فيقول لهم : « لا يدخل غنى إلى ملكوت السموات » وهذا هو الحل لما استعصى على عقولهم حله .

ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم جاءت لتعالج كل جوانب الحياة العمومية للناس جميعاً .

والتعمق في دراسة تاريخ الأمم القديمة ، يدل على أنها حين كانت محرومة من الديانات أو حين اندرست من بينها تعاليم الديانة ، عاشت على حالة اجتماعية منحطة لا ضوابط لها ولم يستطيع عقل زعمائها أن يخرجها إلى ما كانت عليه في ظل التعاليم الدينية وهذا منطق واضح ، فضلاً عن أنه حقيقة مفروغ منها . بل أن العقل الفلسفي لا يستطيع أن يتغذى إلا بتعاليم الديانة ، وإن توهم غير ذلك ..

والفلسفات المختلفة في الأمم المختلفة والعصور المختلفة ، إنما هي أولاً مجرد نظريات مثالية ، لا تعقلها إلا فئة من أتباع الفلاسفة فلا تنتشر بين

العامّة . ولا توضع للتطبيق العملي ؟ فأين هي الأمة التي أقامت (جمهورية أفلاطون) وأين التطبيق لمبادئ أرسطو الأخلاقية ولنظريات جان جاك روسو الاجتماعية ؟

بل أين صلاحية الفلسفات وتعاليمها ، من صلاحية الأديان وتعاليمها ؟ !

إن المقارنة العارضة بين أحلام الفلاسفة وتعاليم الأديان كفيّلة بتوضيح الفارق البعيد بين الاثنين ، وخفايا الأحكام الدينية وأسرار كيفياتها ، مما لا يتسنى للعقل الفلسفي إدراكه ، شاهد صريح بأن الديانات فوق مستوى الإدراك العقلي وأنها تسيطر على العقول سيطرة تعاليم وإرشاد وتنبيه . وأن التعاون بين الناس لا يتحقق بالتعاليم العقلية ، وإنما لا بد فيه من التعاليم الاعتقادية .

ثم إن الفلاسفة ليست لهم سلطة نشر تعاليمهم . وللأنبياء سلطة روحية تدفع إلى التفاف الشعوب حولهم ؛ وعليهم بغير استثناء ، واجب المجاهدة لبسط سلطانهم ، وحتى عيسى عليه السلام أمر بالدعوة والجهاد في سبيل نشرها .

ومن غرائز الفطرة البشرية ، الأنانية ، وهي غريزة تدفع الجماهير إلى التمرد على النظام الموضوع . فكلم ثورات سياسية وثورات اقتصادية أريد بها قلب الأنظمة الموضوعّة ، وليس داعي قلبها الأول عدم صلاحيتها . ولكنه باعث نفسي خفي يسيطر على الجماعات ، يهيج إيماء أفراد بارزين هم زعمائهم ، وتعليل هذا الباعث النفسي أنه رفض الانقياد لنظام وضعه رجل أو رجال مثلهم . والحجة للجماهير النائرة هي دائماً ، عدم صلاحية النظام المرفوض ، وقد يكون ذلك صحيحاً في كثير من الحالات . ولكنه ليس الباعث الأول كما قررنا .

بينما تجدد أشد المجرمين إيغالا في الإجرام . تصفيه نوبات استغفار ، وتردعه العقيدة الدينية كثيراً عن البغي ، وكثرة هؤلاء المجرمين ، من أهل الاعتقادات الدينية ، يتوبون عن حياة الجريمة قبل موتهم بزمان . وذلك بوازع المعتقد وسلطان الدين .

ولا تقوم في الدنيا ثورة على الأديان بينما تقوم الثورات ضد كل نظام لأن الباعث النفسى الخفى الحائز إلى الثورة مفقود . فقد أثبتنا في فصل (الإسلام يلائم الغرائز البشرية) أن التدين غريزة في الفطرة فلا ثور الفطرة على نفسها إذن .

ولا يرد على هذه القاعدة ، ثورة روسيا على الدين . فلإنها ثورة حكام أفراد لا ثورة جمهور وهى ليست ثورة على الدين نفسه ولاهى ثورة مباشرة ضده . وإنما رأى الزعماء الشيوعيون أن الأديان تبعث الناس على الرضا بما هم فيه . فثاروا على هذا المظهر الدينى . وهذا المظهر ليس من الدين أو ليس من الإسلام على الأقل . فقد أمر المسلمون بالعمل مع الإيمان ، وبالاجتهاد فى الارتقاء بأنفسهم ، والحصول على حظهم من متاع الحياة ، ثم هى ثورة اقتصادية أصلاً استلزمت تمرداً سياسياً ، وأصاب مظاهر العبادات لا جوهر الاعتقادات . فليس فى الدنيا إذن ثورة على الأديان .

ولهذا يحتاج الناس إلى النظام المنزل من السماء لكل ما تقدم .

وبفرض أن تلك الاعتبار المانعة من الاستغناء بهدى العقل البشرى غير متحققة . فإن من الحق أن العقل البشرى فى ذاته ليس معصوماً عن الخطأ . ولا يسرى هذا القول على عمول الفلاسفة وحدهم ولكن ينطبق على طائفة الملهمين وهم أرقى فى مراتب الإدراك من طبقات الفلاسفة وأدنى من الأنبياء .

وذلك ثابت لا يحتمل الإفاضة فيه .

فضلاً عن أن الملهم فى شىء من الأشياء لا يكون ملهماً فى سواء ، فالإلهام إفاضة على النفس وإشراق لحقائق خاصة تشغل النفس بها وتتجردها . فالموسيقى المبتدع بإلهامه . لا يستطيع أن يبتدع فى المنطق بإلهامه ولا أن يبتكر فى أى فرع آخر سوى ما انشغلت به نفسه فأفيض عليها خافيه .

وقد يكون الملهم أصم . وقد يكون أبكم ، وقد يكون أعمى وتلك أسباب عدم عصمة العقل الملهم . أما النبى فلا يكون إلا كامل التكوين صحيح

العقل مفاضاً عليه في كل جانب من جوانب الحياتين . معصوماً من الخطأ في الفهم والتأويل والتبليغ ، مزوداً بقوة إحياء لا تكون لغير نبي ، يقذف بها مع تعاليم دينية في قلوب قومه فينقادون لها .

وبذلك نستطيع أن نجزم بأن العقل البشري لا يهdy إلى الله على ما ينبغي ولا يهdy إلى صالح البشر ولا يقبل الناس هدايته لو استكمل أركان الهداية فتثبت حاجة الناس إلى الأنبياء .

وكل جانب من الجوانب الستة لهذا الفصل يتسع القول فيه إلى مدى بعيد . ولكننا نضع رؤوس مواضيع توجه القارئ إلى الاستكمال الذاتي للعقل ، لجوانب الرأي خضوعاً لمذهبنا في الإيجاز والوضوح .

أنا مسلم لأن :

- ١ - شخصية النبي محمد أعظم شخصيات التاريخ كله .
- ٢ - نبوة النبي محمد قامت الأدلة على صدقها .
- ٣ - رسالة النبي محمد تحمل في أطوارها عوامل النجاح :
- ٤ - نظرات في القرآن .
- ٥ - القضاء والقدر .

•

شخصية النبي محمد

أعظم شخصيات التاريخ كله

تمهيد :

أحب أن أتحدث عن شخصية محمد صاحب التعاليم والأنظمة الإسلامية، لا باعتباره نبياً مرسلًا من السماء . ولكن محلاً خلقه وخلقته ، وقوله وفعله ليتبين القارىء معى أنها شخصية تفردت عن شخصيات التاريخ كله، بميزات لم يلحق بها أحد من شخصيات التاريخ على اختلاف جوانب العظمة فيها . وهو تحليل لهذه الشخصية العظمى يوجب على منكرى نبوته، أن يعترفوا بنبوته ! فإن تعاليمه وشرائعه ليست آثاراً إنسانية .

وإذا قلنا إن محمداً صلى الله عليه وسلم هو مجرد رجل زعيم مخلص وحاولنا دراسة شخصيته على ضوء ما وضعه من نظم وتعاليم ، وما قال وما فعل ، يثبت لدينا أن النبي محمداً ، أعظم شخصية فى التاريخ ، وأولى بكثرة الأتباع من كل زعيم سواه ، فإنها تبعية تفيد التابع الذى ينشد الكلمات الاجتماعية والارتقاء النفسى والذهنى .

نشأ محمد فرداً آمياً يتيمان أبويه، فقيراً وحيداً فى أمة سكيره ، تسجد للأصنام . ويلهو أشرافها بالقمار ، وتغشى مجتمعتها غمرة من الفساد والانحلال والعصبية والجاهلية .

وكانت الكتب السماوية السابقة تبشر بأن نبوة ستجىء . وكانت كل أمة تتمنى أن تجىء النبوة لرجل منها . وكان كل عظيم فى قومه يرجو أن يكون هو النبي الموعود . . . كان يرجوها من العرب أمية بن أبى الصلت ، وأبو سفيان بن حرب ، وعمر سيد ثقيف وغيرهم .

معاصروه وأهل جيله جميعاً ليس منهم إلا من اجترح موبقاً أو أكثر من موبقات مجتمعتهم ، أما هو فقرر التاريخ وأكد أنه باعد كل مجتمعات جيله ، واعتكف في المغارات (غار حراء) يفكر ويتأمل . والفكر والتأمل عنوان صفاء النفس وشفافية الروح .

ومع هذا التميز الروحي عن كافة معاصريه ومع أن كهان العرب : بحيرى النصراني ، وورقة بن نوفل تنبأ له بالنبوة ، فإنه لم يتطلع إليها ولا انتظرها . بل فزع من التكليف وشكا أمره إلى خديجة فامتحت هي الوحي النازل عليه — كما ذكرنا تفصيله في غير هذا الفصل — فهو إذن لم يتطلع إلى النبوة ولا سارع إلى فرصتها حين واثته بل تريث وتوقف .

قال خصومه إنه مصاب بمرض نفسى وعلم النفس الحديث يقول : « إن الأمراض النفسية تنشأ دائماً من عدم إمكان التوفيق بين مطالب الحياة ورغبات النفس » . وهو لم يكن صاحب مطالب في الحياة ولا رغبات نفسية كما يقرر ذلك تاريخه المعروف فقد ثبت أنه نشأ زاهداً المال ، زاهداً الترف ، زاهداً الجاه ، زاهداً ما عليه قومه من التناظر والمفاخرة .

وقالوا — جحوداً وحسداً — إنه مجنون ، وقد قال هو في حديثه الصحيح : « عجباً لقريش تزعم أنى مجنون وأنا أزكم في الشهر مرتين » .

والجنون ينشأ عادة عن الجفاف الدماغى أو يقرن به . وينشأ الزكام عن الرطوبة الدماغية ، فالجنون لا يزكم ، والرجل الذى يزكم في الشهر مرتين لا يكون مجنوناً . . . هذه ناحية طبية تنفى عنه أكلوبة الجنون .

ومن الناحية النفسية يقول العلامة « فرويد » إن المجنون يرى كل شيء فى الداخل ولا يرى ما هو خارج نفسه .

وحياة النبي محمد وتعاليمه وشرائعه وجهاده وتعليمه أصحابه وقومه . وعنايته بكل شيء شخصى واجتماعى وسياسى وحربى ، كل ذلك ، يدل قطعاً على أنه لم يكن يرى كل شيء فى الداخل بل كانت عنايته بكل شيء فى الخارج .

ولقد قال « ويلز » الكاتب الإنجليزي المعاصر إن محمداً كان مريض النفس ، ونسى أن يقول وبسبب مرض نفسه دان له العرب وسمت حضارتهم على حضارات الدنيا وأخضعوا في عهده وعهد خلفائه من بعده ممالك الأرض .

بينما قال الرجل الإنجليزي المنصف «توماس كارليل» في كتابه (الأبطال) عند الكلام عن النبي محمد « الحقيقة الكبرى هي أنه رجل صادق ونبي مرسل » .

ونسي « ويلز » أيضاً أن يقول إن من قواعد علم الاجتماع ، أن يصنع مجنون من مجتمع متخرب وأم واهنة مصابة بالكفر والبلاء والحيرة وجيل هو أشبه بالخطب اليباس الميت ، مجتمعاً فاضلاً وأمة موحدة متماسكة مؤمنة مجاهدة ، فلسفتها تعلو على الفلسفات ، وحضارتها تكسف الحضارات . ويصنع من أخطاب الرذائل والوثنية ، نوراً وطهراً وتقوى .

الواقع أن من الظلم للقارئ ، ومن القصور في حق شخصية النبي محمد أن يكتفى كاتب بمقال عن شخصيته ذات الجوانب المتعددة الغنية بسمات العظمة ودلائل السمو . لكنه توجيه يحمل على الاطلاع والتوسع في قراءة حديثه وسيرته .

وقد أثبت التاريخ وكتب السيرة المحمدية أن النبي محمداً بعد أن دانت له الجزيرة ، وأحل الله له المغانم والنساء ظل هو هو محمداً . لم تتغير أخلاقه المتواضع الحنون العطوف المواسي لعشيرته الرقيق الوجدان والمشاعر ، الوضاء الروح ، الجائع تعففاً ، المحدث الفكاهة ، الممازح لأصحابه وأهله . . . الشجاع . . . الشجاع الذي يكره سفك الدماء .

فإنه مع شجاعته التي تدل على مواقفه الحربية ومواقفه الاجتماعية ونصوصه التشريعية . لم يقتل في حروبه بيده سوى رجل واحد هو «أبي ابن خلف » لأن أياً أصر أن يقتل محمداً فطعنه النبي محمد طعنة فارس

خير . طعنه في ترقوته من خلال درعه ومغفره فقتله . وهى فروسية ،
أروع فروسية .

كان أول المتقيدين بتعاليم شريعته ونصوص رسالته ولم يكن يفرضها
على قومه ، ويتجمل منها هو . بل كان في شرعه من التعاليم ما التزم به وحده
كقيام الليل (التهجذ) فقد كان فريضة على النبي محمد ونافلة لسائر المسلمين .

وذكر خصومه الكاذبون أنه عليه الصلاة والسلام كان شهوياً . فإذا
عرفنا أنه تزوج خديجة وهو في الخامسة والعشرين ، وهى في الأربعين
أم أولاد . عجوز لا تصلح لشاب ، يائسة من النسل وظل معها إلى أن
توفيت في الخامسة والستين من عمرها . ثم تزوج سودة بنت زمعة ، تزوجها
أرملة للسكران بن عمرو بن عبد شمس وسنها ٥٥ سنة . ثم تزوج عائشة
وهى البكر الوحيدة في زوجاته وهى بنت صديقه وناصره أبى بكر ثم
أم سلمة تزوجها ذات صبيان بعدما مات زوجها أبو سلمة بن عبد الأسد
المخزومى وتزوج أيضاً زينب بنت خزيمة زوجة الشهيد عميدة بن الحارث
وهى في الستين من عمرها .

فكل منصف يدرك أن زوجاته عليه الصلاة والسلام لم تكن - وتلك
هى أعمار أكثرهن وظروفهن - لشهوة أو رغبة في النساء . ولكن كانت
ترضية لهن ومواساة عن فقد أزواجهن ، وإيواء وإعالة لمن لا عائل لها منهن
وبعض زيجاته صلى الله عليه وسلم كانت لتوثيق الروابط بين القبائل المتنافرة .
وتأليف القلوب بالمصاهرة . . وهى سياسة الداعى الرشيد .

عناصر الشخصية ومقوماتها ثلاثة أمور :

الخلق . والخلق . والذهنية .

وكل عظيم من عظماء التاريخ ، تمكن لنا دراسته مهما بعد زمنه عن
زماننا متى عرفنا صفة خلقته وأخلاقه وذهنيته . وهذه كلها تعرف من أقوال
العظيم وأفعاله . وما وصفه به معاصروه .

خلق النبي محمد

روت الكتب المعتمدة أحاديث كثيرة من طرق مختلفة : عن خمسة عشر صحابياً في وصف خلقتة عليه الصلاة والسلام مما رواه أنس بن مالك أنه كان ليس بالطويل البائن ولا بالقصير ، وكان إذا ماشى الطوال طالمهم وإن جالسهم كانت كتفه أعلى من جميعهم ، وأنه كان لا بالأبيض الأمهق ، أى الشديد البياض الخالى من الحمرة والنور . ولا بالآدم . أى الشديد السمرة وأنه كان أبيض نيراً مشرباً بحمرة ، ولا بالجعد القلط ولا بالسبط .

ومن حديث أنس ومطابقة الرواة الصحابيين لروايته ومنهم أبو هريرة وهند بن أبى هالة وهو ربيب النبي محمد وابن زوجته السيدة خديجة رضى الله عنها . وقد كان أبو هريرة أئزم الصحابة للنبي وأكثرهم مخالطة له . وكان هند ، وصافة مشهوراً ، نعلم أن النبي محمداً ، كان صحيح البدن ، مكتمل الفتوة ، لم تصبه أعراض الشيخوخة فقد بلغ الثالثة والستين وما فى رأسه من الشعر الأبيض غير عشرين شعرة ، فحيوية غدده عليه الصلاة والسلام بقيت على قوتها . ومن وصف هند بن أبى هالة وغيره لمشية النبي محمد نعلم أنه لم تصبه الشيخوخة فى أى مظهر من مظاهر حيويته ، فقد أجمعوا على أن النبي محمداً . كان إذا مشى يتكفأ أى يمشى إلى قدام كالسفينة فى جريها كأنما ينحط من صيب ، وأنه إذا زال (أى خطا) زال قلماً ، يخطو تكفوفاً ويمشى هوناً ، ذريع المشية حين يمشى . أى واسع الخطو . والتقلع هو رفع الرجل من الأرض بقوة وهمة ، . . ومن صفة مشيته ، نعلم أنه لم تكن فيه خيلاء . ولم يكن به ضعف . فصاحب الخيلاء . إذا مشى يتأيل كالغصن زهواً . أو يضرب الأرض بقدمه عتواً ويرفعها ببطء تعالياً ، أو يجرها على الأرض صلناً . وصاحب الضعف أو الخيلاء . كلاهما يجر رجله على الأرض جراً .

وليس هذا أو مثله من صفات مشية النبي محمد .

وكان رحيب الصدر عريض الكتفين ، وهما صممتان ينفرد بهما الرجل الحليم القادر على ضبط نفسه . وإذا كان الرجل عريض الكتفين وغضوباً فهو غير رحيب الصدر أبداً فما اجتمعت إلا وتوافر لصاحبها الحلم وضبط النفس .

وفي حديث أنس بن مالك : ما مسست خزاً ولا حريراً ، . ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت كفه ممتلئة لحماً . وكان رحب الراحة سائل الأطراف — أى طويل الأصابع والأذرع والسيقان — منهوس العقب ، عظيم الهامة .

وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه : لم يكن صلى الله عليه وسلم بالمطهم ، وكان سهل الخدين غير مرتفع الوجنتين . ولا بالمكلم .
وعن جابر بن سمرة : وكنت إذا نظرت إليه . قلت : أكحل العينين وليس بأكحل .

وكان أدعج العينين أهدب الأشفار . وفي خبر هند بن أبي هالة : إذا التفت إلى أحد ، التفت معاً — أى التفت بكله — فإن الالتفات بناحية من الوجه أو الجسم ، فيه معنى قلة الاهتمام . ولم يكن من خلقه عليه الصلاة والسلام عدم الاهتمام بمحدثه أياً كانت مكانته .

وجاء عن حفيد النبي ، الحسن بن علي رضى الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم كان فخماً مفخماً ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر أزج الحواجب سوابغ في غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب ، أفنى العرنين ، بادن ، متماسك ، معتدل الخلق ، سواء الصدر والبطن .

من هذه الصفات الشكلية للنبي محمد يتبين أنه كان مترفعاً رفيعاً ، جميل الطلعة مهيباً ؛ يتألف الناس شكله ووسامته ، فيه جاذبية شخصية ، برىء من التنافر الذى تنبو به عيون الناظرين . وفيه تناسق وتناسب تركيب تستملحه مشاعر الناس ، وتجذب إليه من يلاقيه ، فإذا سمعه اطمأنت نفسه بإيمان صوته وثبات نطقه وبساطة مظهره وصدق عبارته وأدائه .

وروى أنس : أنه كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته .

وروت أم المؤمنين عائشة : أنه كان لا يفارقه في حضر ولا سفر سواكه ومشطه ، وأنه كان ينظر في المرأة إذا سرح لحيته .

ورأى رجلاً أشعث الشعر فقال « ما كان يجدها ما ينظم به رأسه » ؟

ورأى رجلاً عليه ثياب وسخة فقال « ما كان يجدها ما يغسل به ثيابه » ؟

فهذا الحرص منه عليه الصلاة والسلام على أن يكون القدوة لأتباعه في تعليم النظافة ، والمحافظة على حسن المظهر ولياقة الهندام . مع ما تبين من تناسق تكوينه الجسماني يعطى أروع صورة يجب أن تكون للزعيم أو رئيس القوم ، فإن أحداً لا يتصور زعيماً أعور أو أعرج أو بارز البطن أو منحني الظهر أو صغير الرأس قصير القامة ضامراً أو ضيق الصدر عريض الأكتاف أو منهدل اللحم خشن المظهر مهلهلاً ، أو متأنقاً مسرفاً إلى آخر الصفات التي تطعن على شخصية صاحبها الشككية .

ولا يرد على ذلك بزعم مثل غاندى ، فتلك زعامة روحية ، ليس فيها جانب اجتماعي وهي أيضاً تقوم على المواقف السلبية . لا على إيجابية محمد الكاملة وقيادته الشاملة لكل مرافق الحياة للمؤمنين والدولة الإسلامية التي أسسها والجيش الإسلامي المظفر الذي أنشأه .

من هذا نستعرض الصفات الخلقية للنبي محمد فنعلم من كتب السيرة ومن كتب الحديث أنه اجتمع له من الأخلاق الإنسانية العالية ما لم يجتمع لسواه من عظماء التاريخ ، فإن عظمة رجال التاريخ تقوم دائماً على جانب بعينه ، فالبطش والتهور الذي يسمى شجاعة ، والقسوة والإسراف في القتل كانت أساس عظمة هولاكو وتيمورلنك ونابليون ، والحب والطيبة والشفقة كانت أساس عظمة بوذا النبي . أما أن نجد عظمة تقوم على البطولة والشجاعة والحب والشفقة والعفو والحزم . والتكليف والتيسير ، مثل ما ستقرأون . فلا . . نعم لا .

لقد كان من خلقه عليه الصلاة والسلام أن لا يشق على أصحابه حتى أنه حين يتحدث كان حديثه لو عده العاد لأحصاه . أى أنه لم يكن يدغم الحروف ولا الكلمات ولا يسرع في قوله وكان يكرر ما يقول ثلاثاً حتى يستطيعوا أن يفهموا ويحفظوا ما قال ، وكان ينهاهم أن يشقوا على أنفسهم بالعبادات أو يحرموا على أنفسهم ما أحل الله لهم مبالغة منهم في التدين . وكان يأمر قواد جيوشه بالرفق في السير بحيث يقدر عليه أضعفهم ، ويحفظ به قواه أقواهم وكان رحماً بأصحابه ، باراً بالإنسانية كلها . صبوراً على الأذى .

روى أنه لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم وقف عمر بن الخطاب يبكي ويقول : « بأبي أنت وأمي يا رسول الله » . لقد دعا نوح على قومه فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » (١) ولو دعوت مثلها علينا لهلكنا من عند آخرنا فلقد وطىء ظهره وأدمى وجهه وكسرت رباعيته فأبيت أن تقول إلا خيراً : فقلت : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » . فهذا غاية الحلم بل فوق غاياته ، حلم وسعة صدر وعظمة نفس ، على قدر حظ العظيم أو الرعيم منها ، تكون زعامته وعظمته وأما رفقته بالإنسانية وبره بها فقد أصابت قريشاً سنة قحط وكانوا في حرب معه صلى الله عليه وسلم فجمع الأقوات وأرسلها إلى زعيمهم أبي سفيان . فهل سمع أحد بمثل هذا من محارب لمحاربيه ! ؟

ويتجلى رفقته بالإنسانية في شريعته فيما يتعلق بالرق فإنه أوصى بالرقيق جميعاً لا فرق بين مصدق به ومكذب ، وجعل عتق الرقيق عاماً ، غير قاصر على المسلمين من الأرقاء ، بل حق شائع لكل مرقوق .

وهذا الذي جمع الأقوات فأرسلها إلى قريش وهو على إبادتهم أو تركهم تقتلهم المجاعة قدير ، هو بعينه الذي منع القرشيون عنه القوت — قبل ذلك

وهو مع أصحابه وأهله في شعاب مكة، وتعاهدوا العهد المعروف في التاريخ على أن يتركوه وأهله وأصحابه يموتون جوعاً ، وعلقوا معاهدتهم بالكعبة حتى دفعت النخوة فتیاناً من قريش فخرقوا الصحيفة وألغوا المعاهدة . ومع ذلك لم يجزهم على سيئاتهم بسوء بل أحسن إليهم .

وهو الذي جاءه قاتل عمه حمزة ، ليسلم ، حمزة الذي كان أعز شباب قريش وأسماهم مكانة ، ولا ضرب له فيهم والذي قيل له وهو عائد من صيده إن أبا جهل لطم محمداً ففضى إلى الكعبة تواءً لفوره فلطم أبا جهل واستعد لحرب تقوم بينه وأتباعه من الشباب الذين يتزعمهم وبين قوم أخيه أبي جهل ، وحى الرسول ونصره وأعز كلمته ، مع أنه لم يكن قد آمن به بعد . . . !

جاءه قاتل حمزة فعرف الغضب في وجهه ولكنه لم يزد على أن حول وجهه عنه وقال: أغرب عني ، لا ترني وجهك . وكان على أن يقتله قدير وصاحب حق شرعى وعرفى .

وهو الذي كان يصلى فجاءه عقبة بن أبي معيط ولف ثوبه حول عنقه فخنقه خنقاً بالغا ، حتى قام أبو بكر رضى الله عنه دونه وهو يبكي ويقول « أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله » (١) .

فصبر على عقبة بن أبي معيط وعلى سواه . ولم تثنه وقاحتهم ولا حملته على الاعتزاز بالعصبية الجاهلية ، ولو شاء لنصره قوم من أهله حرباً . وإن لم يكونوا معه على رأى فذلك خلق العرب . ولكن محمداً لا يستعين المشركين على حماية شخصه .

وتروى من وجوه عدة أنه عاد مع أصحابه من غزوة فأدركتهم القائلة في واد كثير الغضاة فزولوا ليستريحوا ونام رسول الله تحت شجرة علق بها سيفه . ونام أصحابه متفرقين فإذا النبي يدعو أصحابه وإذا عنده أعرابي مشرك فقال النبي : إن هذا الرجل اختلط على سيفي وأنا نائم ، فقال : من يمنعك مني ؟ فقال له النبي : « الله » - ثلاثاً ، فسقط السيف من يده فأخذه النبي

وقال: من يمنعك مني ، فقال الأعرابي : كن خير آتخذ، فعرض عليه الإيمان بنبوته فأبى .. فخلى النبي مع ذلك سبيله. ونو قتلها لما كان إلا جازياً له بفعلته.

ولا يجهل أحد قرأ تاريخ بعثة محمد وتاريخ العرب ما فعل به أهل مكة وما صبوا عليه وعلى أصحابه من أنواع الإيذاء . وأنه كان يتحرق ألماً لما يصيب أصحابه صابراً على ما يصيبه هو . فإذا فعل بعد أن قدر على القصاص منهم – وصار فيهم أميرهم وسلطانهم والقائد الظافر بهم ؟

فتح مكة في جرب التأديب التي أعلنها على قريش حين نقضت حليفها بنو بكر عهدها مع بني خزاعة . حلفاء النبي . فوقف فيهم خطيباً . قال : « ما تظنون أني فاعل بكم ؟ » وكان طبيعياً أن يظنوا أنه معلق لهم المشانق وموص بالسيوف البواتر تحز أعناقهم جزاء ما قدموا له من إساءات ولرسالته من عقبات . ولكنهم وهم أعلم بخلفه وعلو نفسيته . قالوا : خيراً .. أخ كريم وابن أخ كريم . قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » وعفا عنهم بهذه النولة عفواً شاملاً أفرادهم جميعاً ، وجرائمهم جميعاً .

وكان محمداً كريماً زاهداً . ولم يكن فقيراً . فهو في مطلع شبابه يتجر في مال السيدة خديجة ثم هو زوجها المتصرف فيما تملك ثم ورثها . ثم صاحب الفقيه في الحرب . وكم غنم غنائم كثيرة ، ولكنه مع ذلك كان يجوع يوماً ويشبع يوماً . وكان يرتاح إلى هذه الحياة حتى يضرع إلى الله إذا جاع ويشكره إذا شبع !!! أما كرمه فعليه آلاف الدلائل وحسبك أنه ربح من غنائم الحرب خمس أسلاب الأمم التي غزاها وانتصر عليها وهي كثيرة ثم لم يشبع من خبز الشعير كما اتفق الرواة عليه . وهذا الخمس يساوي ثروة أعظم عرب في عصره عليه الصلاة والسلام أو يزيد كثيراً . وصفة الكرم فيه ، ضرورة للنبوته لأن النفس تميل إلى أسباب الترف وهي ما يوفره المال والثراء لنفس ذليلة أسيرة الأمانى الكواذب الدنية والمطامع الخميرة المادية . أما النفس الزاهدة القوية على مطالب الحياة ، والمستغنية عن ضروراتها ، فهي النفس التي لا تقهر ولا تغلب ، ولا يعزها شيء من غايات المجد . فعلى

هذا القلب أراد النبي محمد أن يصوغ المسلمين . فما أتعب المسلم الذي تستعبده شهوة المال ، ويقهره حب الثروة وما أشد مجافاته لسيرة نبيه ، وبعده عن أصل من أصول الإسلام ، وإن حج وصلى وصام . . . !!

وهذا النبي الذي له في قومه وأصحابه وأتباعه منزلة التقديس ، كان يخصف نعله ويخيط ثوبه بيده ويحلب شاته ويعمل ما يعمل الرجل في بيوتهم كما روى عن عائشة أم المؤمنين . . . وذلك لتواضعه وزهده وعلو نفسه وكان لا يستنكف أن يمشى مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضى لهم حاجاتهم كما رواه النسائي والحاكم ، وكان يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم (رواه النسائي) .

أما دليل شجاعته فهو مقاتل في حرب الفجار وعمره عشرون سنة .
وقوله «وددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل» .
وهاكم دليلاً على شجاعته يفوق كل دليل ، حين التقى المسلمون وكفار قريش في غزوة حنين كان المسلمون يفوقون خصومهم عدداً فظن المسلمون أنهم غالبون وأعجبهم كثرتهم . فوقعوا في كمين فانهزموا . وثبت النبي محمد في عشرة فقط من أصحابه . ومن الطبيعي أنه ثبت محارباً يقوم بمهمة جيش كامل ولم يثبت متفرجاً ولا ثبت ليؤخذ أسيراً أو يقتل . وكان ثباته وإهابته بالمسلمين أن يجتمعوا إليه ، داعياً إلى تجمعهم ثم انتصارهم وفي هذه الموقعة أصابه عليه الصلاة والسلام أذى كثير . هو أبلغ الأدلة على شجاعته الحربية وعظمة قيادته ؟ وهو موقف لو تعرض لمثله نابليون أو شارلمان أو غيرهما لما ثبت دقية كاملة بعده ، أو يقتل أو يؤسر .

وهذا الفارس الشجاع الزعيم المطاع جاءه يهودى يوماً يطالبه بدراهم كان قد رهن عليها درعه لديه ، فأمسك اليهودى بتلابيبه حتى كاد يخنقه فسل عمر سيفه وقال: دعنى أقتله يا رسول الله . فأجابه النبي محمد : دعه يا عمر فإن لصاحب الحق مقالة . وقد كان النبي محمد ملكاً في رأى الفقهاء جميعاً وإنما ينفون عنه صفة الملك المتجبر فهل سمع الناس أن ملكاً أو عمدة قرية

يطالبه أحد رعاياه بهذه القسوة ثم يضبط نفسه حياله ، ويمنع الأذى عنه ويعتذر له كما اعتذر النبي عن اليهودي لمعر ؟!

وكان أيضاً من سجاياه النبيلة أن لا يواجه أحداً بما يكره وإذا بلغه أمر يسوءه عليه الصلاة والسلام لا يقول قال فلان . ولكن : ما بال قوم يزعمون كذا . مثلاً .. حتى لا يخرج صاحبه أو يسيئه .

إجمال :

يمكن لمن شاء معرفة النبي محمد صلى الله عليه وسلم أن يراجع القرآن فهو كما قالت عائشة أم المؤمنين : كان خلقه القرآن .. برضاه يرضى وبسخطه يسخط .. علمه ربه كيف يمشی وكيف ينأ وكيف يحارب وكيف يسألم وكيفية سائر الآداب الاجتماعية كما زخر القرآن بتفصيلها وتوضيحها .



ذهنية النبي محمد

رأى القراء من عرض صفاته الخلقية والأخلاقية ، كيف أنه يسمو على كل شخصيات التاريخ ونحب قبل أن نتكلم عن ذهنيته العظيمة المنيرة أن نقول استطراداً كلمة لا بد منها ، هي أن النبي محمداً لا فضل لمجتمعه في تكوين ذهنه . ولا في أى صفة من صفاته النفسية الممتازة ، فإن محمداً لم يخرج من مجتمع قوم فلاسفة كان فيهم نظراء أرسطو وأفلاطون ، ولا بحث من مجتمع قوم مؤمنين ، ولا من بين قوم أهل كتاب . ولا من مجتمع كانت فيه بطولة كبطولة الإسكندر . فتكون بيئته قد منحت تلك الصفات ولم يكن له معلم ولا مرشد فكل مميزاته إذن كانت له بالفطرة لا بالكسب ، وفطرته هي التي عزلته عن شرك العرب وباعدت بينه وبين عباداتهم الوثنية ، وعكفت به في غار حراء ليكشف ويتأمل ، وما أحسن قول «كارليل» فيه :

« كان عصره وقومه حطباءً يابساً ميتاً ، أصابه هذا الشهاب فألهبه وأشعله وأضاء به ناراً مقدسة هادية » .

لم يخلق الخطب اليابس ، الشهاب المحمدى ، ولكن الشهاب خلق من
الخطب ناراً وطهراً وتقوى ، وما أحسن قول «كارليل» أيضاً فيه :
« الحقيقة الكبرى هي أنه رجل صادق ونبي مرسل » .

وما أحسن قول فيلسوف الألمان وشاعرهم الأكبر « جوته » . عن
شريعة محمد :

« إذا كان هذا هو الإسلام فكلنا مسلمون ! » .

ويعلم لنا تاريخ النبي محمد أنه لم يتأثر خطي أحد قبله ، ولا انتهج
منهاجاً لعظيم سبقه ولا مضت شريعته على نسق الشرائع القديمة فيكون مقلداً
أو ناقلاً .

بل جاء لمجتمع متخرب فأقام قواعده على مبادئ الحق والخير والفضيلة
ولنفوس محطمة . فشاد في جوانبها مجد الإنسانية النبيلة .

واعجباً للذين يطعنون على النبي محمد .

رجل محق من المجتمع الذى بعث إليه مفاصد الرق ومفاصد الخمر والزنا
ومفاصد الوثنية . ومنح قومه - وكل المؤمنين برسالته من غير قومه -
المجد الدولى والكرامة الشخصية . ونشر العدالة الصحيحة . وأقام مكارم
الأخلاق بأجمل ما تصورها أحلام الفلاسفة ، وجاء كتابه بتمجيد الله
والتحريض على التعاون الإنسانى والترغيب فى الإحسان . وترقية الروح
وتحريم ما يؤذى البشر فى أجسامهم أو معنوياتهم وبيان أحكام تدبير المنزل
وأحكام سياسة المدينة وأحكام سياسة الدولة . وأحكام سياسة الإنسانية
ومدح الأنبياء جميعاً بلا تفریق بين أحد منهم وحدث الناس عن الغيب
الآخر : القيامة والحشر والجزاء . ودعا إلى الكرم والسخاء وكان قدوة
فيها لقومه . والرفق والعفو ومقابلة الإساءة بالإحسان ومحبة الله مع إجلاله .

هذه هي مطالب القرآن ومقاصده . أفلا تشهد للداعى إليها بالنبوة ؟ !

ونعود إلى الكلام عن العنصر الثالث من عناصر الشخصية المحمدية وهو ذهنية النبي محمد ، وكان يكفيننا أن نقول في إثبات تفوقها على الأذهان جميعاً أنها قاومت كيد العرب لدعوته ، ومحقت وسائلهم وذكاءهم اللامع المدبر لقتله . وساست دولة الإسلام في عشرين سنة حتى مات صلى الله عليه وسلم بعد ما حج معه في حجة الوداع ١١٤ ألفاً من المسلمين !

ولكننا سندكر وقائع معينة ، من وقائعه الذهنية العديدة بحيث لا نطيل : حين اشتد أذى قريش لأصحابه ، أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، لأن ذهنيته رأت أن لقوة الاحتمال النفسية والجسدية حداً ، وأن أذى قريش لهؤلاء المسلمين المستضعفين يتزايد ، فأمرهم بالهجرة حتى لا يفتنهم المشركون عن دينهم واختار عقله القوى مملكة الحبشة ، لأن ملكها كان من فريق النصارى المؤمنين بنبوة عيسى ولم يكن من المؤهلين له عليه السلام . وذلك التوافق في المعتقد بين رأس الحبشة وبين الفارين إليه بعقائدهم كفيل براحتهم وأمنهم . وذلك هو الذى كان . عندما كلم زعماء المشركين النجاشي في أن يسلم هؤلاء المهاجرين فناقشهم فلما علم بأمر دعوة النبي محمد وأنه ينفى ألوهة عيسى قاس على صدقه في هذه ، صدقه في غيرها وعلم أنه الذى بشرت به الأنجيل فأوسع لهم من رحابه وأرسل إلى النبي الكريم رسالة كريمة وآمن به في بعض روايات أهل الحديث حتى صلى عليه النبي محمد صلاة جنازة الغائب يوم مات .

حين ائتمرت قريش بما مكر لها أبو جهل وهو أن يجمعوا من كل قبيلة شاباً . فيجمعون مائة يقفون على دار النبي فإذا ما خرج قتلوه قتله رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل ، فترضى قومه بنو عبد مناف بقبول الدية . علم بما مكرروا إذ أوحاه الله إليه فأمر عليه رضى الله عنه بالبقاء في فراشه ملتفاً ببردته ليطمئنوا على وجوده في بيته وأنهم مصبحوه بمكرهم السوء . وخرج عليهم في الليل وقد عموا عنه . فلو لم يسعف ذهنه بفكرة الهجرة ، ثم أحكمها بترك بديل ملتف ببردته لانتبهوا وهم يرقبونه في نومه إلى عدم وجوده فلحقوا به قبل أن يخرج من طرقات مكة .

لحوؤه عليه الصلاة والسلام إلى حجاج الخزرج وعرضه الدعوة عليهم واختياره لهؤلاء القوم لعلمه أنهم أوفى العرب جميعاً وأشدّهم في الحروب بأساً وأن اليهود يتوعدونهم بنبي جديد سيظهر فيتبعونه هم ثم يغلبون الخزرج معه ٠٠٠ ثم انتظاره إلى العام الثاني حتى وافى موسم الحج فجاءه الستة الذين قبلوا دعوته بستة معهم من سادة أقوامهم ، ثم بيعتهم له التي وضع الرسول صيغتها وهي « أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم » ثم اصطحابه عمه العباس وهو مشرك ومقالة العباس المشرك لهم « إن محمداً منا حيث قد علمتم قومه منعاه من قومنا ممن هم على مثل رأينا— أى الشرك— فهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللاحق بكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك . وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه » .

وسواء أكان النبي هو الذي اقترح على العباس مرافقته أو أنه وافق فقط على اصطحابه . فتلك لاشك من آثار ذهنية عظيمة عمدت إلى أن تبين للأشباع الجدد أنهم لا يتبعون مستضعفاً يستظهر بهم . ولكنهم يتبعون عزيزاً منيعاً ، يفضل الاعتزاز والاحتماء بأتباع عقيدته ، على الاعتزاز بالمخالفين له من أهل عصبية .

وفي سيرة النبي محمد أروع من هذا الذي ذكرت وأمجّد . ولكنها أمثلة تحضرنى ولعلها تكفي إلى التوجيه إلى قراءة سيرته عليه الصلاة والسلام وتكوين الملكة لدى القارئ التي يستطيع بها دراسة ما يقرأ من السيرة دراسة فلسفية واستخراج دلالات ما زخرت به الكتب سرداً بدون أن تستخرج دلالاته منه ، أو تجعل الوقائع والحوادث ، وسيلة إلى تحليل الشخصية وتعليل فلسفة محمد وعبقريته في تطبيق ما أوحى به إليه . فإن من مزايا الرسالة المحمدية . أن الرسول الأعظم علمها لأصحابه وخرجهم فيها أساتذة فاقهين فاهمين .

إنى لأدعو كل شاب يريد المجد ويطمح إليه أن يقرأ ويدرس سيرة النبي محمد لتتأثر بها مشاعره وخلائقه ويحتذيها ... فإذا هو ماجد في معاصريه .

نبوة النبي محمد

قامت الأدلة على صدقها

ذكرنا في فصل « شخصية النبي محمد » أن محمداً صلى الله عليه وسلم لو لم يكن نبياً لوجب أن يتخذَه الناس كافة إماماً لهم يتبعون شريعته . . لأن عظمة تعاليمه ، تؤدي بالفرد إلى ترقية ملكاته وإلى التماسي ، وتمشي به وفق القانون الأخلاقي ، وتكفل له راحة الضمير .

كما تؤدي بالمجتمع إلى الارتقاء ، بدليل أنها كفلت للعرب في العهود الأولى للإسلام - وهي استمساكهم بالتعاليم وحرصهم على الشريعة - مجداً دولياً لم تنله أمة . وأعظم حضارة علمية وفكرية . لم يلحق شأوها أحد !

كما تؤدي تعاليم النبي محمد إلى التفاهم والتعاون الاجتماعي والسياسي بين الجماعات الإنسانية .

وقد شهد بهذا كثيرون من الفلاسفة ، حتى الذين لم يعلنوا إسلامهم وفيهم « تولستوى » ، و« جيته » شاعر الألمان وأكبر فلاسفتهم .

وفي هذا الفصل نقيم الأدلة على صدق نبوة النبي محمد ، وأن تعاليمه إلهية وشريعته من السماء .

فنسأل أنفسنا بعد الذي ثبت لدينا في فصل « هداية العقل البشري » :

١ - للنبوة شروط.. فهل تحققت فيه صلى الله عليه وسلم ؟

٢ - وللنبي الحقيقي ، أخلاق خاصة . . فهل كانت له ؟

٣ - هل الوحي الذي نزل عليه تطابق صفته صفة الوحي النازل

على غيره ؟

- ٤ - هل يقبل العلم صفة الوحي المحمدى ؟
 ٥ - هل توجد شبهة فى أنه ادعى النبوة لغرض ذاتى ؟
 ٦ - هل جاءت رسالته فى زمن يحتاج الناس إليها ؟
 ٧ - هل صفاته - عدا أخلاقه - كانت صفات نبي ؟

تحقيق الاجابة :

شروط النبى' - فى النبى الحقيقى - أن يصحب إعلانه لدعوته إظهار معجزات خارقة لنواميس العادة .

وقد أظهر للنبي محمد من هذه المعجزات كثيراً . ووقع من التبشير به حين ولادته كثير لم يقع مثله لسواه من الأنبياء ، وقد علمنا نحن أبناء العصور التالية المعاصرة ، صحة هذه الأخبار بالنقل المتوفرة له شروط الصحة والاستدلال .

فأخبر النبي محمد عن الأمور الغيبية الماضية والمستقبلية : وهذا خرق للعادة من نوع لا يتيسر إلا لنبي .

وفعل من المعجزات الأخرى : كرد العين الضائعة وإبراء الساق المصابة وشفاء المريض بالاستسقاء وشفاء عين على رضى الله عنه من الرمد بأن تفل فيها ، وغير ذلك ، أفعالا كثيرة .

وظهر حين ولادته من البشارات : سقوط إيوان كسرى وتساقط النجوم ، وخمود نيران فارس ، وغيبض بحيرة ساوة . وفيض وادى السماوة ببادية الشام . وظلته الغمامة قبل البعثة .

وعرفه بحيرى الراهب النصرانى ، بهذه العلامة الأخيرة كما روته كتب السيرة المعتمدة .

وعرفه رؤساء ديانات النصرانى واليهود بما هو مذكور عنه فى كتبهم من الأوصاف . وآمنوا به كما ذكرنا فى فصل « الإسلام نسخ اليهودية والمسيحية » .

ثم جاء النبي محمد بمعجزة أخرى أقوى من كل تلك المعجزات وأخلد وهى القرآن .

ومن ميزات نبوته أنها لم تستند إلى المعجزات التى هى خرق النواميس وإنما جاء بتلك المعجزات ، لأنه تقرر فى أذهان الناس ضرورة مجيء النبي بمثلها ، فمن الثابت تاريخياً أنه كان ينههم عن طلب المعجزات للاستدلال بها على صدقه مع قدرته على إظهارها . بل ومع أنه أظهر منها ما لم يظهره سواه وما يكفى جداً للإيمان به .

وكان كلما طالبوه بمعجزة ، صرفهم إلى التفكير واستعمال العقل فى تمحيص ما يدعوههم إليه ، واستخراج دلالاته على صدق دعوته .

وقول المشركين وقول المبشرين إن محمداً كان يتعلم القرآن وما جاء فيه من قصص ، من أهل الكتاب ، قول مردود لأنه :

كيف كان يتعلم منهم ولم يقع فى أخطأهم وخرافات دياناتهم ؟ وكيف لم ينقل عنهم فساد عقائدهم فى ألوهة عيسى وصلبه والتثليث ؟ فإن كان معلمه وثنيّاً فكيف علمه الإقرار بنبوة موسى وعيسى ؟ وإن كان يهودياً فكيف اعترف بنبوة عيسى ؟ واليهود لا يعترفون بنبوته عليه السلام ! ثم كيف لم يعرف أحد تردده على هذا المعلم ؟ وكيف لم يرو عنه أحد من خصومه - على كثرتهم - أنه كان يفضل أحداً من أصحابه على أحد فتقوم الشبهة على أن هذا هو معلمه ؟ ثم لماذا أثر هذا المعلم أن يختفى ، فلا يدعى هو النبوة . ويترك لتلميذه شرف النبوة وشرف الزعامة ؟ ؟

ثم إن خصومه قالوا عنه عليه الصلاة والسلام :
إنه كان يعلمه حداد رومى وإنه مخبول ذو رثى من الجن وإنه شاعر ..
فأى هذه الصفات يصرون عليها ! ؟

إنها شبهات متهافئة ، لا تستند ولا إلى الظن وإنما مبعثها الحقد والجحود وقد قال القرآن لهم : فليأت شعراؤكم بمثل قرآنه بل بأصغر سورة فيه .

وقال لهم : فيكم مخبولون وأصحاب رثى من الجن ، فاجتمعوا معهم وجئوا بأصغر سورة منه ! وقال لهم : فيكم أهل كتاب من الذين ترعمون يعلمه أحدهم ، فليجتمعوا جميعاً وليجئوا بأصغر سورة منه ، فلم يستطع ذلك من طوائفهم أحد ! .

وطلب المشركون من النبي محمد أن يكون له بيت من ذهب : وهذا ليس من خصائص النبوة بل من خصائص الملوكية .

فكان طبيعياً أن لا يجيبهم إلى مثل هذا الذي لا إعجاز فيه .

ومن معجزاته ، المعراج والإسراء . وقد قال المبشرون : كيف تؤمنون بها مع استبعاد وقوعها عقلاً ؟ ونقول لهم : إن استبعاد حدوث الشيء عقلاً لا يطعن في وقوعه . وإلا فكيف حملت العذراء عيسى دون رجل ؟ ؟

فنبوت المعجزات للنبي محمد صلى الله عليه وسلم يجعل شروط النبوة متوافرة له . . فننظر في أخلاقه :

نقل العلامة « سبيل » في مقدمة ترجمة القرآن عن « اسبان هميس » المسيحي ، عدو محمد ومنكر رسالته ، في الصفحة السادسة طبعة سنة ١٨٥٠ ميلادية ما يأتي في صفة النبي محمد :

« إنه كان حسن الوجه وذكياً وكانت طريقته مرضية ، وكان الإحسان إلى المساكين شيمته . وكان يعامل الكل بالخلق الحسن . وكان شجاعاً على الأعداء . وكان يعظم الله تعظيماً كبيراً . وكان يشدد على المفترين والذين يرمون البرءاء ، والزناة والقتلة ، وأهل الفضول والطامعين وشهود الزور .

« وكانت كثرة وعظه في الصبر والجود وصلة الرحم والبر والإحسان وتعظيم الأبوين وتوقيرهم وتكريمهم . وكان عابداً مرتاضاً حتى الغاية » .
وقد بينا نحن أخلاق النبي محمد عند الكلام عن شخصيته .

فهذه الأخلاق هي بلا شك أخلاق النبي الصادق ، لأن عبادته وتعظيمه لله دليل إيمانه برسالاته ودليل خوفه من الله ، وضمان على أنه لم يكذب على ربه . ومعاقبته للمفترين وشهود الزور والذين يردون البراء واشتداده عليهم ، دليل على أنه يمتك الكذب . واشتهاره بالصدق استدلل به النجاشي على نبوته حيث قال لأبي سفيان : هل علمتم عليه الكذب ؟ قال : لا . قال : « ما كان لترك الكذب على الناس ويكذب على الله .

صفة النبي محمد

أجمعت كتب السيرة على وصفه صلى الله عليه وسلم بأنه كان صحيح العقل سليم الحواس قوى التمييز ثاقب الفهم . نافذ البصيرة في كل حالاته متصفاً بكل الكمالات العلمية والعملية ومحاسن النفس والبدن والنسب والوطن (المراد بمحاسن الوطن الاعتدال الإقليمي) .

ولو وجد خصوم دعوته ، أن فيه صفة تطعن على صحة نبوته لأعلنوها ولا يقال : قد رموه بالصرع ! فذلك ناشئ من الحقد ، فإن المصروع لا يرتضيه أحد قاضياً وقد ارتضته سادة قريش للقضاء بينهم في أخطر شأن لديهم . شأن الكرامة والسيادة حين تنازعوا على وضع الحجر الأسود وهم يبنون الكعبة . ولولا مكانته وقوة شخصيته ورجاحة عقله ونفاد فهمه — وهي شروط القاضي — لما قبلوا الاحتكام إليه .

وكان من صفاته كما قدمناه ، أنه لا يعلو صوته عند الغضب فهذه الصفات الطبيعية هي التي يجب توفرها في النبي ، ليؤمن بسببها أن يسهو عن الذي يوحى إليه ، أو يسىء فهمه ، أو يختلط عليه تمييز مقاصده .

أو يتأوله على غير ما أريد به ، أو يضعف عن احتمال مسئوليته أو ينفر الناس عنه : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » (١) .

فتحققت فيه صلى الله عليه وسلم صفات وأخلاق النبي وشروط النبوة .

فلننظر هل طابق ما أوحى به إليه ، ما أوحى إلى النبيين من قبله ؟

وقد فصلنا ذلك في فصل « الإسلام مصدق لما بين يديه » .

ثم لننظر هل يقبل العلم صفة الوحي المحمدي ؟

كيف كان يوحى إليه :

روى عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا نزل الوحي على رسول الله ، يسمع عند وجهه كدوى النحل . وعن عائشة أم المؤمنين ، أن الحارث ابن هشام سأل رسول الله : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

« أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني » ونزل عليه الوحي بعد ذلك بغير ذلك . فنزل عليه في بيت كعب بن الأشرف اليهودي يخبره بغدر كعب وأنه يقصد إلى قتله غيلة (بأن يدحرج عليه صخرة من فوق جدار بيته) . فنهض هو وأصحابه متوجهاً إلى المدينة . ولم يعرف أحد منهم بنزول الوحي لأنهم لم يروا علاماته . وكذلك نزل الوحي يوم بدر .

أما أنه كان يسمع عند وجهه كدوى النحل فهذا مطابق لنظرية اللاسلكي ، فإن الإشارات اللاسلكية ترسل بواسطة الاهتزازات وليست كلاماً ولكن هذه الاهتزازات تعبر عن كلام معين محدد لا يستبدل به سواه ، ولا تسمعها المحطات الأخرى الواقعة في الطريق بين محطتي

الإرسال والتلقي ، ودوى النحل هو صدى الاهتزازات ، ولا يمكن أن يشبه صوت الاهتزازات شيئاً غير دوى النحل .

فلعل هذا الوحي الذى يشبه دوى النحل . كان الوحي اللفظي الخاص بالقرآن .

وأما أنه كان يتمثل له الملك رجلاً فيكلمه ، فالكيمياء الحديثة استطاعت أن تبخر أكثر العناصر فتتحول إلى عناصر لطيفة شفافة لا ترى ، واستطاعت أن تحول العناصر الشفافة إلى عناصر كثيفة جداً .

فالملك الذى هو نور شفاف يمكن على هذه القاعدة أن يتكشف ، وكل من له أدنى إلمام بالعلوم الطبيعية الحديثة والفلك والكيمياء . يجد أن تمثل الملائكة رجالات ، عمل عادى جداً . سهل جداً . وأما الوحي الذى نزل عليه فى بيت كعب اليهودى وفى يوم بدر فهو الإلقاء فى قلبه ، ونحن البشر العاديين يلتقى فى قلوبنا الأمر أحياناً فإذا هو يقع كما أدركناه تماماً . فأولى بنا أن نسلم بهذا للنبي . فالوحي المحمدى يقبل العلم صفته ، ويبرهن على صحته .

هل توجد شبهة فى أن له غرضاً ذاتياً :

الذى ذكرناه فى هذا الفصل مثبت لصدق نبوة النبي محمد وفيه كفاية . ولكننا نزيده فتساءل هل كانت للنبي محمد غاية ذاتية ؟ ؟

هل كان كذاباً . فكذب بطبيعته على الله ؟ حاشاه صلى الله عليه وسلم فقد عرف القارىء مائة دليل على اشتباره بالصدق والأمانة .

فهل كان واهماً أنه يوحى إليه ؟ ؟

عن عبد الله بن الحسن عن أمه فاطمة بنت الحسين عن خديجة رضى الله عنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى ابن عم ، أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟ قال : نعم . قالت : فإذا جاءك فأخبرنى به . فجاءه جبريل كما كان يصنع . فقال صلى الله

عليه وسلم لخديجة : يا خديجة هذا جبريل قد جاءني . قالت : قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عليها . قالت : هل تراه ؟ قال : نعم . قالت : فتحول فاجلس على فخذي اليمنى . فتحول صلى الله عليه وسلم فجلس على فخذه اليمنى . قالت : هل تراه ؟ قال : نعم ! قالت : فتحول فاجلس في حجرى . فتحول صلى الله عليه وسلم فجلس في حجرها . قالت : هل تراه ؟ قال : نعم !

فأدخلت النبي صلى الله عليه وسلم بينها وبين درعها . قالت : هل تراه ؟ قال : لا . قالت : يا ابن عم .. اثبت وأبشر فوالله إنه للملك وما هذا بشيطان . فتحوط النبي محمد مخافة أن يكون هذا شيطان يتمثل له وعدم مسارعته بإعلان دعوته حين جاءه جبريل أول مرة في الغار .

ثم مسايرته لنص ما علمه جبريل في البدء بإنذار عشيرته الأقربين . ثم الجهر بالدعوة حين أمر من الله بأن يجهر . كل ذلك ينفي أنه صلى الله عليه وسلم كان واهماً .

ولو كان النبي محمد واهماً لما أيده الله . ولا استطاع إعجاز أهل عصره جميعاً وأهل العصور بعد عصره جميعاً .

ولو كان كاذباً لما كان يخاف الله ويعظمه ، ولما كانت شريعته تسمو على كل الشرائع التي جاء بها الأنبياء ، والتي جاء بها الفلاسفة جبابرة القول .

ثم لنسأل أنفسنا : هل جاءت الرسالة المحمدية في زمن يحتاج فيه الناس رسالة إلهية ؟ الجواب : نعم !

فقد كان العرب حين بعثته صلى الله عليه وسلم ، على الوثنية وعبادة الأصنام . وكان الفرس على عبادة النار وطائفة منهم تعبد إلهين كما كانوا على عادة وطء الأمهات والبنات والأخوات ، وكان التتار يخربون البلاد ويظلمون العباد ، وكان الهنود على عبادة البقر والسجود للشجر !

وكان اليهود على جحودهم لنبوة عيسى وتحريفهم لكتابهم كما برهنا عليه ، وكان النصارى على التثليث وعبادة الصليب وصور القديسين .

فأية حال أدعى من هذه الحالة إلى بعثة نبي ؟

لقد كان من الضروري أن يجيئهم نذير ، تصديقاً للآية القرآنية
الكريمة :

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل
أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، قد جاءكم بشير ونذير ، والله
على كل شيء قدير » (١) .

فنطق التاريخ ومنطق العلم وحكم العقل ، تنضافر على تأييد صدق
نبوة النبي محمد .

رسالة النبي محمد

تحمل في أطوائها عوامل النجاح

لو لم تكن رسالة النبي محمد إلهية . . لماتت وثيدة .
ولو لم تكن شرعته وتعاليمه صلاحاً كلها وخيراً كلها . لاختلفت
وليدة ، وذلك أنه :

١ - بينما ظهرت المسيحية فوجدت تمهيداً لنجاحها في حكومة الرومان
التي لمت شعث القبائل المختلفة تحت لوائها فجعلت منها أمة واحدة
ومجتمعاً واحداً يسهل طبعه جملة واحدة وتوجيهه جملة وتعليمه في غير
مشقة ، وأصلحت طرق المواصلات فيسرت على الدعاة الدعوة ، ويسرت
الاختلاط بين الناس ، وهو أول وسائل نشر الآراء والمعتقدات. وأول
الأسباب الرئيسية لشيوعها في الأقطار . . بينما كان ذلك ؛

ظهر الإسلام بين قبائل متعصبة متنافرة مشغلتها السلب والغزو، وفقر
صحرائها يظلم نفوسها ، والتدابير بينها لا يوحد تعاليمها ولا يوحد مشاعرها،
ولا يسهل للديانة الجديدة أن تذيع .

٢ - وبينما ظهرت المسيحية بعد أن مهدت لها الفلسفة اليونانية والفكر
الآغريقي الذي وجه العقول إلى فهم ماهو خاص بالله وبالإنسان وبمعنى
الحياة التي لم يقو اليهود - وهم أهل الوحي والكتاب - على التعمق في التفكير
فيها ، وانتشرت تعاليم حكماء اليونان لأن لغتهم كانت هي اللغة العامة
في ذلك الحين وكانت أيضاً لغة الأناجيل . بينما كان ذلك ؛

ظهر الإسلام في بيئة آلهتها صخور منحوتة ، وعباداتها طقوس
من الشعوذة ، وفكرتها عن الله منحطة تافهة، وثقافتها الفكرية منعومة
بالكلية . . ونقض بظهوره كثيراً من أسس الفلسفة اليونانية .

٣ - وبينما ظهرت المسيحية في قوم أهل كتاب هم اليهود . فكان للمسيح منهم رسلا تعلموا من الناموس اليهودي وتهذبت عقائدهم بشيء من أحكام التوراة . وكان الشعب ينتظر النبي الذي بشر به كتابهم ، لا فرق في حالة الانتظار بين اليهود المؤمنين بالتوراة ، وغيرهم من الشعوب التي انتقلت إليها البشارة وعلقت بها رجاء الإصلاح من حال الانحلال الاجتماعي المسيطر في تلك الأزمنة .

وكان تشتت اليهود المنتظرين (للمسيا) في أنحاء الإمبراطورية الرومانية من شأنه أن يعمل على نشر رسالة المسيح وإذاعة ديانته .
بينما كان ذلك ؛

ظهر الإسلام بين أمة وثنية ، عارضت صاحب الشريعة وكفرت به وأذهلتها دعواه . فلم تجد تعليلا لها أول أمرها معه إلا أنه يطلب الملك أو الثروة أو النساء ، فعرضوا عليه كل ذلك مجتمعاً فلما أباه ، علموا أنه ليس الباعث لادعائه ، فاستحسنوا أن يعللوا دعوته بأنه رأى من الجن يتراءى له فيخيله ، فتألوا نشفيك ونجمع لك السحرة لرقيتك ونبذل في سبيل تطبيبك كل ما نملك ، فلما سخر من اتجاه تفكيرهم ، أذهلهم شأنه وحاروا في بواعثه . ولم يفهموا ما إلهه هذا ولا ما شريعته ولا ما تعاليمه لأن شيئاً لم يمهّد لها في نفوسهم ، لا وحى في هذه الأمة ولا كتاب ، ولا فلسفة اليونان ولا حضارة الرومان ، ولا اختلاطاً بشعوب المسيحيين واليهود ينير أفكارهم عن الله والرسل .

٤ - وبينما جعلت المسيحية فروض العبادة ورسومها تختلف في كل مكان باختلاف حالات الجماعات ولم تجعل من رسوم العبادات شائعاً إلا (العشاء الرباني والمعمودية) ؛

كانت تعاليم محمد - لأنها قوية وصالحة - تفرض نفسها على سائر الجماعات ولا تتشكل لكل جماعة بشكلهم ، بل تصوغهم وفق روحها وترك في نفوسهم وعقولهم آثارها .

٥ - بينما كان المنتصرون من اليهود لا يستطيعون الانفكاك من تقاليدهم اليهودية ، وكانت الكنيسة تحاول التوفيق بين المبادئ لترضى نزعات هؤلاء ؛

كان الإسلام - وما زال - إذا دخل قلباً طرد كل ما عداه من تقاليد وتعاليم بحكم قوته وسيطرته وروحانية مبادئه وسمو شرائعه وحسن توجيهه للعقول وإنارته للبصائر .

٦ - كان الفلاسفة منذ القرن الثاني والثالث للمسيحية يرون فيها ديناً لا ينطبق في شيء على رغائب الناس الفردية أو العائلية أو الاجتماعية أى أنها ليست إلا تمهيداً لديانة تحقّق للبشر أفراداً وأسراً وجماعات ، ما يصبون إليه من أغراض الارتقاء وغاياته .

بينما أقر مؤتمر الأديان الدولي بلاهاى صلاحية الإسلام لكل العصور :

٧ - كان المسيحيون فى عهد حكم « تراجان وأدريان » (١٠٤ - ١٣٨ م) مضطهدين يعدمون إذا لم يقدموا الخمر للأصنام . ويتهمون بالتآمر على الدولة ويأمرون بعدم الكتابة بتاتاً فى شئون الدين ومن يفعل ذلك منهم يلقه الحكام طعاماً للأسود الجائعة .

وفى عهود الأباطرة : أنطونيوس وبيوس وأورايبوس وكومودوس منذ (سنة ١٣٨ م إلى أول عهد قسطنطين ٣٢٤ م) . اتخذت المسيحية - أو الكنيسة القائمة على شئون العقيدة - نفس الوسائل فى محاربة خصومها حين أصبحت ذات سيطرة ونفوذ سياسى ، وبهذه الوسيلة انتشرت ، تصديقاً للآية الإنجيلية : « ما جئت لألقى على الأرض سلاماً بل سيفاً » !

بينما كان محمد يرمونه بالحجارة ويتصايح به غلمانهم بإغراء أعدائه ويضعون جلود الماشية المذبوحة على ظهره وهو ساجد لربه .

فلما فتح مكة وتمكن من رقابهم وأموالهم خطبهم فقال : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟

قالوا - معرفة منهم بأخلاقه ونبأته - : خيراً .. أخ كريم وابن أخ كريم . قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء . وانتشر دينه بالحسنى والدعوة . وما حارب إلا ليدافع ، وفرق بين حرب يلتقى فيها أنداد أعلنوا بعضهم واستعد كل فريق منهم بكل وسائله . وبين حكومة كنسية تصيد خصومها مجردين وتحرمهم حق الدفاع وتنزع ألسنتهم بآلات التعذيب ، وأظافرهم ، وتكوى جباههم بالحديد المحمى ، وتفتك بزوجاتهم لترغمهم على الاعتراف بما لم يفعلوا ، تطبيقاً لما تعلمته من الحكومات الوثنية التي اضطهدتها !

٨ - انتشرت المسيحية لأن الملوك من عهد قسطنطين كانوا عضداً قوياً لها فألغوا الشرائع التي كانت مسنونة ضد المسيحيين ورفعوهم إلى المناصب الرسمية السامية . وذكر المؤرخون للمسيحية من أنصار الكنيسة أن مريبات الملوك في ذلك العهد اعتنقن المسيحية سرّاً ، واعتنقها الأباطرة كذلك .

بينما انتشر الإسلام لأن الوافد إلى محمد ليحاجه ويفحمه ، كان يسمع الآية من قرآنه إذ يسأله عن تفاصيل دعوته ، فيقول : والله ما هذا كلام بشر ، أو : والله إنك لتدعو إلى أمر عظيم .

فالتعالم ذاتها كفلت لنفسها السيطرة والذبيوع والتمكن من نفوس من تتعرف إليهم ، والديانة المسيحية لم تتخذ طريق النظام الدولى في تكوين مجتمعتها وأمنها ، وإنما كانت مجرد دعوة إرشادية إلهية لا ترقى إلى إقامة دولة جامعة .

أما الإسلام فهدم الإمبراطوريات وأقام نظامه الدولى السامى مكانها .

٩ - جرؤ أتباع المسيح على أن ينسبوا إليه ما لم يقل وتركوا أصل كتابه يضيع !

وكان أحد أصحاب محمد يرتاع من مجرد تصور الكذب عليه وإنما كذب عليه اليهود والمنافقون . فوضع أهل دينه قواعد دقيقة وموازين

علمية ، لتبين الصحيح من المكذوب من أحاديثه حتى يأمنوا الزيغ في دينهم أو عقائدهم .

١٠- فسر الأحبار أقوال المسيح ، بقدر ما فهموها ، وحرروا على غيرهم تفسيرها ، واحتفظوا بمنهاج خاص في فهم الكتب المقدسة ؛ بينما فسر المسلمون القرآن ، وأباحوا لكل مالم بأسرار لغته أن يأخذ منه ما يتجه إليه فكره ، ووضعوا أصولاً لفهمه ، وقواعد تكفل عدم الخيدة عن مقاصده ، لم يخلقوها من عندهم مشابهة لأصول اللاهوت المسيحي ، ولكنهم أخذوها من علم العرب أصحاب اللغة التي نزل بها القرآن .

انقسام الطوائف المسيحية وانشعاب الشيع أدى إلى تغيير في جوهر العبادة المسيحية حسب طريقة كل فرقة ، ويقول صاحب الدرة النفيسة : إنه مما ساعد على ذلك ، رغبة المسيحيين في مجارة اليهود والوثنيين فجعلوا الهياكل والمذابح في الكنائس جوهرأ من جواهر الديانة الرئيسية... وهذا ومثيله صدع لأصول الديانة يقوم به أهلها مختارين ! !

وليس كذلك شيء في عبادات الإسلام .

١١- بينما كانت المسيحية يفرضها الأباطرة على الرعايا لأنهم يستمدون تأييد الكنيسة التي كثر أنصارها بتأثير ما ذكرناه من العوامل ؛

كان محمد وخلفاؤه من بعده يتركون لأهل كل دين - حتى بعد أن يفتحوا بلادهم - حرية الاعتقاد ، وكان دخول هؤلاء في الإسلام نتيجة تعرفهم إلى التعاليم الإسلامية واقتناعهم الخاص بصحة العقيدة .

١٢- كان الملك المسيحي يستمد جزءاً من سلطته ، ثم سلطته كلها في العصور التالية ، من البابا ، الذي إذا لم يتوجه ويباركه ، لم يصير

ملكاً معترفاً به . ولا يزال هذا التقليد قائماً في تنويع أسقف كنتربري
لجلالة ملك الإنجليز ؛

بينما الملك المسلم يستمد سلطته من البيعة الشعبية ، لا من الرياسة الدينية ،
لأنه هو نفسه حارس الدين باعتباره أليق الزعماء الدينيين لمهمة الحكم .

١٣ - أصول الديانة الإسلامية ونظامها ، بقيت إلى اليوم وستبقى
كما جاء بها النبي محمد ؛

أما أصول الديانة المسيحية فتطورت - على ما ذكرناه استطراداً
في بعض فصول هذا الكتاب - فكانت الرهينة في أصل نشأتها فراراً
من الاضطهاد الروماني ، ثم صارت عبادة فردية ، ثم صارت أصلاً
من أصول الكنيسة . وكذلك القديس ، كان في أصله إكراماً للموتى ،
ثم تطور فصار جزءاً من العبادة .

١٤ - مضت سياسية الكنيسة في طريق اعتبار الديانة صورة لإشباع
العين والحس ، وبقيت الشريعة الإسلامية على أن الديانة رياضة لتهديب
العقل والنفس .

١٥ - جعلت المسيحية تعذيب خصومها ، من تقاليد العبادة ومن
أصول الشعائر ؛

بينما قال الإسلام « لا إكراه في الدين » (١) . و « لكم دينكم
ولي دين » (٢) . « وجادلهم بالتي هي أحسن » (٣) . و « لست عليهم
بمسيطر » (٤) .

١٦ - ادعى البابوات من عهد أدريان الرابع سنة ١١٥٤ ميلادية أنهم
نواب الله على الأرض فتحكموا بهذه الصفة في ضمائر الناس وأموالهم
ورقابهم ، وباعوا الجنة لدافعي أثمانها ، حتى أن أحد سراة اليهود اضطر

(٢) الكافرون : ٦

(٤) الغاشية : ٢٢

(١) البقرة : ٢٥٦

(٣) النحل : ١٢٥

إلى مقابلة هذه المساخر بمسخرة مثلها فاشترى من البابا جهنم فباعها له
بشمن بخس لأنها غير مرغوب فيها . فأعلن اليهودى جميع المسيحيين
أن لا يشتروا من الجنة لأنه هو قد اشترى جهنم وسوف لا يدخل أحداً
فيها !! فعاد البابا واشتراها بأضعاف ما باعها به !!

١٧ - وتزهت شريعة الإسلام ورؤساؤها عن هذا الجبروت وعن
هذا السحت وعن العبث الفاسق .

١٨ - سلك المعلمون المسيحيون ، مسالك المنطق والفلسفة فجعلوا كل
شيء غامضاً ، فأعطوا الأخبار فرصة لجعل رياستهم فوق الحق وطقوسهم
الخاصة أساساً للتعليم ؛

بينما الإسلام نشر كل شيء بمنطق الفطرة وروح الحق وجعل الكتاب
المقدس (القرآن) وسنة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، مرجع كل
مسلم ، ولم يعط فقيهاً ولا عالماً امتيازاً دينياً يبيح له ابتداع التعاليم ووضع
الأصول ، وأباح لكل إنسان أن يأخذ الأحكام من غير واسطة عالم
أو رئيس ديني ، فليس في الإسلام وأحكامه تعقيد يستلزم احتكار
التفسير والشرح لفئة دون فئة .

١٩ - صار الدين المسيحي سلطة وتخويفاً ، والعبادة خالية من كل
وعظ وتعليم ؛

أما تعاليم الإسلام فصانت نفسها بما فيها من خصائص عن مثل هذا
الانحدار والانحراف عن الغاية من التدين .

٢٠ - قانون الإيمان في الديانة المسيحية ، الذى يشترط على المنتصر ،
الإقرار بة متكلف وغامض وحشوكله ، وكلام سخيف ؛

بينما قانون الإيمان الإسلامى جملتان : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن
محمداً عبده ورسوله » .

نظرات فى القرآن

الناس فى التصديق بالقرآن والإيمان به ، على أربع فرق ، فريق صدق به لأنه تلقى التصديق به وراثته ، وفريق آمن به دراسة ، وآخرون ينكرونه ويؤمنون من الكتب السماوية بما سواه . وغيرهم ينكرونه وينكرون معه ما عداه .

فأما فريق الذين تلقوه وراثته ، فلا بد لنا من أن نضع أصابعهم على ميزاته ونواحي قوته وعظمته ، ليكون إيمانهم إيماناً يشترك فيه العقل ويدعم الشعور الفطرى باستدلالاته ومنطقه ، حتى لا تكون عقائدهم عرضة للتليس والزيف . وهؤلاء بين قوم يكفى أن نوضح لهم محجة التقاليد التى نهجوها ، ليكونوا على بصيرة . وآخرين اكتملت فطرتهم ونضجت ملكاتهم واستوفوا شرائط البحث والتخريج والتأويل ، نكل لهم موهبتهم الاجتهادية ، ليأخذوا من القرآن مباشرة ، ولا عليهم من اختلاف السابقين مادام لهم من الفهم العقلى والاستدلال العلمى مرجح لما يرونه من الأحكام ، وأما فريق الذين ينكرون القرآن وحده ويؤمنون بغيره من الكتب السماوية فالسبيل إلى إقناعهم بسماوية القرآن . سبيل معبد ممهّد واضح المعالم ، فأكثرهم أو كاهم قد انتقل إليهم جحود القرآن وراثته لا أثر للعقل فيه ، فما علينا إلا أن نسلّم لهم سبيل العرض الحسن لمزايا القرآن وإعجازه ، فإذا هم له مصدقون . وأما الذين يلحدون ولا يؤمنون ، فنطقهم ذاته سيكون حجتي عليهم وتصحيح هذا المنطق لهم ، وسيلتى إلى إقناعهم ، ولا يكلفنى ذلك من الجهد إلا قليلاً ، هو تسديد هذا المنطق وتنقيته من الأغاليط التى دخلت عليهم من بعض المذاهب الفلسفية المدخولة بفساد الجدل وعقم المهارات . سواء من علوم الفلسفة القديمة أو الحديثة ، فلا شبهة عند أحد فى أن الحقيقة واحدة لا تتعدد ولا تكون الحقيقة يوماً باطلاً ، ويوماً حقاً ، ولا تكون عند أهل رأى بينما هى كذلك عند مخالفى هذا الرأى .

وإذن فالحقيقة واحدة وعند فريق واحد فلنبحث عنها فحيثما وجدناها تبعناها ، وأنا أستعذب مدارس الملحنين لأنهم في رأي أصحاب فكر حر ، لا أثر فيه للتعصب . فهم أسرع انقياداً إلى الحق الذي يؤدي إليه البحث . وهم أهل البحث ، وأسرع إلى قبول نتائجها الفاصلة المبرهنة علماً وعقلاً ومنطقاً .

هل القرآن في طوق البشرية ؟

ونبدأ بالنظر في القرآن من حيث هو كتاب ونسق وأسلوب ... ثم من حيث هو حكمة وتشريع وتعاليم وحضارة ... ثم من حيث هو ألوان صورة اجتماعية . . ثم من حيث أثره في جمع العرب على صفة من الجنسية والقومية وجمع المصدقين به - أي الذين يسلمون - على ذات الصفة ؛ وإن اختلفت لغاتهم وجنسياتهم وألوانهم وأقاليمهم ، بما يفعل في مشاعرهم وأعصاب نفوسهم من توحيد وتجانس ومشكلة .

ثم من حيث هو كتاب كوني ، اشتمل على أسرار الحقائق الكونية والعلمية وحوائها ، وفصل فيها وأجمل وقد كتب المتصدرون للحديث عن إعجاز القرآن مؤلفات كثيرة نافعة . ولم يعقم التأليف في التدليل على إعجازه ، فترة من فترات التاريخ الإسلامي : ولكنهم كانوا يبرهنون ويؤلفون بروح العصور التي عاشوا فيها فتناول أكثرهم القرآن من حيث هو كتاب ونسق ونظم واستدلوا على إعجازه بما يأتي :

١- ثبوت واقعة تحدى القرآن للعرب أن يعارضوه أو يشاكلوه . . وثبوت عجزهم عن هذه المعارضة .

٢- استعلاء القرآن من الوجهة البلاغية اللفظية وسموه البياني على أساليب العربية في أوجها إبان نزوله .

٣- أن في آيات القرآن من قوة المعاني أكثر مما في العقل العربي خاصة والعقل البشرى عامة من قوة الفهم وقوة التصوير وقوة التعبير .

٤- سلامته وبقاؤه على الزمن وتتابع الحقب .

وللمؤلفين القدامى في تبسيط هذه الأدلة سعة باع وقدرة مشهودة في توانيفهم وتدليلاتهم . وإنما نوجزها إلماعاً هنا . فنؤكد أن القرآن بنصوصه التي لا تزال باقية بيننا ، قد تحدى العرب أن يعارضوه فلم يفعلوا عجزاً منهم بطبيعة الحال عن المعارضة ، وهم ملاك أعنة البيان وأصحاب مقاليد الإفصاح والتعبير . وكان هذا العجز طبيعياً ، فإن القرآن شب في أساليبه عن أطوار العرب ، ففيه معان لم يألفوها ، وألفاظ لم يعرفوها ، معرفة تداول واستعمال فيما وضعها له القرآن في القرآن ٧٠٠ كلمة نقلها القرآن عن مدلوها في لغة العرب إلى المعاني الإسلامية ، وفيه استعمال للكلمة الواحدة بمعان مختلفة كلفظ (الهدى) فإنه ورد في القرآن على سبعة عشر وجهاً بمعنى الثبات والدين والدعاء .

وألفاظ الصلاة والرحمة والسوء والفتنة وغيرها .

فإنها استعملت بمعان عديدة مختلفة تنبه عليها القرينة . والقرينة معمول بها في فهم الأساليب العربية وتحديد معاني الألفاظ ولكن استعمالها في نقل اللفظ إلى معنى آخر لم يعرفه العرب أبداً . أو هم على التأكيد لم ينقلوا الألفاظ القرآنية التي أشرنا إلى بعضها ، إلى ما نقلت إليه من المعاني . قبل أن نقلها القرآن .

فالقرآن إذن أتى بما لم يجيشوا به في متن اللغة وأساليبها ، ومن أسباب العجز البياني وأدلته أن القرآن استعمل اللفظ في غير المعنى الذي وضع عادة دون أن ينقله ودون قرينة عليه كقوله تعالى : « فلما آسفونا انتقمنا منهم » (١) أي أغضبونا ، والمعنى الأصلي للأسف هو الحزن . ولم يكن ذلك ونحوه أبداً في أساليب العرب .

ويجىء الدليل الثالث من أدلة الإعجاز وهو أن في القرآن من قوة المعاني أكثر مما في العقل البشرى من قوة الفهم وقوة التصور وقوة التعبير فلو كان من نسج محمد صلى الله عليه وسلم لطابق طبيعة العرب وآدابهم ، لأنه لا بد وأن يكون رجلاً منهم ، أثرت فيه البيئة ، وورثها كما ورثوها ، ونفسيته من نوع نفسيته ، ولو خالفها في بعض نواحي التسامى الشخصية فإنها لا يمكن أن تشذ عن طبيعة النشأة الاجتماعية والعقلية والشعورية ، هذا إلى أنه لم يكن قارئاً ولا كاتباً . وقومه مستيقنون هذا ، عارفون به . ولو كان القرآن من عمل محمد صلى الله عليه وسلم لكان عجباً أن يجىء كتابه المصنوع صورة اجتماعية لأمة بلغت في الحضارة مبلغاً لم يكن العرب قد خطوا إليه حين ابتدأت الرسالة المحمدية ، ولا كانوا بمتصوريه . ومع كل هذه البراهين أريد أن ألفت نظر الفاهمين للغة العربية . وعلى الذين لا يعرفون أسرارها من المتشككين أن يسألوا العارفين من المحايدين — إلى أن نسق القرآن في صياغته ومعانيه ، فوق طوق البشر ، وأقول إن نسق القرآن في تركيبه يستحيل أن يكون من مقال محمد فإنه قد تعدد في القرآن في آيات كثيرة جداً خطاب من الله لمحمد ، فلو كان محمد يفتعل هذا ويتكلفه لما جاز أن ينجو من الخطأ ولو مرة ، وهو ينسب إلى الله صيغة الخطاب كقوله تعالى : « أليس الله بكاف عبده » ، ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد » (١) فإن مقتضى تهديد خصومه له كان يستلزم منه كما يستلزم من أى رجل مكانه أن يقول لهم — لو كان المتكلم هو — كان يتحتم في نظر الفطرة — فطرة كل إنسان وأى إنسان — أن يرد عليهم لو كان هو منشئ القرآن ، موجه الخطاب إلى مهدديه بدل أن يوجهه إلى نفسه ، يرد عليهم إما معترفاً بنفسه أو معتصماً منهم بقبيله ، أو مستليناً لهم ، أو مهدداً بمثل تهديدهم . ولكن مدلول الآية أنه صلى الله عليه وسلم كاد أن يفزعه تهديد المشركين حرصاً على رسالته ، فأوحى إليه ربه هذا التقرير المتحدى . تحدياً نفذ بالدقة الكاملة فهذه الآية ليست دعوى بشر ولا زهو خائف يطمئن نفسه .

ولكنه إرغام لأنوف خصومه ، تبع القول فيه العمل فنجاه الله من تهديدهم ، وفرق قوتهم ، وخيب مؤامراتهم لقتله . فاتجاه الخطاب إلى الواقع عليه التهديد ، ومثل ذلك من خفايا النسق القرآني . قاطع قاهر في أن محمداً لم يصنع من القرآن ولا مخرج صوت ! وكيف يقول على ربه ما لم يقل مع أن قرآنه يقول « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء . . . » (١) إن المضي في استقصاء البراهين على أن القرآن ليس في قدرة بشر لا يتسع له العمر ، وهي براهين العقل والمنطق والعلم . ولكننا نضرب الأمثال وعلى من يريد أن يعرف الإسلام الحق أن يفهم القرآن الفهم الواجب له ولا يقنع فيه بالنظر السطحي ولا بأقوال غيره من الناظرين .

بعض نواحي المخالفة بين القرآن وأساليب العرب :

ومن القواعد البلاغية أن يكون الكلام نصاً في معناه . ثابتاً في حيزه تجدد الكلمة ، أو الجملة منه على معنى معين . بينا أسلوب القرآن من المطاوعة على التقليل والمرونة في التأويل — مع فصاحة وبلاغة — أمره غريب فإنه يفهمه أهل الفطرة وأهل العلم بمعنى هو من معانيه .

فلكل عقل فهم صحيح فيه . ثم إن القرآن الذي يصف العلم والجهل والحضارة والبداءة ، ويتحدث عن الصلاح والفساد والعادات الاجتماعية المنحطة ، والارتقاء والتسامي بالنوع البشري ، لا يمكن أن يكون هذا صورة لأمة ، لأنه لا توجد أمة في أي عصر ، ولن توجد أمة تتناقض حياتها وتشمل كل هذا الاختلاف والتضاد ، والحسن والقبح ، والسمو والانحطاط ، ولو أن صانعه بشر لكان صورة لبيئته ومرآة آداب أمته . أما إعجاز القرآن من حيث هو حكمة وتشريع وتعاليم حضارة فحسبي وحسب كل قارئ أن أنقل له قرار المؤتمر الدولي للقوانين في « لاهاي » بهولاندا ، والمؤتمرات تجمع خاصة المتخصصين فيما تبحثه ، من أعلام الفكر الإنساني ، وهذا هو

نص القرار « إن الشريعة الإسلامية تحمل العناصر الكافية التي تجعلها صالحة للتطور مع حاجات الزمن والمدنية » وهذا القرار لهيئة دولية متخصصة فيما تبحث ، له بلا ريب قيمته النظرية ، ودلالته على ألوهة القرآن وصحة الوحي وإلا فأين البشرى الذى وضع قانوناً وشريعة وتعاليم ، بقيت على تطاول الزمان ؟ ! وثبت أنها تصلح للتطور مع حاجات الزمن والمدنية ؟ لم يوجد هذا البشرى ولن يوجد . فينتفى بهذا الاستدلال أن يكون القرآن من حيث هو تشريع وحكمة وتعاليم حضارة . من وضع محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما دعوى « هانكور » الفرنسى أن محمداً حاكى فى القصص القرآنى شعر أمية بن أبى الصلت فأكذوبة جاهل ، وليست سقطة عالم ، لما سبق أن قدمناه من وجود الإعجاز، وأين شعر أمية بلاغة واستيعاباً للقصص الدينى من القرآن ؟ وأين شعر أمية وصدقه من صدق القرآن ؟ وأين شعر أمية ونسقه من نسق القرآن ؟ وإن العرب أنفسهم قوم أمية لم يزعموا هذا . وإنما زعم كفارهم أن « بحيرى » النصرانى يتقص على محمد ، فهذا التناقض بين المنكرين والزاعمين يهدم وجوه دعاويهم بلا داع للاطالة . ثم إن كان شعر أمية مصدراً للقصص القرآنى فأين مصدر التعاليم الأدبية ؟ وأين مصدر الأحكام التشريعية ؟ وأين مصدر التقارير العلمية القرآنية فى حقيقة الكون وأصل الخلق ؟ !

ولابد أن نؤكد الحقيقة التى يعرفها من يقف على تاريخ جمع القرآن معرفة تيقن ، وهى أن القرآن انتقل إلى كل عصر من الجليل الذى سبقه انتقالاً متواتراً لا انقطاع فيه ، وأن جمعه فى مصحف واحد وقع على أتم صور الدقة والتحرى فى عصر قريب من نزوله . فالكتاب الذى بين أيدينا هو هو الكتاب الذى أنزل على محمد ، وليس فى الكتب المقدسة السابقة على القرآن كتاب حفظ من العبث والتبديل ، ومن أن يدخل فيه ما ليس منه . فكل تلك الكتب المتداولة إنما هى (جمع وتأليف) التمسس والأخبار والرهبان وإيست تبليغ السماء !

ولا ريب في أن الكتاب الذى ينزل على قوم فلا يطابق أخلاقهم وعاداتهم الموروثة وإنما ينتزعها من نفوسهم وشيكاً بتأثيره السحري في أعصاب نفوسهم بعد أن يزلزها بأساليبه ومصادمته لها ، ثم يدهم من كل هاتيك النقائص ما لا حياة للأمم إلا به من فضائل الأخلاق الفردية والاجتماعية ، ثم يكون هذا التبديل لنفوسهم بعيد الأثر مكين القرار في أقصر فترة زمنية حتى تبدو هذه الأمة العربية بأخلاقها القرآنية ، وكأنها ورثتها مع الدم من أبعاد العصور ، ليس إلا كتاباً إلهياً محفوظاً وآية تأثيره فيهم ، أنهم اجتمعوا على أكمل أصول الاجتماع وأنظمته ، وكانوا قبله فرقاً ، ثم أسسوا الملك المؤثل . وفتحوا العالم ، ونشروا آداب دينهم ، فكان لها في غيرهم من الأمم عين ما كان لها فيهم من الأثر ، وألف القرآن من كل هذه الأمم وإن تباينت ألسنتها وألوانها وأقاليمها ، جنسية واحدة حتى لتجد من أعلام المفسرين والمتكلمين ومتقدمى الفقاء ، الفارسي والتركي والحيشي ، وغيرهم من أصحاب اللغات المعجمة والجنسية المتباينة والإقليم النائي واللون المختلف وما بعد هذا دلالة على عميق تأثيره فيهم !!

هذا شيء في إعجاز القرآن وفي التدليل على أنه أثر إلهي دلالاته الألفاظ ، كما لغيره ، من الآثار الإلهية دلالة ، كدلالة المخلوقات على قدرته تعالى على الإبداع والخلق وحسن الصنع ، فالمخلوقات من — القدرة على الخلق — بمثابة الألفاظ من القرآن الكريم دلالة على الأثر . على أنى أرى أن الإعجاز يتخذ في كل عصر مظهراً ملائماً ، فإعجاز القرآن في عصر البلاغة والفصاحة ، هو في نسقه ونظمه وفصاحته . وإعجازه في عصرنا هذا الذى يتحدى به أهل الجيل الحاضر المتمدينين المتسامين ، هو أنه كتاب كوني أحاط بنظام هذا الكون جملة واشتمل عليه تفصيلاً فقد ثبت أن العلماء الكونيين جهدوا في كشف خفايا النظام الكوني ، وجدوا في تفهم أسرارهِ ، فلم يصلوا بعد الجهود العنيفة والأزمان المتطاولة إلا إلى قليل ! ولم يقفوا من محبوب الأسرار الكونية إلا على النزر الضئيل ، وكذلك تظل الأفهام الإنسانية عاجزة عن إدراك سر القرآن الذى هو سر الكون . وإنما تتكشف لها في كل عصر ،

جزئيات من الحقائق لتنهض دليلاً على ألوهة الكتاب الكريم وتفتح المغاليق الكونية والحقائق الأزلية عن مصداق آياته القديمة الصادقة . فنخرج من ذلك بأن العلم الكوني الذى اشتمل عليه القرآن مفصلاً ومجملًا ، ليس إلا علماً إلهياً لأن العقول البشرية لم تكن تعرفه ، ولا تزال لم تعرف منه بعد تطاول الأزمان وإجهاد الفكر إلا قليلاً وقليلاً جداً .

وسيجىء بيان ذلك كله فى تطبيق آى القرآن على مكتشفات العلم الحديث وعندها يطرح المارى كل مباحكة جدلية . ويتعطل منطق اللسان للمثبتين والنافين ، فإن الحقائق العلمية وحدها برهان لا يدفع ، والوقائع الكونية تأييد وتوضيح يرى ويسمع ، والرؤية والسمع دلالات اليقين وليس أقوى منهما دلالة .

تكرار الآيات القرآنية

وهم البعض أن تكرار آيات من القرآن فى مواضع مختلفة ، إنما هو عيب بلاغى . وردنا على ذلك من مزاج العرب أنفسهم أصحاب الصنعة وأساليبها ، ومن خواطر دراسة عصر الوحي . فأما التكرار فليس عيباً بلاغياً . وإلا لعابه به مخاصموه ، بعد أن عجزوا عن معارضته وأنهزموا أمام ما تحداهم به . بل إنه مذهب معروف فى أساليب العرب ، أكثر ما يكون عند إرادة التخويف أو التأكيد أو التفجع أو التهويل ، وكذلك يراد به المبالغة فى التحدى ، بأداء المعنى الواحد على صورتين مختلفتين نظماً وترتيباً ووجهاً وعبارة ، وكذلك يثبت منه أن الله تعالى غير عاجز عن تكرار ما قال فهو يكرره ويثنيه فى قوالب مختلفة وما لغيره تعالى أن يفعل تلك الماثلة . مع وقوع الفعل – أى المشابهة والماثلة – التى وقعت منه تعالى من تكرار الآيات المتشابهة فى أكثر من موضع وعلى أكثر من نسق . وليكون ذلك دليلاً على أن النسق القرآنى لا ينحصر فى ترتيب بذاته .

فيقال عجزوا عن مجاراته لأنه محدد الوضع ، محمول على تركيب خاص .
فهذه التراكيب وهذه الأساليب المختلفة ترتيباً ونظماً – وإن اتخذت نوعاً
وكيفاً – هي النسق القرآني ، ففيه – لو استطعتم – فرصة لكم وفسحة تمكنكم ؛
فما هو على أسلوب محصور ولا وضع محذور .

ومن حكمة التكرار استعمال منطق أهل اللغات المختلفة فتجيء الكلمة
في الآيتين على وجهين (براء وبريء) فالأولى لأهل الحجاز والثانية لتيمة
وسائر العرب . وذلك في معنى الإعجاز والتحدى ، أبلغ وأدل ، لأنه ينزل
بالسنة القبائل ، وما كان لقبيلة أن تتكلم لسان أخرى ، فكيف يتفق لمحمد
صلى الله عليه وسلم أن يتكلم بأساليب القبائل جميعاً ؟ !

القضاء والقدر ايمان وعمل

كثير من شباب المسلمين يتواكلون ، فلا يسعى أحدهم إلى ما فيه صلاح شأنه زاعماً أن الله تعالى أراد له ما هو فيه ، ولو قضى سبحانه عليه بغيره لحيأه له .

ولا شك أن الإسلام يبرأ من هذه الأوهام ، ولا شك أن من علل تأخر المجتمع الإسلامى والأفراد المسلمين ، سوء فهم عقيدة القضاء والقدر .

ولست أعرض للقراء خلافاً الفرق الإسلامية في هذا الشأن ولا ألخص لهم آراءهم ، فقد انشغل المتكلمون في الإسلام بموضوع القضاء والقدر فأخذ من وقتهم وجهودهم ، وملأوا مؤلفات عديدة بالجدل وإفساد آراء غيرهم ، كل يستعين المنطق فيجد فيه نصيراً ، وقد تناول هذا البحث كذلك ، رجال الفلسفة ، شوقيون وأوروبيون . قدامى ومحدثون .

وخلاصة ما في مبحث القضاء والقدر من وجهة النظر الإسلامية الصحيحة ، أن للعبد مشيئة واختياراً . وأن الله تعالى خالقه وهو خالق مشيئته ، أما علاقة القضاء والقدر بالعباد ، فهي علاقة علمه تعالى بما سيكون من أمرهم ، فكتب على هذا أنه شقي لأنه علم سبحانه وتعالى بسابق علمه القديم ، أن هذا العبد سيتجه بما فيه من قوى الفعل إلى فعل الشر فيشقى ، وكتب للآخر أنه سعيد لأنه سبق في العلم الإلهي أنه سيتجه بقواه إلى الخير ولتوضح ذلك نقول :

إن الله تعالى أودع في الإنسان قوة الفعل ، أى القدرة على الأعمال ، وألهمه وبين له : « ونفس وما سواها . فآلهمها فجورها وتقواها » (١) . « وهديناه النجدين » (٢) ، أى طريق الخير والشر .

وترك الله تعالى للإنسان حرية الاختيار ، بعدما منحه قوة التوجه والعمل ،
وبيّن له الطريقين ، فتكون قوتا فعل الخير والشر مخاوقتين في الإنسان من
أمر الله وقدره . ويكون الاختيار للإنسان وحده . ولا تنافي بين هذا وبين
قوله تعالى : « والله خلقكم وما تعملون » (١) . ولا يتعلق قضاء الله تعالى وقدره
بالمستحيلات فلا يدخل في قدرته تعالى أن يجعل السماء أرضاً ولا الأرض
سماً ؛ لاستحالة ذلك بمقتضى النظام الإلهي للنواميس الكونية . ولا يدخل
في قدرته تعالى أن يتخذ ولداً ؛ لمنافاة ذلك لواجب الوحدانية .

فكل إنسان مقدور عليه في العلم الإلهي — لا تقدير إيجاب وقسر — أنه
سيفعل كذا بمقتضى القوة التي له ، ووجود السبب الفاعل فيه . ولكن طريقة
الفعل هي التي له اختيارها .

ومثاله : أن في اليد قوة الحركة ، وعضو اليد سبب فاعل لها . وهذا
من خلق الله تعالى . لكن هل تتحرك اليد للإحسان أو للأذى ؟ هذا متروك
اختياره للعبد نفسه . والله تعالى جعل العبد مريداً ، وجعل ناموساً كونياً
لحركات الأفلاك وغيرها من الكائنات الكونية ، فلا تلزم مشيئة إلهية خاصة
لكل إرادة من العبد .

يستبين من ذلك أن الوهم بأن الإنسان مجبور ومقصور ، خطأ وسوء
فهم . وأن الله تعالى قدر عليه الشقاء بإرادته تعالى ، خطأ كذلك وسوء فهم .
والقرآن حافل بالحض على العمل والسعي ، وإصلاح الناس لأموالهم دنياهم
وأخراهم فليأخذوا بأسباب ذلك فمن لم يأخذ بالأسباب فهو غير متخلق
بخلق الإسلام . وليس بمعقول أبداً — والإسلام دين العقل — أن يثيب الله العبد
أو يعاقبه على فعل قضاه عليه ولا اختيار له فيه !

فلهذا أنا مسلم

الباب الثالث

أنا مسلم لأن :

- ١ - الإسلام دين القوة والتسامح .
- ٢ - الإسلام دين الحرية والإخاء والمساواة الإنسانية .
- ٣ - الإسلام دين يتطور وفق مطالب الأمم والعصور .
- ٤ - الإسلام يلائم الغرائز البشرية .
- ٥ - الإسلام نسخ اليهودية والمسيحية .

الاسلام

دين القوة والتسامح

لا يجد الباحث في الديانات . ديناً يتسم بخصائص القوة ويتجمل بغاية التسامح غير دين الإسلام . والذين يدرسون أحكام القرآن ويفقهون تفصيلها ويقرأون السيرة المحمدية قراءة ترو ، يدركون هذين المعنيين اللذين أشير إليهما .

فحين تفخر المسيحية بأنها دين محبة وأنها تأمر من يضرب على خده الأيسر بأن يدير للضارب خده الأيمن ، يقول القرآن « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين » (١) فهذه الآية بشقيها مصداق صريح لما قررناه ، فشقيها الأول فيه القوة غاية القوة ، من أساء إليك فعامله بالإساءة .. الإساءة بالمثل .

قوة في عدل وانتصاف في غير بغى . . . وشقيها الثاني تحريض على التسامح والاستمسك به وعلى العفو والإصلاح ، وترغيب فيه بأن أجرد يتكفل به الله . وهذا أشد المרגبات تأثيراً في نفس المؤمن .

ولولا أن رائدنا في كتابنا أن تأتى بالأمثلة على ما نقول دون الذهاب في الاستقصاء إلى ما يطول على القارئ ، لجمعنا من آيات القرآن وسيرة النبي صحائف كثيرة في هذا الصدد .

الإسلام دين متسامح مع خصومه ، ومتسامح مع أهله . أما تسامحه مع خصومه ففي أنه لم يفرض نفسه عليهم بالسيف والحرب ولكنه خيرهم حين انتصر عليهم . بين أن يحمي أنفسهم وبلادهم بالمال (الجزية) وبين اعتناق تعاليمه . فتعجب حمايتهم بدون جزية .

(١) الشورى : ٤٠ .

ومن الخطأ أن يتوهم أحد أن الإسلام قد انتشر بالسيف ، فإن النبي عليه الصلاة والسلام بعث خالدأ رضى الله عنه فى سرية فنزل خالد بماء لجذيمة فدعاهم إلى الإسلام فتكلموا بكلام فهم منه عدم الانقياد فقتلهم ، فلما جاء الخبر إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، غضب وقال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد ، ثم أرسل علياً رضى الله عنه بمال أدى به ديات القتلى (ذكر هذه القصة المؤرخ الفرنسى سدينى فى كتابه : تاريخ العرب ص ٥٦) .

فن هذه القصة يتبين أن الإسلام لم ينتشر بالسيف ولا بالبطش فقد قلنا إنه كان يخيرهم بين الإسلام وبين الجزية ، ولم ينتشر بالسيف إلا المسيحية .

وفرض الجزية على الدول المغلوبة ليس بدءاً أتى به الإسلام ولكنه قانون حربى له مشروعيته . فلقد عرفتة الدول القديمة كمصر الفرعونية وبابل ونيوى والأشوريين والفرس . وقد كان أهل سهل فيليستيا يحملون إلى الفرعون الجزية قبل أربعة آلاف عام . وكانوا يدفعونها لقيصر الرومان فى عهد المسيح . وهذا سبب قول عيسى عليه السلام « يامراءون.. ادفعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » عندما سألوه أيدفعون الجزية لقيصر أم لا يدفعونها ؟ فقال: أرونى بم تدفعون . فأروه قطعة من العملة الذهبية على أحد وجهيها صورة القيصر وعلى الآخر اسمه .

كما أن هناك نوعاً آخر من الجزية يعرف باسم تكاليف الحرب . كالمتى مليار فرنك من الذهب التى فرضتها ألمانيا على فرنسا المهزومة فى عام ١٨٧١ أيام نابليون الثالث . ونوع آخر من الجزية يعرف باسم التعويضات ، كالتى فرضها الحلفاء المنتصرون فى الحرب الكبرى على ألمانيا المهزومة ووردت فى الملحق المالى لمعاهدة فرساي ، تعويضاً لفرنسا عما خسرتة فى الحرب من التكاليف . وكذلك عن تخريب بلادها حين اجتاحتها الجيوش الألمانية عند انتصارها .

ومع ذلك فالجزية في الإسلام كانت لها مشروعية أعظم من ذلك وأسمى فقد كانت تدفع للمسلمين في مقابل حمايتهم البلاد المفتوحة من غزو الأعداء ، فضلا عن أنها كانت مشروطة بشرط القدرة عليها بنص القرآن . قال الله تعالى : « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (١) ورأى المفسرين هو أن المعنى : حتى يعطوا الجزية عن قدرة على أدائها وسعة مالية تمكنهم منها .

والذى يؤكد أن الجزية كانت في مقابل حماية بلاد الدافعين لها ، كتاب بعث به خالد بن الوليد قائد جيوش المسلمين إلى صلوبا بن نسطونا (في الجزء الثاني عشر من صبح الأعشى) ونصه : « هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه . إني عاهدتكم على الجزية والمنعة ، فلك الذمة والمنعة وما منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا » — أى أن الجزية مقابل المنعة ، وهى منع أموالهم ودمائهم وبلادهم من أن تباح لأعدائهم . فإن منعناكم فلنا الجزية وإن شغلنا عن حمايتكم فلا جزية لنا عليكم .



كان أعداء المسلمين وأعداء محمد يجهزون الجيش تلو الجيش للقضاء على دعوته فكان يهزمهم ويأخذ بلادهم ، ومع ذلك كان يحميهم مقابل الجزية ! ! فإن أسلموا وجبت حمايتهم بغير جزية ولم يكن يفرض عليهم عقوبات تأديبية مع مشروعية هذا العقاب في قوانين الحرب .

والمتتبع لغزوات النبي يعرف أنها كانت دائما دفاعا لا هجوما . فقد كان صلى الله عليه وسلم يوصى السرايا بعدم البدء بالهجوم ، ودليلنا على ذلك أن الله يقول لنبيه : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » (٢) فهو ينهى عن قتال غير

(٢) البقرة : ١٩٠

(١) التوبة : ٢٩

المعتدين حتى ولو كانوا أعداء للمسلمين وليس هذا فقط بل إن القرآن يقول: « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » (١) فالتعاليم الإسلامية تندب إلى الإحسان إلى غير المسلمين من الذين لم يعتدوا عليهم ولم يقاتلوهم ليصدوهم عن دينهم ، وتندب إلى الإقسط وهو تأدية العدل والحقوق لهم .. وليس بمعقول أن يحيد الرسول عن قانون رسالته وهو القرآن وتعاليمه .

صحيح إن بعض الغزوات النبوية كانت ابتداء . ولكنها كانت على حالها من البدء ، اقتضاءً للسياسة العامة للدفاع . وهذا أمر مفهوم في الأنظمة الدفاعية الحربية فالمناوشات يبدأ بها فريق محارب يعلم أنه مهاجم من عدوه إذا بدأ وإذا لم يبدأ ، وتحتم عليه فنون الحرب أن يضمن النصر في البدء . أو يؤمل فيه . ففي البدء بالهجوم في مثل هذه الحالة تقوية لمعنوية الجيش البادئ وإضعاف لمعنوية العدو المتربص .

وكيف كان الأحرار الأبرار من الأوروبيين الذين اختصموا الإسلام وادعوا عليه أنه انتشر بالسيف . كيف كانوا يرجون أن يبقى محمد وأصحابه ودعوته هدفاً لعدوان قريش وحلفائهم ، يخرجونهم من ديارهم ويلجئونهم إلى الهجرة بعد الهجرة ، ويستبيحون كل محرم منهم ويضطهدونهم ويحاولون الاستبداد بعقائدهم ووجداناتهم ، وينقضون عهودهم . ثم لا يدفعون هذا ولا يثيرون عليه ، وهم أولو العزم وأولو القوة بإيمانهم وصدق اعتقادهم . وهذا الذي قلناه عن القتال للمشركين دفاعاً عن حرية الرأي وحرية الاعتقاد ، إنما كان بعد نزول الإذن القرآني للمسلمين في الآية الكريمة: « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » (٢) .

فهم أمروا بالقتال انتصافاً لدينهم ولحريةهم من ظالمهم المخرجهم من ديارهم . أفتررون هذا عدواناً ؟ ، أفترونه نشرأ للإسلام بالسيف؟ لو كان الإسلام قد انتشر بالسيف لما خير المسلمون أعداءهم بين الجزية والإسلام ولألزمهم به وأرغمهم عليه . ولما أطلق المسلمون أسراهم من المشركين تكرماً كما سبق ، إنما جاء إسلام هؤلاء بعد ذلك ، نتيجة لما شهدوا من عدل ولاة المسلمين وعدالة شرائعهم التي يحكمون بها بينهم ، وقد جرى الإسلام على منحهم حرية التقاضي فقد كان لهم في أحوالهم الشخصية أن يتقاضوا إلى رؤساء أديانهم ولهم غير ذلك . وإن الإسلام الذي يقول قرآنه « لا إكراه في الدين » (١) ويشترط لصحة الإسلام صدق الاختيار ، لا يرضى بأن يكره الناس على أن يعتنقوا تعاليمه وهم لها كارهون . ولقد كان محمد وأصحابه وخلفاؤه يقاتلون الوثنيين وفي مقاتلتهم لهم حماية لليهودية والمسيحية ، لأن خصومة أولئك لها ليست دون خصومتهم للإسلام . وأول ما يستشهد به على أن الحرب لم تكن عند الإسلام إلا ضرورة عارضة ، هو تشريع الإسلام الحربى وقد جاء فيه « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » (٢) ومن تشريعه الحربى تنديده بنقض العهد « أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ؟! » (٣) والإسلام الذى يحرص على حرية الرأى وحرية الاعتقاد حرصاً تاماً كاملاً يقول فيه قرآنه « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (٤) لا يمكن أن يجبر الغير على اعتناقه ، ولا أن يفرض تعاليمه على عقائدهم بدون اقتناعهم !

فمن هذا العرض المجمل يتبين للقارئ : أن الإسلام كان متسامحاً مع أعدائه غاية التسامح ، أما تسامحه مع أهله ففي الرخص الشرعية فى تجاوز

(٢) الأنفال : ٦١

(١) البقرة : ٢٥٦

(٤) الكهف : ٢٩

(٣) البقرة : ١٠٠

أحكامه . وحين استعراض مظاهر تسامحه ، نحتاج إلى عرض أصول الأحكام القرآنية فنستشهد في الدلالات الإجمالية لهذا القصد بقوله « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (١) . « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (٢) . « وما جعل عليكم في الدين من حرج » (٣) و « لا تغلوا في دينكم » (٤) قال صلى الله عليه وسلم « ألا إنما هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق » وقال « إياكم والغلو في الدين ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين » ويدخل في هذا النهى المبالغة في العبادات وإرهاق الناس أنفسهم بها ، وإرهاقهم غيرهم كذلك : والمغالاة في الآراء والمعتقدات .

فهذه الدلالة صريحة في أن الواجبات الشرعية التي يشق على المسلم أداؤها تسقط عنه إما إلى بديل عنها وإما سقوطاً مؤقتاً إلى أن يستطيع الأداء ، كالصوم يسقط عن المريض الميثوس من شفائه سقوطاً نهائياً ولكن ببدل هو الفدية التي تصرف في البر بالفقراء وإطعامهم . ويسقط سقوطاً مطلقاً ، عن الذي لا يملك فدية ، وإن أفطر بالكيفية الموجبة للفدية : فقد جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله.. أدركني فقد هلك ، واقعت امرأتى في رمضان وأنا صائم ، فعرض عليه الرسول عتق رقبة فأبدى عجزه ، فصيام شهرين متتابعين فاعتذر عنها ، فالتصدق على الفقراء بمددين من الشعير أو التمر ، فعجز عنها فأعطاه الرسول قيمة ما يتصدق به ، فقال الرجل : والله يا رسول الله ما بين لابتئها أفقر منا . فضحك النبي وقال : اذهب فتصدق به على أهل بيتك .

وليس سقوط الواجبات الشرعية هو مظهر تسامح الإسلام مع أهله وكفى ، ولكن المحرمات أيضاً تباح عند الضرورة بنص القرآن « إنما حرم

(٢) البقرة : ١٨٥

(٤) النساء : ١٧١

(١) البقرة : ٢٨٦

(٣) الحج : ٣٨

عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم «(١) .

مع أن تحريم هذه المحرمات إنما قصدت به حكمة سامية ولم يكن عقوبة كما كان التحريم في الديانة الموسوية عقوبة لبنى إسرائيل على تمردهم : فتحريم الميتة وشرب الدم وأكل لحم الخنزير أريد به المصلحة الصحية للمسلمين فقد ثبت حين تقدم الطب في العصور الحديثة أن هذه الأغذية الثلاث مفسدة لصحة البدن .

أما تحريم ما أهل به لغير الله فهو صالح اجتماعي واعتقادي يستلزم مخالفة المسلمين لأهل الوثنية في مظاهر عبادتهم .

فسهولة الإسلام ويسره ، أمر يدل عليه أنه كان الإعرابي يجيء إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم من البادية فيسلم ، فيعلمه النبي ما أوجب الله وما حرم في مجلس واحد . كما ذكر الغزالي .

وقد يقول بعض خصوم الإسلام عن سوء قصد أو غير سوء ، فبالأحكام قاسية متناهية في القسوة . ما بال الزاني يجرم أو يجلد ، وما بال السارق تقطع يده ، وشارب الخمر يجلد . ؟ وهم يجهلون كيف كانت هذه العقوبات توقع على المرتكبين للمآثم فليسمعوا مثالا من قضاء رسول الله ، وليسمعوا آراء المجتهدين بعد ذلك في كيفية الحدود : فقد جاء معاذ الصحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله .. لقد زنيت ، فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم فكررها ثلاثاً فقال له رسول الله : لعلك قبلت . قال : بل زنيت ، قال : لعلك فاخذت ، قال : بل زنيت ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : هل دخل فيها كما يدخل المروء في المكحلة ؟ . قال : نعم .. كما يدخل المروء في المكحلة . فأشار الرسول بيده وقال : خذوه فأقيموا عليه الحد ، ثم قال : ادروا الحدود بالشبهات . فهذا رجل يعترف .. من نفسه اعترافاً صريحاً بوازع وجدانه الإسلامي فيراجع

الرسول مرات ويهيب له الفرصة للفرار من الحد بالشبهة والتثبت من الجريمة وما اشترط من شهود عدول عليها . أربعة في حالة الزنا وشاهدان في غيرها كما هو في المعاملات مثلاً .

وإباحة رد الشهود باللعن الذي يسقط الحد ، كل ذلك معناه أنه يشترط في جريمة الزنا والسرقعة ونحوهما ، تلبس وثبوت قطعي بشهود لهم ضمير إسلامي ينههم عن الزور ويعلمون أنه إن ظهر كذبهم رجحوا حتى يموتوا فتحل بهم العقوبة التي تأمروا على إيقاع غيرهم فيها . ومع ذلك كله فقد رأى الشافعي أن حد الزاني يجوز بالجلد بالأكف (ذكره المرحوم الحضري بك في كتابه : تاريخ التشريع الإسلامي) .

شروط حد السرقة

وحد السرقة وهو قطع يد السارق يشترط فيه توافر الأركان الآتية : أن يكون السارق غير محتاج إلى ما سرق ، ثم أن يكون المسروق نصاباً (خمسة وعشرون درهماً فأكثر) وأن يكون أيضاً في حرز . . وأن ينقب السارق الخرز ويسرق ، فإن نقب ولم يسرق وسرق سواء فلا قطع . وإن سرق مائة درهم عن حاجة إليها فلا قطع . (تلخيص من تفسير القرطبي - المؤلف) .

تلك أحكام الإسلام وصرامتها ، أفترونها أسهل وأيسر من أحكام العصور الحديثة والقوانين الفرنسية والإنجليزية أم لا ؟ من كل ذلك الإجمال نخرج بنتيجة حتمية وعقلية هي أن « الإسلام دين القوة والتسامح » .

وأن كل ما يوجد في الإسلام من عسر أو عنت وإرهاق ، فإنما هو خطأ بعض الفقهاء في فهم آيات الأحكام أو تعسفهم في فهم السنة أو قصورهم عن الإحاطة بكل ما ورد في المسألة الواحدة ، وأخذنا من وجه من وجوهها وأولئك هم الذين غلوا في الدين ففرقهم التغالى وصرف أهل الأجيال الحديثة عن فهم سماحة الإسلام .

الاسلام

دين الحرية والاخاء والمساواة الانسانية

هذه الحضارة الأوروبية الداعية إلى المساواة وأكمل مبادئ الإنسانية لا تزال تبعث الفوارق الملية والمذهبية والقومية واللغوية والإقليمية . وتعتبرها في المكان الأول حين تضع التقسيمات السياسية والاجتماعية في المعاهدات الدولية .

وفوارق اللون في نظر الحضارة الأوروبية لا يمكن التسامح فيها حتى في أمريكا !

وإنجلترا التي تزعم أوروبا في الجانب الأخلاقي ، تعامل الهنود وتعامل العرب معاملة تتأثر في صميمها بفوارق اللون والجنس والدين .

والثورة الفرنسية التي قامت لتسويد الحرية والإخاء والمساواة ، لم تفلح في تحقيق غرضها لأنه كان مجازاً سياسياً لغاية سياسية دفعت إليها ظروف اقتصادية ولم تكن عقيدة وجدانية روحية تحمل في ذاتها وسائل تسويد نفسها ، فاتخذت هذه المساواة المنشودة مظاهر عديدة مكذوبة، يستيقنها ويستنبطها كل من قرأ تاريخ الثورة الفرنسية. فتتكشف له مبادئ الحرية والإخاء والمساواة ، عن أشنع أكذوبة خدعت شعباً عظيماً لزمان طويل فقدم لها ولدعاتها قرايين من القوت والمال والدم ! .

أما الإسلام فقد اتجهت شريعته إلى تحقيق الاخوة الإنسانية بين الأناسى وجمعهم على عادات واحدة واتجاهات روحية وعقلية واحدة ، ولغة واحدة وتلك هي دعائم بناء الاخوة الإنسانية في رأى علم الاجتماع قديماً وحديثاً ولا يمكن أن تتكون أمة تكوناً اجتماعياً صحيحاً من فئات مختلفة

الجنس واللغة والاتجاهات ، وإن أمكن أن تتكون الدولة من تلك الفئات - ومع ذلك فكل أمة لا تربط بين فئاتها الأواصر التي ذكرتها ربطاً وثيقاً لا تثبت على التاريخ بل تتفكك وكذلك الدولة .

تتجه الحضارات الحديثة إلى إقامة الامبراطوريات السياسية من مختلف الشعوب فتتلاقى في سبيل ربط أجزائها عناء شديداً ونفقة كثيرة ، وتبذل من دماء أبنائها أكثر ، ثم تنتهي بأن تتفكك .

أما الإسلام فكان اتجاؤه إلى امبراطورية دينية لأن الدين رابطة أوثق من كل رابطة ، هي رابطة تحرك دم الإنسان وتوجه عقله وتسيطر على تصرفاته ، والحروب الصليبية واجتماع المسيحية على محاربة الإسلام - على تباين لغات أهلها واختلاف دماهم وأقاليمهم ومطامعهم السياسية وغيرها شاهد بقوة العقيدة الدينية في الربط الاجتماعي وتوحيد الاتجاه .

والإسلام بخصائصه المعروفة ، أوثق من غيره من الديانات في صفة الربط الاجتماعي ، فبذلك نعلم أن اتجاه الإسلام إلى تحقيق الاخوة الإنسانية عن طريق ضم الناس جميعاً . إلى لوائه إنما كان الخطوة الواحدة لهذه الغاية العظمى ، الخطوة التي يؤيدها العلم الاجتماعي ولا يعترف لغيرها بالقوة عليها . ثم اتخذ الإسلام لتحقيق خطته الناجحة منهجاً منطقياً يؤدي الغاية تأدية سريعة ميسورة .

أولاً : صدق رسالات المرسلين قبله جميعاً ، إلى الأقوام جميعاً واعتبر التصديق بهم وبكتبهم شرطاً لإسلام المسلم لا يتحقق إيمانه بدونهم فلم يعمل لجلب عداة طائفة من الناس له ولتعاليمه ، بل تودد إليهم بهذا التصديق برسولهم والاعتراف بعقائدهم .

ولم يكن ذلك من الإسلام مخادعة ليضم الأقوام إلى صفوفه بل كان ذلك هو روح الرسالة المحمدية بدليل أن الإسلام آخى بين المسلمين والكتابيين الذين فتح الإسلام بلادهم ، وبيان ذلك في كتب التاريخ الإسلامي .

ثانياً : كما ترك هؤلاء بعد أن تسلط عليهم وتمكن من أرضهم ورقابهم وأموالهم ، حرية عقائدهم بل حماهم كما ذكرنا في فصل « الإسلام دين القوة والتسامح » من غزو الغير لهم وعدوانه عليهم .

ثالثاً : ساوت شريعة الإسلام بين جميع المسلمين في جميع الحقوق والالتزامات على اختلاف أنواعها ودعت الناس جميعاً إلى الاستمتاع بأكمل صور المساواة والاخوة بدخولهم في الإسلام فلا يمتاز منهم عربي على عجمي ولا قرشي على حبشي .

وقال القرآن في تنبيه الناس إلى أنهم سواء « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) ولم يقل يا أيها المسلمون . . بل عمم القاعدة بين الناس إذ ناداهم بيا أيها الناس وقرر لهم بهذه الآية أن قاعدة وحدة الأصل ، تستلزم قيام المساواة بين الفروع .

وندد القرآن بعمل فريق من الأمم على استضعاف فريق فقال « إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ، إنه كان من المفسدين » (٢) فالإخلال بالمساواة إفساد في الأرض في نظر القرآن كتاب محمد وقانون رسالته .

رابعاً : عمل الإسلام بمختلف وسائله العملية المثمرة على خلق التجانس بين أهله فبعد أن ربط بين قلوبهم بمعتقد واحد قوى التأثير على مشاعرهم كما يثبت لدى الباحث في تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده ، أضاف إلى هذا العامل الأكبر ، وحدة التعاليم والقوانين . ولا شك أن من قواعد علم الاجتماع أن أخلاق الأمم وقوانينها تتفاعل مع بعضها فيؤثر كل في كل .

فوحدة الشرائع وسيلة إلى وحدة العادات والأخلاق ، ودراسة المجتمع العربي تنبئ عن قوة تأثير التعاليم الإسلامية في أهله وتحويلها لهم عن

عاداتهم المردولة المشهورة في التاريخ . وعسدم تأثرها بتلك العادات والأخلاق .

دعا الإسلام إلى نفسه باللسان العربي ، وألزم المسلمين أن يعرفوا كتاب الله وسنة رسوله (فهي مفصلة ومفسرة للكتاب) ولا يتحقق كمال هذه المعرفة إلا بتعلم لغة الكتاب والسنة ، وقد أمكن لجماعة من الفرس والهنود والأحباش وغيرهم أن يتعلموا العربية بل صاروا من أئمة اللغة ذاتها ومن أئمة التفسير والفقه وأئمة رواية الحديث ، كالزمخشري والرازي والنيلسوف كرامة حسين الهندي وحجة الله الدهلوي والزيليغي وغيرهم .

وبهذه الوسيلة ، وسيلة توحيد اللسان تتأكد الرابطة بين أعضاء المجتمع الإنساني .

ومنح الإسلام الجنسية العربية لكل من تكلم العربية ولو من غير أهلها فقد روى الحافظ ابن عساكر ، قال : جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل (يعني أنهم نصرُوا النبي لأنهم قومه) فما بال هذا وهذا ؟ .. فقام إليه معاذ بن جبل (رضى الله عنه) فأخذ بتلابيبه ثم أتى النبي محمداً صلى الله عليه وسلم فأخبره بمقالته ، فقام النبي مغضباً يجر رداءه حتى أتى المسجد ثم نودى : الصلاة جامعة (فاجتمع الناس) وقال محمد صلى الله عليه وسلم :

« يا أيها الناس إن الرب واحد وإن الدين واحد . وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم (أى أنها ليست ميراثاً يتصرف العربي فيه) . وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي » .

وتلك التعاليم المحمدية تحقّق كما هو ظاهر أكل صورة للمساواة الإنسانية.

الاسلام

دين يتطور وفق مطالب الأمم والعصور

في أحكام القرآن (كتاب الإسلام) مرونة ومطاوعة تجعله ملائماً لاحتياجات كل زمان، وموافقاً لأهل كل، جيل فهو لا يجمد ولا ينعقد مرتبطاً بظروف أناس معينين . ولا بحاجات إقليم معين ولا بطبيعة شعب معين ، ولكنه مسائرة للتطور في الغرائز ، وفي الرق العقلي ، وفي البيئة الاجتماعية ، وفي الحالة الاقتصادية ، وغيرها من الظروف والملابسات الخاصة والعامة.

فالإسلام يسمو على الجمود بل قد جاء لمحاربتة . واستعمال العقل في فهم الأحكام شرط لصدق الإسلام . فتطور العقل يتكفل بتطور التطبيق للشرائع الإسلامية .

أما جود الشرائع فلا يتغير وإن لان وطاوع على تغيير الانطباق . وجمود المسلمين وتقليدهم لآراء الفقهاء دون تطور ولا تحوّل عنها برغم تحوّل الزمن وتطور العقول ، لا يحسب على الإسلام .

هذا الجمود الذي صرف أهل الدين عن دراسة أصول الإسلام والنظر المستقل في القرآن وشغلهم بجدليات سخيفة هي من صنع من سبقوهم ، ومصطلحات معقدة (كالطفرة والتولد والعرض والجوهر والكيفية والأبنية) تنافي بساطة الإسلام وسهولته ووضوح مقاصده وجمال توجيهاته.

هذا الجمود سبب تأخر المسلمين ولو انصرفوا إلى التعرف إلى حقائق دينهم واستخلاصها من كتابهم . وتعريف العامة بها وإرشادهم ، لكفلت لهم تعاليم الإسلام المجيد والنصر ، وأبنت في ظلها حضارتهم .

من العجيب أن يظل المسلمون قرونًا طويلة يقلدون مذهب الشافعي أو أبي حنيفة مع أن أحد هذين الإمامين لو بعث من قبره في هذه العصور لغير بعض آرائه . ولتبينت له وجوه أخرى في الأحكام فقد يختلف العصر والبيئة اختلافاً يوجب تغيير الأحكام والعدول عن بعض الآراء وما وقع للإمام الشافعي (رضي الله عنه) من العدول عن المذهب القديم إلى المذهب الجديد يليق ضوئاً على هذه الحقيقة . ويؤخذ منه الدليل على جواز الاجتهاد إذا توفرت في الشخص مؤهلاته وهي ليست بالأمر العسير .

وفي البواقيت والجواهر أنه روى عن أبي حنيفة (رضي الله عنه) أنه قال : لا ينبغي لمن لم يعرف دليلاً أن يفتي بكلامي . وكان إذا أفتى يقول : هذا رأى النعمان بن ثابت - يعني نفسه - وهو أحسن ما قدرنا عليه . فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب . وكان الإمام مالك (رضي الله عنه) يقول : ما من أحد إلا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال الشافعي يوماً للمزني : يا إبراهيم .. لا تقلدني في كل ما أقول وانظر في ذلك لنفسك فإنه دين . وكان رضي الله عنه يقول : لاحجة في قول أحد دون رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كثر . وكان الإمام أحمد ابن حنبل يقول : ليس لأحد مع الله ورسوله كلام . وقال هو نفسه يوماً لرجل : لا تقلدني ولا تقلد مالكاً ولا الأوزاعي ولا النخعي ولا غيرهم . وخذ الأحكام من حيث أخذوا ، من الكتاب والسنة .

فهؤلاء الأئمة أصحاب المذاهب ، وهذه أقوالهم في النهي عن الجمود على آرائهم والتمسك بها وتقليدهم .

وقد جاء رجل إلى سعيد بن المسيب وهو من أعظم فقهاء المسلمين ومن رجال الصدر الأول للإسلام (توفي سنة ٩١ هـ) فسأل الرجل سعيداً عن مسألة فالتفت إليه بجوابها فكتبه الرجل ، فأخذ سعيد منه ما كتب وأحرقه . وقيل

لجابر بن زيد الفقيه ومن رجال الصدر الأول (مات سنة ٩٣ هـ) : إن الناس يكتبون ما يسمعون منك ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون .. يكتبون رأياً قد أرجع عنه غداً .

فهذه الروايات التاريخية عن أعظم فقهاء المسلمين ، وهذا النظر العقلي في مسألة التقليد يحرم على المسلم الجمود على القديم واتباع آراء الفقهاء وتعطيل عقله عن النظر والاستنباط من آيات القوآن .

فالقول بعدم صلاحية تعاليم الإسلام للعصور الحديثة خطأ وإنما الذي لا يصلح هي آراء الرجال المفسرين والمشرعين . كانت تصلح لأزمئتهم ولكن تغير الأزمنة حوّل صلاحيتها إلى عدم الصلاحية .

إن جميع الكتب السماوية لا يجوز أن تبقى على الفهم المحدود بعد أن اتسعت آفاق الطاقة العقلية للبشر في هذه العصور ... فإنه لم يثبت - ولا يجوز أن يحدث هذا - أن المجتمع الإسلامي قد عقم عن عقول تأخذ من كتاب الله وهدى رسوله ما يوافق حاجات العصر الذي يعيشون فيه ، أخذاً مباشراً لا يتوسط فيه مالك ولا ابن حنبل رحمهما الله تعالى .

وإن اختلاف الأئمة الأربعة في أصول الأحكام ، معناه أن عقل كل منهم وهم متعاصرون ، يختلف عن عقل الآخر في النمو والاتجاه والقدرة على الفهم ، فكيف نقلدهم ونثبت على آرائهم مع أنه قد يكون في المسلمين اليوم من العلماء الذين قرأوا مكتشفات العلم الحديث ، من يفتح الله عليه بسبب ما علم وما قرأ ، بآراء جديدة ، أليق بعظمة الإسلام وأحسن من آراء من سبق !!؟

ولو وسع المقلدون على أنفسهم ولم يحصروا الإسلام بين الأئمة الأربعة لكانت نكبة الجمود أخف أثراً في حياة المسلمين وأقل إعاقة لازدهاره ، فمن أئمة المجتهدين الذين لا ينقل عنهم أحد سعيد بن المسيب ، وسليمان ابن يسار وأبوسلمة بن عبد الرحمن وعروة بن الزبير وعطاء ومجاهد وعكرمة وطاوس وابن جرير ويحيى بن كثير وسالم بن خالد وعلقمة وعبيدة وشريح ومسروق والشعبي وإبراهيم النخعي وابن المبارك وجابر بن زيد وإياس

ابن معاوية وسوار القاضي والأوزاعي وزيد بن جابر وكثيرون جداً غيرهم يساوونهم في الفضل .

والدليل على أن الإسلام دين يتطور مع احتياجات الزمن وظروف الأحوال ما ورد في صحيح الآثار من أن عمرأ (رضى الله عنه) أمر بأن لا يحد السارق في الحاجة فهذا أصل من أصول التشريع في الإسلام ألغى بتأناً إلغاء مؤقتاً لظروف استدعت هذا .

ومن أسباب جمود مشايخ المسلمين ووقوفهم بشرائع الإسلام أنهم يعيشون في دنيا خاصة بهم من الكتب والجدل ولو عاشوا في دنيا الناس لاساروا بدينهم مسابقة للمجتمع وموافقة لروح هذا الدين ومطابقة لحاجات العصر . ولأراحوا الناس من التعصبات المتعادية المبغضة التي تقسم المسلمين فرقاً . فإن من الناس في هذا الزمان من يرفض الصلاة خلف إمام على غير مذهبه الفقهي . وهؤلاء لا يعرفون أن الصحابة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منهم من يقنت في الفجر ومن لا يقنت ، ومن يتوضأ من الحجامة والقيء ومن لا يتوضأ منها ، ومن يتوضأ من لمس النساء بشهوة ومن لا يتوضأ . ومع هذا فكان بعضهم يصلي خلف بعض مثلما صلى أبو حنيفة والشافعي وأصحابهما خلف أئمة المدينة من المالكية .

وكان الإمام أحمد يرى وجوب الوضوء من الرعاف والحجامة ومالك يرى الوضوء منهما غير واجب ، فقبل للإمام أحمد : إن كان الإمام (يقصدون بهذا اللفظ عند إطلاقه الإمام مالكاً) قد خرج منه الدم ولم يتوضأ ، هل تصلي خلفه ؟ فقال : كيف لا أصلي خلف الإمام مالك ؟ مع مخالفته له في الرأي الفقهي واعتبار ابن حنبل أن الصلاة بلا تجديد الوضوء في تلك الحالة صلاة باطلة ، ولكنه يصلي واثقاً من صحة استدلال الإمام مالك ومن صحة صلاته !!

فهل يفهم المتعصبون من المتعادين والمتماذهبين والمشييعين ، أن جوهرهم يصم الإسلام . وأن الإسلام دين يتطور وتساير أحكامه كل حالات الزمن وحاجات الأمم ؟

الاسلام

يلائم الغرائز البشرية

الذين يظنون أن الإسلام يصدم الفطرة البشرية فتكثر فيه الأوامر والنواهي . تقيد الفطرة وتمنع انطلاقها على ما جبلت عليه ، يخطئون لأنهم لا يعرفون !

إن أوامر الإسلام ونواهيها إنما تتجه إلى تهذيب الفطرة لا إلى مصادمتها ، وتهذيبها يؤدي إلى كمالها وإسعادها .

فمعنى الإنسانية الراسب في الفطرة البشرية . هو سمو على عوالم المخلوقات الأخرى في الأقوال والأفعال ، وهذا السمو موجود في فطرة الناس جميعاً وجوداً كامناً ، فلا يظهر من تلقاء ذاته ، ولكن مؤثرات خاصة إما أن تخرجه إلى الوجود وإما أن تكتمه في الأعماق .

فالإسلام وضع التعاليم والشرائع الكفيلة بإبراز هذا المعنى في أبهى صورته ، وأبهر مراتبه . ولأول وهلة يرى المتأمل للآيات القرآنية التالية ، أن الإسلام يساير الفطرة ولا يصدمها .

« خذوا زينتكم عند كل مسجد » (١) « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » (٢) .

« وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان مثشاباً وغير مثشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده » (٣) « وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً » (٤) « فإذا

(٢) الأعراف : ٣٢

(٤) المائدة : ٨٨

(١) الأعراف : ٣١

(٣) الأنعام : ١٤١

وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر» (١) «يسألونك ماذا أحل لهم ، قل أحل لكم الطيبات» (٢) .

« وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها » (٣) .

وغير ذلك مما يؤيد أن الإسلام أباح الزينة للمسلمين . وهى إحدى مطالب الفطرة . وأباح لهم لذات الأكل والشرب والحلى بل ندب للاستمتاع بهذه اللذات وحث عليها .

والإسلام حين ينبه أهله إلى ملاذ الأكل والشرب والزينة يخشى عليهم طبيعة الفطرة البشرية وهى الأنانية والاستثثار ويحذرهم منهم لأنها لا تبني المجتمع ولا تقيم التعاطف والود فيقول لهم « وأطعموا البائس الفقير » (٤) ويقول لهم : « وآتوا حقه يوم حصاده » (٥) أى ادفعوا زكاته للفقراء (وهى زكاة الزروع المفروضة) فهذا تهذيب للغرائز الحيوانية وترقية للغرائز الإنسانية . فإن البشرى مركب من طبيعة الحيوان وطبيعة الملائكة . وإقامة التعادل بينهما ، تكفل له إنسانيته ، وكلما سميت طبيعته الثانية على الأولى . كلما قرب من المثال المنشود وهو الإنسان الراقى . ال (سوبرمان) الذى يحاول فلاسفة العصور الحديثة أن يبتكروا الوسائل لإيجاده . بينما شريعة الإسلام قد تكفلت بأن تصنع من هذا السوبرمان ، ملايين عديدة بأقل جهد.

أما النواهي الإسلامية عن أطعمة وأشربة معينة . ولذات تماثلها كالقمار والمراهنة وسواهما . فإن أقل تدبر فى مراميها ، يشهد للإسلام بالعظمة والسمو والحكمة ، وينطق بأنه دين الله الذى يدبر مصالح مخلوقاته وهم لها جاهلون .

(٣) فاطر : ١٢

(٢) المائدة : ٤

(١) الحج : ٣٦

(٥) الأنعام : ١٤١

(٤) الحج : ٢٨

فقد حرم الإسلام على المسلمين أن يأكلوا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله . وأمرهم النبي بأن يغسلوا الإناء الذي شرب منه الكلب سبع مرات لإحداهن بالتراب .

وهذه التعاليم هي غاية التدبير للصحة الإنسانية ، وتدبير صحة الناس من مقاصد الإسلام ، فإن الطب في عصر رسالة محمد لم يكن يعرف أن لسان الكلب يحمل ميكروب ديدان كثيرة منها (تينيا ايكينوكوكس) وأن هذا الميكروب لا يقتله إلا الكافور . وأن التراب يحتوى ضمن عناصره مادة الكافور !!

ولم يكن الطب يعرف أن أكل لحم الخنزير عرضة لأن يصاب بالدودة الوحيدة (تينيا سوليم) ولكن الله كان يعرف كل هذا وسواه . والميتة تتوالد فيها لفسادها ميكروبات أمراض متعددة تنتقل إلى آكلها ، وما أهل به لغير الله ، فيه إرجاس للعقائد ، فإن قرايين الأصنام ليست مشروعة النحر ، وطريقة ذبحها موجبة لفساد لحومها ودمائها . فالأكل منها يعرض صحة الآكلين للتلف والأمراض ، ونظن المعنى الأدبي الآخر المقصود من التحريم منكشف لأصحاب المشاعر الحساسة ، فلو أن الناس رفضوا تعاليم الإسلام والأديان ، منتظرين حتى يتعلموها بحواسهم ، ويدركوا مقاصدها بعقولهم ، هلك النوع الإنساني هلاك الأجساد ، وهلك هلاك العقول ، وانحط إلى أدنى المراتب ! وليس الدين مضطراً إلى أن يشرح للمرسل إليهم كل جزئية من أوامره ونواهيه والحكمة منها ، لأن عقولهم ليست – حين التبليغ – مستعدة لادراكها ، كما يظهر من الأمثلة التي قدمناها .

ولما كانت الغريزة الجنسية هي أقوى اللذائذ الحيوانية في النفس حتى اعتبرها (فرويد) سيد علم النفس الحديث ، الباعث والدافع لكل تصرفات الإنسان ، فنريد أن نرى موقف الإسلام منها .

الغريزة الجنسية تنطلق بالإنسان (رجل أو امرأة) نحو الوطء والمباشرة بدون نظر إلى أى اعتبار ، فلو تركنا الناس في هذا وشأنهم لتواقفوا في

الشارع ولواقع الرجل أمه أو أخته لأن الغريزة الجنسية المتدفعة ، لا تبالي إلا بنفسها وبتحقيق وظيفتها العضوية .

ولكن هناك أشياء يجب أن يبالي بها ويلاحظ شأنها . هناك غريزة الحياء وغريزة حفظ النوع وغريزة التملك والاستثمار ، هذه لا يجوز أن تغطي عليها الغريزة الجنسية فتميتها أو تضعفها ، فلذلك نظم الإسلام اتجاه الغريزة الجنسية تنظيماً يحقق لغيرها من الغرائز عملها .

فأباح الوطء والمباشرة ، مسامرة وموامة للغريزة ، ولكنه حرم وطء الرجل امرأة لا تربطه بها صلة الزوجية ليساير الإسلام غريزة حفظ النوع . وغريزة الاستثمار ، التي تطلب امرأة خاصة غير مباحة للآخرين ، وحرم تزوج نساء أخوات ليرضى غريزة الحياء . ويصون المجتمع من اختلاط الأنساب ويحمي غريزة الأمومة ، وعاطفة الأخوة ، وما في حكمها من حيث الوضع الوجداني أو الوضع الاجتماعي .

حرم الإسلام على الرجل أن يتزوج زوجة أبيه ، أو أمه أو أخته أو عماته أو خالاته أو بنات أخته أو بنات أخيه أو المرأة التي أرضعته أو أن يجمع بين زوجتين أختين (ليرضى غريزة الحياء في المرأة الأخت فإن حيائها حيال أختها أشد كثيراً منه حيال غيرها) .

وليس التشريع الإسلامي - في أي جانب من جوانبه - متناولاً بشريعته وتعاليمه مقصداً واحداً : ولكنه يحقق بالحكم الواحد مقاصد كثيرة .

فإن التنظيم للغريزة الجنسية لوحظ فيه (فضلاً عن المحافظة على الغرائز البشرية الأخرى) اعتبارات طبية ، هي التي بعثت على التحريم أو الإباحة ، وهذه الاعتبارات التي تصون الصحة هي من أصول الدين الصحيح .

ومن الاعتبارات الطبية الملحوظة في تشريع الزواج ، أن ينشأ النسل قوياً وهذا لا يتوافر في زواج الأقرباء ، لأن وحدة نوع الدم وحالة الحياء الناشئ عن العشرة ، الأول لا يسمح في الدم الضعيف بإمداده بدم قوى غريب عنه ، والثاني يمنع حال المضاجعة من التلذذ الجنسي الكامل الذي يلزم معه حتماً ضعف النسل كما يقرر الطب الحديث .

ومن أسباب التحريم لزواج من حرم الإسلام زواجهن - فضلا عن الأسباب المتقدمة - سبب الاضطراب الاجتماعى باختلاط الأنساب فيصبح الولد ابناً وزوجاً وأخاً وأباً وهكذا . وذلك ولا شك ضد الفطرة .

ومن مسايرة الإسلام وتعاليمه للغرائز البشرية ، أنه يوصى الأبناء بأبائهم وأمهاتهم ، ويترك الأبوين لا يوصيهما . لأن غريزة الأمومة والأبوة لا تحتاج إحداهما إلى مزيد من التوصية بالأبناء .

وساير الإسلام في منهاجه التعليمى ، فطرة الناس . فتدرج بهم من المعلوم إلى المجهول ، ولم يفرض عليهم العقائد الغيبية . بل اتبع مقتضى فطرتهم .

ومن أمثلته قول القرآن « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » (١) فذكر لهم في التدليل على ما يجهلون من وجوده وصفاته . ما يعرفون من آثاره . وهو أنه يميتهم ويحييهم ويكرر ذلك . فهذا المعلوم من آثاره يوصل إلى تصديقه في ما أخبر عنه من غيب ، وكذلك سائر آيات القرآن الوعظية والتعليمية تنحو هذا النسق .

والفطرة البشرية تطلب بغريزتها ، الأمان والعدل والسلام . والإسلام يمكن لهذه المطالب ويحث عليها ويحميها . فليست في الإسلام عقوبة تنكيل أبداً ، إلا عقوبة المفسدين في الأرض أى العابثين بالأمن من قطاع الطرق والقتلة المتربصين ونحوهم وهذه العقوبة تقضى بأن تقطع الأيدي والأرجل من خلاف أو بالصلب . وقد أريد بهذه الطريقة التنكيل والردع حتى يتحقق للناس ما تنشده الغريزة من الأمان والسلام والعدالة .

من هذا الصدد قوله : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » (٢) والمفسرون متفقون على أن المعنى أن الله لا يهلك

البلدان حتى المشركة ، ما دام أهلها قائمين بالإصلاح ناشرين العدل والأمن والسلام ، وقالوا في قول القرآن : « أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » (١) أنهم المصلحون ولو من غير المسلمين لأنهم يكونون إذن على أخلاق الإسلام.

فمن كل هذا ترى أن القرآن يلائم الغرائز البشرية ولا يفرض عليها تعاليمه مع مضادة بينهما . وإنما يتجه بها بوسائله الموفقة إلى الكمال ويرشدها إلى خيرها ، ليس مجرد إرشاد وعظي ، ولكن إرشاد يمكن لغاياته في أصل الفطرة . فهو يمشى بالعتل الفطرى - والفطرة عاقلة يرسب العقل في مطاويها وإن لم يظهر إلا بالتنمية والتهديب - إلى استكمال قواه ، ويرشده إلى استعمال هذه القوى ، ويرقى به بتشريعه وقصصه وتهديده ووعدته من المحسوس إلى المعقول ، ثم من المعقول إلى المتخيل ، فيوسع للعقل آفاقه ويناقش بالبرهان ، ولا يلزم بالقهر .

فللناس عبادات فطرية - كما هو ثابت من تاريخ الاجتماع البشرى - واعتقادات فطرية هداهم إليها عقلهم الفطرى . اتجه بها الإسلام إلى المعقول والواجب . ولم يتأثر الإسلام بها كما تأثرت بها المسيحية واليهودية فنهاهم عن عبادة الكواكب والنار والحيوانات . وبين لهم أن رقى فطرتهم وعلمهم الذاتي عن هذه المعبودات ، يقتضى أن لا تكون آلهة لهم .

وهذا هو معنى قولنا إن الفطرة البشرية عاقلة ولكنها تحتاج التوجيه والإرشاد .

فالوجدان والشعور الإنسانى يحس وجود الله . ولكنه إذا لم يرق بالتهديب والتوجيه وتكميل قواه ، يتخبط في فهم الحقيقة الإلهية ، ويقف جامداً عند غرائز الفطرة وعقلها الناقص فيرى النار إلهاً لأنها تحرقه ويحسم الإله في صورة حيوان يرهبه .

ويؤيد قولنا إن الفطرة عاقلة وإن من مظاهر عقلها التدين قول الفيلسوف
الفرنسي الأشهر « أوجيت سباتيه » في كتابه (فلسفة الأديان) :

« أنا متدين لأنني لا أستطيع خلاف ذلك ، فإن التدين لازم معنوي من
لوازم ذاتي ، وإن الفكر الفلسفي وتجارب الحياة المؤلمة . تجعلني متمسكاً
دائماً بالتدين » .

فالتدين لا يمكن أن ينفك عن الفطرة وغرائزها . وكل محاولات الإلحاد
إنما هي مقاومة للفطرة الراسبة في كيان الملحد ولن تنتهي بانتصاره ، وإن
ظن أن أوهام عقله وأخطاء إدراكه ، هازمة للنظرة .

بهذا يثبت أن الإسلام تسام بفطرة التدين الغريزية ، وأنه مسير للغرائز
الإنسانية وفيه تكميل لها وتهذيب .

الاسلام

نسخ اليهودية والمسيحية

قلنا في فصل آخر إن التدين غريزة في الفطرة البشرية ، وأنه أيضاً لازم اجتماعي لا ينفك عن طبائع الجماعات . وإذن فلا بد لكل من دين .
وقلنا أيضاً : إن اليهودية والمسيحية المنزلتين على موسى وعيسى عليهما السلام . ديانتان سماويتان .

وأثبتنا في فصل «التوراة والإنجيل مفقودان» ضياع أصول الديانتين .
فهل إذا اهتدى الناس إلى أصول إحدى هاتين الديانتين ، يغنيهم اتباعها عن التدين بالاسلام ؟

الجواب المستمد من العلم والعقل هو أن الإسلام نسخ أصل الديانتين وأنه لا يقبل عند الله ، من أى متدين ، دين سواه .

إن طبيعة البشر هي الرقي الفكري ، والديانات تتبع هذا الترقى مرحلة فمرحلة وتؤثر فيه . وتعد الناس للتطورات المتعاقبة في مدارج الرقي .

فليس من المقبول أن تكون أمة في حال من البدائية وسذاجة الفطرة ، ثم ينزل عليها دين فيه أصول الحضارة وفي شرائعه كل غايات الكمال إذ أن عقولهم لن تتسع لإدراكه ، واتجاهاتهم لن تتسق مع تعاليمه . عجزاً عن احتمال أديباته وشرائعه .

وهكذا مشت الديانات مساوية لمستوى الفكر الإنساني وتطوره ، وحالات الطبيعة البشرية ، وما كان لها عقلاً أن تمشي على غير هذا .

وقد نبأ الله آدم أبا البشر ، فإن إله الناس لا يجوز عليه أن يترك الناس بدون شريعة ، وقد اقتضى إعدادهم الطبيعي أن تكون لهم علاقات وصلات

متعددة ، واقتضت إرادته تعالى أن يحاسبهم ويثيبهم أو يعاقبهم . ثم تعاقب الأنبياء بعد آدم حتى لا نعرف أسوأ أكثرهم ولا أزمنتهم ، لأن علم التاريخ لم يتناول عصورهم بالتسجيل . ولكن قدماء المصريين كانت لهم ديانة ، والصينيون والهنود تنبأ فيهم كونفوشيوس وبوذا وبراهما فبعث الله في كل أمة نبياً ملهماً ، بشرائع تتفق أصول العقائد فيها جميعاً ، وتختلف أحكامها باختلاف حاجات الأقوام وحالاتهم . وبعث فيمن بعث من النبيين موسى وعيسى .

وهذه الرسائل كان مقصودها - فيما نراه - أن تهيب استعدادات الناس بالوسائل المناسبة لهم حتى تتقارب اتجاهاتهم الروحية والعقلية تمهيداً لشرعية عامة باقية تسوى بينهم ، كما سوى بينهم اتحاد أصلهم ، وتوافق الارتقاء الاجتماعي (الذي هو من سنن الطبيعة) فإنهم - كما شاهدنا - لم يبقوا على حال التفرق الأول بل اندمجت أمم في أخرى وتقاربت بهم وسائل المدنية ، فما أحوجهم إذن لشرعية واحدة ، تجعلهم أمة واحدة .

ووفق هذه القاعدة مشى تشريع الديانات وتعاليمها ، فأمة بني إسرائيل المتجبرون العصاة لأنبيائهم ، فرضت عليهم شريعتهم الحرمان من كثير من اللذائذ البدنية ، وترويضاً لنفوسهم وتهذيباً للملكات الحيوانية في كياناتهم .

فلما أدى موسى عليه السلام رسالته . بعث الله عيسى ليجدد شرعية موسى ، فكان إنجيله إحياء للتوراة ومسايرة لارتقاء الناس ودواء لحالة المجتمع في عصره .

والشريعتان كانتا شرائع لزمان معين . لأنهما لم تتناولوا كل شيء من مرافق الجماعة وحياة الأفراد ، وقد أحس الفلاسفة هذا بعد انقضاء زمن على شرعية موسى (طبق ما ذكرناه في فصل : رسالة النبي محمد تحمل في أطوارها عوامل النجاح) فكانوا ينتظرون نبياً علقوا على بعثته آمالهم في الخلاص من حالة عصرهم .

أما شرعية النبي محمد فشرعية عامة جاءت للناس جميعاً توحدتهم وتربط بينهم برباط العقيدة والتعاليم . وخالدة ، فإن القرآن نزل على الرسول صلى

الله عليه وسلم مقسماً في زمن مدته ثلاث وعشرون سنة ونزل بعضه أو أكثره لمناسبات تشريعية ونحوها . فحياة الأمة العربية في ثلاث وعشرين سنة بعد الاسلام الذي أنهضها وارتقى بها ، تعتبر أنموذجاً لحياة الأمم . وما يعترضها من المسائل والأنظمة والشئون والأحكام يعتبر صورة مجملة على الأقل لما ينتاب غيرها من الأمم . فلهذا صلح الإسلام نظاماً لكل مجتمع . ودستوراً لكل أمة . وليست صلاحيته راجعة إلى هذا السبب وحده ، ولكنه سبب رئيسي ، يزداد عليه أن الإسلام يقيم شريعته وأحكامه على أساس العرف القائم بين الناس ويعتبره قانوناً يعترف به في قوله (خذ العفو وأمر بالمعروف) والعرف (١) أى المتعارف عليه إنما هو قانون الفطرة المنفعل عن أطوارها المختلفة والمتطور تبعاً لتطورها . وقد ضمن الإسلام بتعاليمه وأحكامه الفطرة وصحبها في قالب يرضيه . فارتضى آثارها وانفعالاتها حكماً بين الناس وارتضاها جزءاً من شريعته ، وبهذا يقوم البرهان على أن سنة الارتقاء ومسيرة الأديان لتطور الأمم ، تقف عند شريعة القرآن . لأنه شامل سائر مرافق الحياة ومتكفل بإقامة الأنظمة المناسبة لكل جيل وكل أمة .

ومن مميزات القرآن كما يفهمه القارىء من فصل (نظرات في القرآن) أن فيه آيات محكمات وهى أصول العقائد ، وآيات أخرى فيها وجوه للتناظرين ، ودلالات مختلفة تلائم كل عقل . فاختلاف الأئمة الأربعة في كثير من أحكام الشريعة ، مصدره هذا ، وكل منهم مصيب صحيح النظر ، ونظرنا في القرآن التي خرجنا منها بتحريم الإسلام للرق صحيحة ، ونظرة للذين قالوا بإباحته صحيحة .

فيا لسمو هذه الأحكام ، ويا لروعة هذا القانون ، الذى يستمد قوته الباهرة ، وتفرد به هذه الخاصية ، من ألوهته ولا شك ، والذى لا تجمد نصوصه على معنى وما في كلام البشر كافة كلام فصيح يحتمل المعاني المتعددة ولكنه كلام الله ! .

(١) صواب الآية : « خذ العفو وأمر بالعرف » (الأعراف : ١٩٩) .

جاءت شريعة النبي محمد لتحقيق غايات الإنسانية الحميدة فأنكرت ألوهة عيسى وكان من مقاصد الإسلام رد الديانتين إلى أصلهما . ولولا شريعة النبي محمد لمحدد كل عقل ديانة عيسى وأنكر نبوته ، لأن العقل ينشد في شريعة تنجيء بعد شريعة موسى ؛ أن تكون أكمل منها ، فكيف تدعو شريعة موسى إلى التوحيد ، وتدعو شريعة أرقى منها إلى الأقانيم الثلاثة والنبوة !؟ .

ومن المسيحيين طائفة تنكر خرافة ألوهة عيسى هم الأريسيون ، يعتقدون أنه بشر رسول ، لا يزيد على ذلك شيئاً وهم مضطهدون من الكنيسة . . . ومنهم طائفة اليعقوبيين (الأقباط الأرثوذكس) يرون أن اللاهوت اتحد بالناسوت عند التكوين ، ولكنهما صاراً ناسوتاً فقط بعد الولادة ويسمى رأيهم (بالقول بالطبيعة الواحدة) وهؤلاء أيضاً مضطهدون من الكنيسة البابوية مع فساد فكرتهم وإن تكن أقل مغالاة من فكرة غيرهم فإن الأصول العلمية تقرر أن اتحاد شيء مع غيره واستحالتها شيئاً واحداً لا بد فيه من انقلاب حقيقة الشئ إلى حقيقة ثالثة . ومثاله اتحاد الأوكسجين والإيدروجين فإنه يكون الماء . والماء شيء غير هذين العنصرين المكونين له . فكيف يتحد الله مع الجسد فيصير جسداً ، مخافاً في هذه الاستحالة قواعد العلم الطبيعي !؟

وقد ذكرنا في فصل آخر بعض ما قيل إنه مصدر الدعوى بألوهة عيسى عليه السلام ونذكر هنا أن طوائف المسيحيين يستدلون على ألوهته بإحيائه الموتى وهذا الاستدلال خطأ ، ويستدلون بأنه ولد من غير أب . وهذا أيضاً خطأ .

فإن آدم ولد من غير أب ومن غير أم . ولم يكن هذا مبرراً لأن تنسب إليه الألوهة ، وإبراهيم عليه السلام أحياناً أربعة من الطير . وموسى أحياناً بقرة بنى إسرائيل والسبعين الذين اختارهم من قومه لما هلكوا من الصاعقة ، وأرميا أحياناً حماره . وحزقيل أحياناً ثلاثين ألف إنسان بعد موتهم بستين سنة (على ما تذكره التوراة) وخلق عيسى للطير ليس أعظم من طيران بساط سليمان . ولا ضرب موسى البحر بعصاه وفرقه .

والنبي اليسع أبرأ الأكمة والأبرص . ولم يستلزم ذلك نسبة الألوهة إلى أحدهم .

وليس غلو المسيحيين في تعظيم عيسى عليه السلام أمراً غير مألوف فإن طائفة كبيرة من المسلمين غلت في تعظيم الإمام على حتى زعموا له ما يقرب من الألوهة وسجد له أحدهم فقتله . وقالت فئة أخرى إنه رضى الله عنه كان المقصود بالوحي والنبوة ، فأخطأ جبريل عليه السلام ونزل بالوحي على النبي محمد .

وإن عمر بن الخطاب وهو من أعظم الصحابة تديناً وتوحيداً خرج على الناس فخطبهم يوم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهددهم بأن يضرب عنق من يزعم أن محمداً قدماء ، تنزيهاً منه للنبي عن الموت ، لولا أن خرج أبو بكر فقال : أيها الناس.. من كان يعبد محمداً فإن محمداً قدماء ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . وذكرهم بقول القرآن : « إنك ميت وإنهم ميتون » (١) فثاب عمر إلى الرشد .

فهذا وسواه يعطى أن غلو الناس في تعظيم أنبيائهم وزعمائهم ، أمر مألوف متكرر في التاريخ . فتلك « جان دارك » القروية الساذجة قال عنها الفرنسيون أهل الحضارة إنها قديسة ملهمة من السماء .

نحن نؤمن بالتوراة والانجيل

ونؤمن بأنهما منسوخان

فنحن نؤمن بأنه كان هناك كتابان سماويان نزلا على النبيين موسى وعيسى عليهما السلام ، ومصدر إيماننا بهما هو قرآننا ، ولكن قرآننا يقول لنا أيضاً إنهما غيرا وبدلا ، ويقول لنا إنهما مع كل ذلك منسوخان .

صحيح أن القرآن ذكر أن من أحكام الكتابين بعض وصل إلينا كما أنزل ولم يبدل لفظه ، وإن كان اليهود قد عطلوا تطبيقه كرجم الأشراف الزناة

فإن الحكم برجم الزاني عام في التوراة ، ولكن أحبارهم استثنوا بلا نص
زناة الأشراف .

والرجم الذي في التوراة ، ومثله من الأحكام التي نسلم بصحتها منسوخ
بالرجم الذي في القرآن مع أنهما كيفية واحدة . . فما معنى هذا ؟

معناه ومثاله أن يلغى قانون جديد ، قانوناً قديماً مع اشتماله على بعض
مواد القديم ، فالحكم في هذه الحالة لا يكون باعتبار القانونين قائمين ولكن
ببطلان الأول وقيام الثاني مكانه .

النسخ في الشرائع القديمة

وليس ما نقوله عن نسخ الإسلام لما سبقه ، بدعاً من القول فقد نسخ
الإنجيل من شرائع التوراة . ونسخت التوراة ما قبلها ، إذ كان الزواج
بالاخوة والأخوات مباحاً في شريعة آدم ونوح وإبراهيم كما ذكرته التوراة
(سفر التكوين الإصحاح العشرون آية ٢١ - ترجمة عربية طبعة سنة ١٦٢٥)
عن لسان إبراهيم عليه السلام متحدثاً عن زوجته سارة (إنها أختي بالحقيقة
ابنة أبي وليست ابنة أُمِّي وقد تزوجتها) . فنسخت التوراة الإباحة واعتبرت
الزواج من الأخت مساوياً للزنا « سفر الأحبار ، الإصحاح الثامن عشر
آية ٩) . (لا تكشف عورة أختك من أهلك كانت أو من أمك ، التي
ولدت في البيت أو خارجاً من البيت) وآية ١٧ من الإصحاح العشرين من
السفر نفسه (أي رجل تزوج أخته ابنة أبيه ، أو أخته ابنة أمه ورأى
عورتها ورأت عورته ، فهذا عار شديد فيقتلان أمام شعبهما) .

والنبي يعقوب جمع بين الأختين بنص قصص التوراة . وشريعة التوراة
حرمت الجمع بينهما (سفر الأحبار الإصحاح ١٨ آية ١٨) .

والأناجيل المختلفة نسخت من أحكام التوراة ، تحريم السبت (ولهذا
أراد اليهود قتل عيسى عليه السلام) فكل شريعة تنسخ الشريعة التي قبلها .

حكمة النسخ :

هذه أمثلة قليلة من شيوع النسخ بين أحكام الديانات ، فكل دين ينسخ ما قبله ، وقد ينسخ الدين حكماً من أحكامه الخاصة ، ملاحظة لمصالح المشروع لهم . فإن تلك المصالح يجوز عقلاً اختلافها باختلاف الأقسام واختلاف الأزمان .

ونسخ الإسلام لليهودية والمسيحية ، أصر عليه القرآن (الذى يحتجون به علينا) فقال : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » (١) .



اعتراف التوراة والانجيل

بأن نبوة محمد ناسخة لشرعها

والتوراة والإنجيل يبشران بالنبي محمد باسمه وصفته ويصرحان بأن شريعته تنسخهما . فقد حقق السابقون أن التوراة قالت فى السفر الخامس (قال موسى لبني إسرائيل : لا تطيعوا العرافين والمنجمين ، فسيقوم لكم الرب نبياً من إخوانكم مثلى فأطيعوا ذلك النبي) . والمقصود بهذا النبي هو النبي محمد للأسباب الآتية :

أنه ليس لبني إسحاق إخوة بعث الله منهم نبياً بعد موسى ، إلا بنى إسماعيل ، ولو كان المراد من الآية أنه نبى منهم لما جاز هذا التعبير . ولوجب أن يكون « نبياً من أنفسكم »

فإخوة بنى إسرائيل هم بنو إسماعيل والنبي محمد من بنى إسماعيل . والأخ لغة فى جميع اللغات يطلق على المتولد من أبوى إنسان أو من أحدهما

فهما أخوان ، وهذا هو الأمثل في الاخوة ويطلق على الواحد من القبيلة لأنه من ولد أبيهم الأعلى كقولك : يا أخا قريش ، ويطلق على الواحد من الجنس كقولك : يا أخا العرب . ويطلق على أهل دين واحد ، وتطلق الاخوة على قبيلة بالنسبة إلى قبيلة أخرى لاتحاد الجد الأعلى .

ف «من إخوتكم» الواردة في الآية هذه معناها على التفسير اللغوي الدقيق : من غير بني إسرائيل وكذلك كان النبي محمد لأن عيسى عليه السلام كانت أمه مريم إسرائيلية .

وقد اعترفت التوراة بأن الله وعد إبراهيم الخليل أن يبعث من نسله رسولا بشرع وكتاب ولم يبعث من نسله بهذين إلا النبي محمد .

وقد ذكرت التوراة اسم النبي محمد صراحة وصفته ، وذكرت وجوب اتباعه فهذا تسليم بتوقع قيام شريعة تنسخ الشرائع .

وذكر الإنجيل قول عيسى عليه السلام (إن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لكم ولكن لا تستطيعون حمله) دليل على أنه ترك الشريعة غير كاملة ليكملها نبي بعده ، وبقية الآية قوله :

(لكن إذا جاء روح الحق ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق لأنه ليس ينطق من عند نفسه بل يتكلم بما يسمع ويخبر بكل ما يأتي ويعرفكم جميع ما للآب) .

هذه الأوصاف لا تنطبق إلا على محمد . ولم تصدق على غير شريعته . فإن القرآن يقول فيه :

« وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى » (١) . وشريعته هي التي وضعت الحدود والآداب جميعاً وتكفلت بحاجات البشر جميعاً كما أثبت الزمان ذلك .

(١) النجم : ٣ ، ٤

وتصديق النبي محمد للأنبياء قبله ، وموافقة علماء اليهود وأخبارهم ورؤساء المسيحيين في عهده ، على صحة البشارات ، وإيمان كثير منهم برسالاته حين احتج عليهم بما في كتبهم ، دليل على صدق نبوته . فكتب السيرة التي بأيدينا تصلح للاستدلال باعتبارها كتباً للتاريخ ولا يضرها أن يكون عليها بعض المأخذ كغيرها من مثيلاتها ، ما دمنا قادرين على إدراك قيمة الصحيح منها المتوفرة له شروط الصحة العلمية . قال ابن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر عن يحيى بن عبد الله عن رجل من آل عبد الله ابن سلام قال : « كان من حديث عبد الله بن سلام حين أسلم وكان حبراً عالماً . قال : لما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت صفته وزمانه الذي كنا نتوكل له ، فكنت مسرّاً (١) لذلك صافناً عليه حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلما نزل « بقاء » (٢) في بني عمرو بن عوف ، أقبل رجل حتى أخبر بقدمه وأنا في رأس نخل لي أعمل فيها وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة .

فلما سمعت الخبر بقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبرت فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيرى : خييك الله . . والله لو كنت سمعت بموسى ابن عمران قادماً ما زدت ! — فماذا قال ؟ — قال : فقلت لها : أى عمه هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه ، بعث بما بعث به ، فقالت : يا ابن أخى . . أهو النبي الذي كنا نبشر أنه يبعث مع نفس الساعة ؟ . . فقال عبد الله بن سلام قلت لها : نعم ؛ قالت : فذاك إذن ، قال : ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا وكتمت إسلامي عن اليهود ثم جئت رسول الله فقلت : إن اليهود قوم بهت (٣) وإنى أحب أن تدخلني في بعض بيوتك فتغيبني عنهم ثم تسألهم عنى كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي فإنهم إن علموا ذلك بهتوني وعادوني . قال : فأدخلني بعض بيوته ، فدخلوا عليه فكلموه وسألوه فقال لهم : أى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا . قال : فلما فرغوا من كلامهم ، خرجت

(١) مخفياً . (٢) موضع قرب المدينة ومن ضواحيها .

(٣) أى أهل بهتان وضلال .

عليهم فقلت لهم : يا معشر اليهود.. اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته فإنني أشهد بأنه رسول الله وأؤمن به وأصدقّه وأعرفه . قالوا : كذبت ثم وقعوا في (١) فقلت : يا رسول الله .. ألم أخبرك بأنهم قوم بهت ، أهل غدر وكذب وفجور ؟ قال فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي وأسلمت عمتي ابنة الحارث فحسن إسلامها » .

والقصص في كتب السيرة عن كيفية إسلام أحبار اليهود والنصارى صريحة الدلالة على أن التوراة والإنجيل ذكرت مبعثه صلى الله عليه وسلم ، ولا نريد أن نطيل في سردها ، فإسلام عدى بن حاتم وجبلبة بن الأيهم ملك دمشق ، وسلمان الفارسي أعلم النصارى بالإنجيل في زمانه ، وابني الجلندي ملكي عمان . وإسلام نجاشي الحبشة حتى صلى عليه النبي صلاة الغائب حين مات ، وأخبر النبي بساعة موته حين مات وبإسلامه ، سيرة هؤلاء وإسلامهم مبسطة في الكتب المختلفة للسيرة والتاريخ الإسلامي . وفيها الإقناع الكافي بأنهم يعلمون بأن عليهم اتباع شريعة محمد وأن كتبهم أمرتهم بذلك .

وهل يمكن أن يقول القرآن لأهل الكتابين مقالات التحدى ويكون ذلك بغير أصل ، ثم لا يردون عليه وينكرون ما قاله ؟!

قال القرآن في تحليمهم بنبوة محمد وأنها في كتبهم «ويقول الذين كفروا لست برسلا، قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم، ومن عنده علم الكتاب» (٢) . وقال : « ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » (٣) وقال : «الذين آتيناهم الكتاب قبله هم به يؤمنون » (٤) .

(٢) الرعد : ٤٣

(١) أى سبوه

(٤) القصص : ٥٢

(٣) المائدة : ٨٢ ، ٨٣

وقال : « أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل » ؟ ! (١)

وغير ذلك فى القرآن كثير . . .

وجوب النسخ عقلا

يسلم معنا أصحاب الكتابين بأن التوراة والإنجيل بشرنا بنبي ، ولكنهم لا يؤمنون بنبوته النبي محمد ، فإذا وافقناهم على عدم نبوته . كان معنى ذلك أن التوراة والإنجيل كذبتا . . . لأنه مضى قرابة الألفين من السنين على بعثة عيسى (وهى ألفتان من سنى الارتقاء والحضارة) وعدم قيام نبي مصداقاً لبشارته وبشارة موسى . مبطل للبشارتين ومكذب للكتابين . أما انتظارهم لهذا النبي فعبث لأن الغرض من الرسائل والديانات هو التهذيب . وفى شريعة الإسلام كل التهذيب وكل ما يكفل صلاح أمور الناس على ما بينته الفصول التى يحتوئها هذا الكتاب . فبطل عقلا ، الحاجة إلى نبي ، وبطل قطعاً ، توقع ظهور نبي جديد أو شريعة جديدة .

والناظر الزمنى للشريعة موجب عقلا أنها ناسخة لما قبلها . ولا شبهة على هذه القاعدة أبداً ، وتوسع شريعة الإسلام وتناولها كل شيء ، موجب عقلاً أنها ناسخة للشرائع التى تناولت جوانب فقط من العقيدة والأخلاق والمعاملات .

وعوموم رسالته وأنها للناس جميعاً مبطل للرسالات الخصوصية للأقوام المخصوصين فإن خصوصية الشرائع السابقة ، واختصاص كل قوم بنبي ، معناه أن الشريعة اقتضت على أقوام دون أقوام ، تمهيداً لتقريب اتجاهاتهم كما ذكرناه حتى توحد هذه الاتجاهات ، شريعة واحدة للتعالم والأحكام . فوضوح شريعة محمد وتعاليمها الأخلاقية والاجتماعية عن الشريعتين مع كمالها — أى توسعها — موجب عقلا أنها ناسخة لما سبقها .

فلهذا كله أنا مسلم !!

الباب الرابع

أنا مسلم لأن :

- ١ - غاية الإسلام .
- ٢ - حضارة الإسلام أعظم حضارة في تاريخ العالم .
- ٣ - الرق في الإسلام حرام :
- ٤ - البرنامج الإسلامى لتحرير الرقيق .

غاية الإسلام

جاء الإسلام والمجتمع الإنساني في أركانه من أسباب الانحلال والتدمير ، عوامل متفشية . لافرق في ذلك بين مجتمع عربي في بداية نشوئه ومجتمع فارسي أو روماني في أوج مجده . فالعقول البشرية مغلولة بالجهالة والوثنية ، العصبية الدينية بين الكتائبيين الذين تسلط عليهم رؤساء دياناتهم وصدوهم عن روح شرائعهم تصبغ الأرض بالدماء . والوثنية الجاهلية تنحط بمستوى البشر إلى أدنى درجات الحيوان . والإباحية تسود لجميع وهي إن لاءمت غرائز الحيوان في الإنسان فإنها تحط قواه الإنسانية المميزة وتفقده خصائصه !

وجاء ، ووأد البنات عادة شائعة في العرب ، والغزو والنهب والسلب والقتل يقوم لأوهى سبب . والناس يستضعف فريق منهم فريقاً . والعداء يفاقم بين المعتقدات والآراء ، والعصبية القومية الضيقة تثير الفتن في كل مكان وآن .

وجاء الإسلام ، والرجل يتزوج من أرملة أبيه أو مطلقة ، وله أن يخلع زوجته على صديقه ، وجاء الإسلام والمرأة مهدورة حقوقها في كل شيء ، والفكر معطل عن النظر والارتقاء والاستدلال ، والعقائد الفاسدة والأوهام تسيطر على العقول .

جاء الإسلام والفطرة البشرية لا منظم لها ولا مهابذ لنزعاتها إذ أن الرسائل السابقة على رسالة محمد عليه الصلاة والسلام قد ضاعت نصوصها الصحيحة . ودخل عليها ما ليس منها بفعل الأخبار والرهبان ، مما كان مدعاة إلى سيادة مذهب التسليم وسيطرة رجال الدين على نفوس البشر . فلم تكن المسيحية ولا اليهودية في الأرض ، إلا مذاهب مستضعفة تضطهدها

الوثنية العربية واليونانية والرومانية والفارسية ، وتمحق روح شرائعها مفسد
أحبار الديانتين !



وتاريخ تطور الاجتماع البشرى يدل القارىء على عديد المساوىء
والنقائص التى أغرقته حتى اتجه إلى الإسفاف فى كل شىء فى معاملاته فاغتال
الناس بعضهم بعضاً ، وجحدوا الأمانة وهضموا الحقوق ، وفى معتقداته
فعبدوا العجول والأسماك والحجارة ، وفى مشاعره فكانت الوحشية وسفك
الدماء عندهم أفخر مظاهر الرجولة ، وكانت اللذائذ الحيوانية أسوأ أنواع
الترف . فالخمر والميسر وافتراش المرأة وصغيرها عند رأسها (كما فخر
امرؤ القيس) والجهر بالشراب والتفمار . كل أولئك بعض مفسد المجتمع
البشرى العام قبل الإسلام .

أى أن الغرائز الحيوانية فى الإنسان طغت (بحكم قوتها) على الملكات
الروحية فتوى التشابه بين حياة الناس وحياة البهائم .

فجاء الإسلام لمقاصد توجيههم إلى حياة اجتماعية راقية تلأم طبيعة
فطرتهم فنظم شرائعه الدينية معادلاتهم ، ونظم بأدابه الاجتماعية علاقاتهم
وهذب بعبادته من حيوانيتهم . كما ارتقى بواسطة العبادات بملكاتهم الروحية
ووضع لكل ناحية من مرافق الاجتماع البشرى ؛ مناهج تلتم مع الغرائز
الفاضلة . وأخص هذه ما يتناول النواحي التشريعية والأدبية والعلمية وكل
ما تنشده الفطرة البشرية السليمة من وسائل الطمأنينة الاجتماعية وسبل
السلامة من الخطأ ، وانفرد الإسلام بتنشيط غرائز البحث عن علل المدركات
الحسية والعقلية وارتقى بالغرائز الفاضلة لتغلب الطبيعة الحيوانية ، فتعلو
الإنسانية فى الإنسان على البهيمية . فإن تركيب الهيكل البشرى مشابه فى
أكثره لتركيب سائر الهيكل الحيوانى فى أغلبه ، فنتج عن هذا تماثل وتقارب
الانفعالات والمعانى الصادرة عن هذا التركيب . فإذا لم تهذب هذه الانفعالات

ولم تضبطها القوة الروحية (الغرائز الفاضلة) فسدت الحكمة من وجود
عالم بشرى ما دام مماثلاً لعالم الحيوان !

جرت السنة البشرية أن الدول تتألف محفوزة بالحاجات الحيوية ؛ فقد
توجد قبائل متفرقة من جنس واحد تجدد نفسها مهددة بعدو قوى مجاور
لها فتدفعها الضرورة للتضافر . وغير ذلك .

ولكن الأمة الإسلامية قامت على غير هذه السنة الطبيعية ، فقد تألفت
على أصول ومبادئ ، هي مثل عليا للحياة الشخصية والاجتماعية ، فهي
أمة عالمية محقت فيها القوميات والفوارق الجنسية واللغوية .

لم يزد الإسلام الأديان ديناً جديداً ، بل ضم شتاتها وقضى على خلافاتها
ومنازعاتها ، وهو ليس بدين جديد ، بل هو رد الأديان المحرفة إلى أصولها
« إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من
بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » (١) فقد شرع الإسلام لرفع الخلاف بينهم
فاعتبر الدين وحدة قوامها الإيمان برسول الله كافة من غير تفرقة
« إن الذين يكفرون بالله ورسوله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله
ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً .
أولئك هم الكافرون حقاً ، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » (٢) .

فهذه الآية تعطى أن مهمة الإسلام هي أن يكون ديناً عاماً . ورفع
الدليل وأمم الفرس والتتار لمنازل الإسلام ، دليل على أنه ليس ديناً للعرب خاصة
بل تحس كل أمة تدين به أنها مسئولة عن رفعته لأنها تجد في ضلاله السعادة
والوحدة والقومية العالية . فهو ديمقراطية حقيقية . ولم يكن الناس يعرفون
تلك الكلمة ولا مدلولها إذ ذاك . ولو كان الإسلام بشرياً لأثرت فيه
الفروق التي تراضع عليها البشر . فالإسلام أوصل عطاء بن رباح وهو رقيق
أسود أفتطس الأنف ، مفلقل الشعر ، فاقد إحدى عينيه ، إلى درجة الإمامة .

(٢) النساء : ١٥٠ ، ١٥١

(١) آل عمران : ١٩

قال إبراهيم بن عمرو بن كيسان « أذكركم في زمان بنى أمية يأمرون الحرج صائحاً يصيح : لا يفتي الناس إلا عطاء بن رباح » .

جاء الإسلام ففعل كل هذا وارتقى بالنوع البشري كافة ، من آمنوا به ومن جحدوه ، فإن شرائعه غزت أفكار المشتريين في سائر الأمم فتغلغت روح تلك الشرائع في مرافق الحياة الاجتماعية لأكثر الأمم ، بل بعض هاتيك الأمم ، صار أقرب إلى روح الإسلام وآدابه من كثير من الأمم الإسلامية في هذه العصور ! وغاية الإسلام من ترقية الملكات الروحية ليست غاية تعبدية ؛ وإنما هي أجدى من هذا : غايته إنشاء مجتمع فاضل أركانه الأساسية هي الأنفة والمحبة والإيثار والبر والتقوى . ولن توجد أبداً كمالات أخلاقية تحصل بغير هذه المبادئ المثاليات .

ومتى قامت هذه الأخلاق الروحية ، انبنى عليها كمال الخلق الاجتماعي . ومتى تحققت هذا الكمال الاجتماعي ، قامت المعاملات والحياة الاقتصادية على نهج لا يفضلها نهج ، كفيل بإسعاد الذين يعيشون في ظله .

تلك غاية الاسلام

وهذا الدين الذي هو نظام وشريعة وتربية فلسفية لم يفرض نفسه على الناس ، وإنما حرضهم على أن يبحثوا بعقولهم ، ويتفكروا بمشاعرهم ويتحسسوا بوجوداناتهم عالم ما فوق العقل ليصلوا إلى الاقتناع بألوهته . وظل يرشدهم إلى مواضع هذه التطبيقات في مشاهداتهم الحسية ومدركاتهم العقلية والتصورية ... فلهذا أنا مسلم .

حضارة الاسلام أعظم حضارة فى التاريخ وليس لسواه من الديانات حضارة

على حين أن تاريخ الكنيسة المسيحية على اختلاف مذاهبها، كاثوليكية وبروتستانتية وسواها من النحل ، حافل بالفظائع التى اتخذها رؤساء الكنيسة باسم يسوع وديانته ضد العلم والعلماء ..

وعلى حين أن الديانة اليهودية لم تنشئ حضارة — فإن حضارة الجنس السامى شئ غير حضارة الدين اليهودى .

نجد الإسلام يقيم حضارة الفن ، وحضارة المال ، وحضارة العلم والفلسفة والعمران ؟

أما أن شأن الديانة المسيحية أن لا تخلق حضارة ؛ فلأنها دين رهينة وتغش وتعطيل للفكر من ابتدائها ، فالمفسرون للأناجيل من ابتداء كتابها إلى آخر بابوات الكنيسة ، يفهمون الأقوال فهماً خاطئاً ، ويمنعون العقول الأخرى من الفكر فى مقاصد الآيات الإنجيلية ، وينشرون فكرة أن العقل يجب خنوعه لجهالة كتاب الأناجيل ، وجهالة البابوات .

وإذا عرضنا للقارىء نماذج من اضطهاد الكنيسة للعلم .. جزم معنا بأن روح المسيحية هى أن السلامة فى ترك الفكر والأخذ بالتسليم . ولهذا انحصر التعليم فى الأديرة . ولاتزال المدارس العلمانية الفرنسية رمزاً لروح المسيحية فى هذا الجيل الذى نعيش فيه .

ادعى أحد العلماء أن الموت كان يوجد قبل آدم أى أن الحيوانات كان يدركها الموت قبل أن يخطئ آدم بالأكل من الشجرة ، فصدر أمر امبراطورى بناء على طاب البابا .. بأن يقتل كل شخص يعتقد ذلك .

فاعتبرت الكنيسة أن الاعتقاد بوجود الموت قبل آدم جريمة
ضد الإمبراطور .

والبابا « تيوفيل » بطريرك الإسكندرية .. نال أمراً إمبراطورياً بإتلاف
مكتبة الإسكندرية التي أنشأها البطالسة .. لأن محتوياتها من كتب العلوم
تخالف العقيدة المسيحية .

وجاء بعده ابن أخته « سيريل » وكان في الإسكندرية فتاة رياضية
تدعى « هيباتي » تشتغل بالعلوم والفلسفة فلم يحتمل القديس « سيريل »
وجودها فأثار عليها الشعب حتى قعدوا لها وقبضوا عليها في الطريق
وجردوها من ثيابها ، وساقوها إلى الكنيسة حيث قتلت هناك ثم أحرقت
جثتها بعد القتل !

وجاليلو حين اكتشف دوران الأرض وثبات الشمس ، حوكم وعذب
وحبس لكي يعترف بأنه جدف : وغيره من العلماء عانوا أشد مما عاناه من
محكمة التفتيش المسيحية ، ومن جهل وغباء رؤساء الكنيسة في تلك العهود.
وخريستوف كولمب حين استدل بكون الأرض على وجود دنيا
لم تكتشف ، كادت محاكم التفتيش أن تزجه في قيعانها الأرضية الرطبة
وتشد أطرافه بآلات التعذيب . لولا ملوك أوروبا الذين طمعوا في ضم
ممتلكات جديدة إلى عروشهم . ثم إن إنشاء محاكم التفتيش كان لمقاومة العلم
والفلسفة والطب بطلب الراهب (توركماندا) وقد قامت بمهمتها خير قيام
خلال ثمانية عشر عاماً من عام ١٤٨١ ميلادية إلى ١٤٩٩ -- إذ حكمت
على ١٠ آلاف ومائتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا أحياء وعلى ٦٨٦٠
شخصاً آخر بالشنق بعد التشهير وعلى ٩٧٠٢٣ شخصاً آخرين بعقوبات مختلفة
ونفذت جميع أحكامها .

وأمرت محكمة التفتيش بإحراق كل توراة عبرية !

وقال « دي رومينيس » إن قوس قزح ليس قوساً حربية بيد الله ينتقم بها
من عباده إذا أراد ، بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء . فكان

جزاء هذا التجديف في حق الأنجيل وعقيدة الكنيسة أن جلبوه إلى روما مقبوضاً عليه وحبس حتى مات ثم حوكت جثته أمام محكمة التفتيش وحوكت كتبه !

فحكم على الجثة والكتب بالإحراق بالنار !

وأنشأت الكنيسة بنفوذها نظام المراقبة على المطبوعات . وحتمت على كل مؤلف وكل طابع ، أن يعرض مؤلفه أو ما يريد طبعه على القسيس أو المجلس الذي عين للمراقبة وذلك لكي لا ينشر شيء يوميء إلى مخالفة العقيدة الكاثوليكية ، أي إلى العلم والفكر والفلسفة .

وما من عقيدة في المسيحية إلا أُرِيت في سبيلنا الدماء ، وما من نهضة إصلاحية ، دينية أو علمية ، إلا ذهبت الألوف قرابين وضحايا بين يديها .

وكان المظنون أن البروتستانت وهم دعاة الإصلاح الذين عانوا من الكنيسة الكاثوليكية صنوف الغدر والقتل والاضطهاد وكانت أبشع صور الغدر الدنيء . قصة « هنري دى نافار » التاريخية . يكونون أرحم بمخالفهم من خصومهم ولكن « كلفن » زعم البروتستانتية الثاني وخليفة « لوثر » حكم بإحراق « سبرفيت » في جنيف لأنه كان يعتقد أن المسيحية دخل عليها شيء من الابتداع وشوى على النار حياً حتى مات . وبنفس الطريقة أحرقوا « فايقي » في تالوز سنة ١٦٢٩ للميلاد !

واضطربت الكنيسة البابوية اليهود لأنهم كانوا يتعلمون فلسفة ابن رشد كما يعرف ذلك من تاريخ الأندلس ، واعن « لوثر » صاحب الإصلاح البروتستانتي ، ابن رشد وكان يلقيه بالخنزير ويمنع النظر في فلسفته .

وخانت الكنيسة أمداسة الاعتراف (١) ، فقرر مجمع لاتران المتقدس أن يكون من وسائل التحقيق والإدانة الاطلاع على خفايا الناس بواسطة

(١) الاعتراف بدعة كاسية لم تؤثر في المسيح ولا عن حواريه ولكنه مع ذلك متفق على سريره وقداسته عند مبتدعيه !!

الاعتراف ، فخالف القسس واجباتهم الكهنوتية وباحوا بهذه السرية المقدسة ، وأخرجوا الاعتراف عن الغاية منه وهى غفران الخطايا والتوبة ، إلى أن جعلوه شهادة من الأبناء ضد الآباء ، ومن الزوجات ضد الأزواج شهادة تذهب بأحبائهم إلى الموت الكنسى وقرر مجمع لاتران نفسه سنة ١٥٠٢ أن يعلن كل من ينظر فى فلسفة ابن رشد .

وأصدر البابا اسكندر السابع (١٦٦٤) أمراً بمصادرة كل الكتب التى تعلم دوران الأرض وثبات الشمس ومن لطيف ما يروى أن الكنيسة ردت على دوران الأرض بمنشور أذاعته جاء فيه :

(للحيوانات التى تتحرك أطراف وعضلات . أما الأرض فليست لها أطراف ولا عضلات . فهى بناء على ذلك لا تتحرك ؟!) وكما حاربت الكنيسة أولئك ، حاربت «نيوتن» صاحب ناموس الجاذبية وأعق العلماء إيماناً بالله . وحاربت « كوبر نيكوس » الفلكى حرباً عنيفة مذكورة تفصيلها فى مواضعها من الكتب .

ولم يقتصر أذى الكنيسة المسيحية على أصحاب الآراء والمخالفين ، ولكنها تجاوزتهم بانتقامها إلى أبنائهم وأحفادهم فقال البابا «إينوثان الثالث» فى حق مخالفى العقيدة الكاثوليكية : « لا يجوز أن يترك لأولاد الجاحدين ، سوى الحياة . وترك الحياة لهم من وإحسان » .

ولعل هذا لتبرر به الكنيسة مصادرتها لأموال الذين تنعتهم بالجاحدين ولتبرر حرمانهم لأولادهم من حقوقهم الاجتماعية والسياسية .

والكنيسة تستند فى مثل هذه الأقوال والأفعال الباطشة إلى تعاليم الحراريين والتلاميذ .

فقد جاء فى الإصحاح الخامس من الأعمال ، قصة الرجل الذى باع جميع ما عنده ، ثم جاء إلى بطرس الرسول فأعطاه الثمن وادخر لنفسه شيئاً أخفاه عنه . فاطلع بطرس الرسول على حقيقة الأمر ، ووبخ الرجل وتصرف فيه بسلب حياته من طريق المعجزة . ثم جاءت امرأته وكان لها اطلاع على

ما أخفى زوجها ولم تنه، فوبخها بطرس وأخبرها بموت زوجها فماتت هي أيضاً ..

فإذا كان الله يسلب الحياة جزاء عن اختلاس الرجل شيئاً من مال نفسه لم يقدمه هدية للرسول ، فإذا لا يجوز حق الحياة لمن خالف خلفاء الله على الأرض ، ونبذ عقائدهم ، من باب أولى !

ولعل موت امرأة الرجل هو الذى أخذوا منه هتك سرية الاعترافات . ومن أصول الديانة المسيحية الإيمان بالحوارق وتقديس سلطة الرؤساء الدينيين ، وترك الدنيا تفرغاً للعبادة ، واعتقاد أن الكتب المقدسة حاوية لكل ما يحتاجه البشر ، وأنها محدودة المقاصد وفق تفسيراتهم لها . والتفريق بين المسيحيين وغيرهم . وكل هذه الأصول لا تبني حضارة ولا تقيم مجتمعاً ، بل أصل واحد منها كاف ليهدم أعظم المجتمعات ارتقاء !

فإن كل بحث فى النواميس الكونية العامة يخالف الأصل الأول وهو الإيمان بالحوارق ، أى الوقائع المخالفة لنواميس الكون فالقول بأن للكون شرائع ثابتة وأن للأسباب مسببات وللعلل معلولات ، يضاد هذا الأصل المسيحى ، ولهذا عذبت الكنيسة رجال العلم والقائلين بنواميس الجاذبية ودوران الأرض وحركة الأفلاك .

وسلطة الرؤساء الروحانيين تمكن لهذا الأصل الهادم للعمران : ومصدرها ما جاء فى إنجيل متى الآية ١٦ إصحاح ١٩ « أعطيك مفاتيح ملكوت السموات » .

والتجرد من الدنيا يحىء تصديقاً للآية الإنجيلية « لاتقدروا أن تخدموا الله والمال . لذلك أقول لكم لاتهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون » .

ومن أصول المسيحية الكفيلة بفناء النوع البشرى كله . الرهينة وأن ينحصى الرجال أنفسهم ! فليس فى تعاليم الإنجيل ، ما يضع فى بناء المدينة حصاة .

أما الإسلام : ففي ظل دولته خرج الفقهاء المشرعون الذين استعملوا عقولهم في كل شيء . واختلفوا في أشياء كثيرة فلم يضطهد أحد منهم أحداً . وفي ظل دولته خرج أبو بكر الرازي الطيب أول من عمل عملية الكتاركتا (إزالة الماء من العين) وابن سينا الذي تدرس جامعتا كمبرج وأكسفورد كتابه الطبي « القانون » وغيرهم من مشاهير الطب كثيرون . وفي ظل دولة الإسلام اخترع جابر بن حيان علم الجبر ، واستأثر دون العلماء كافة بأسرار الكيمياء . وفي ظل دولة الإسلام نبغ العرب في الفلك فكانوا أول بناة المراصد الفلكية في العالم وأول صانعي التليسكوبات . وفي ظل دولة الإسلام نمت المباحث الروحية والنفسية ومن علمائها ابن سينا والفارابي وابن رشد وابن مسكويه وغيرهم .

وفي ظل دولة الإسلام قامت فنون الهندسة المختلفة . وحاول المخترعون الطيران في السماء وأولهم عباس بن فرناس . ولسنا بصدد تعداد جوانب الحضارة الإسلامية فقد استوفها المؤرخون والمستشرقون وعلماء أوروبا المنصفون في كتب مستقلة واعترفوا لها بالتفوق على الحضارات .

وهذه الحضارة منشؤها تعاليم القرآن ؛ الذي يأمر أهله باستعمال العقل والفكر في الاستدلال على وجود الله . ودراسة أنفسهم ودراسة الظواهر الجوية والطبيعية . ويقول لهم أطوار تخلق الجنين قبل أن يعرفها أى عالم في الأرض . ويحدثهم عن الصعود في السماء « (١) وآيات كثيرة غيرها في موضوعها ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء » (١) وآيات كثيرة غيرها في موضوعها ويحدثهم عن الزرع والثر والزهر واختلاف ألوانها وخواصها . ويحدثهم عن معادنها إلى آخر ألوان العلم وفنون الحضارة .

ومن الثابت في تاريخ العلم وتاريخ النهوض الفكري أن الحضارة الإسلامية هي التي نهضت بأوروبا فقد كانت أوروبا قبل الإسلام قبائل يشن بعضها الغارة على بعض (هذا يعلم من قراءة تاريخ أوروبا في العصور

الوسطى) وكان تسرب الحضارة الإسلامية إلى أوروبا ناتجاً عن عوامل كثيرة ، أظهرها في التاريخ وأشدّها تأثيراً ، تجاور المسلمين وأهل أوروبا حين فتحوا غرب أوروبا (الأندلس) وقد وصل المسلمون في فتوحاتهم إلى حدود جبال كبرنييه . وحملوا معهم حضارتهم كما هو شأن كل فتح حربي في العالم .

فلولا انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا لما ارتقى الفكر الأوروبي إلى دراسة الذرة واستنباط التليفزيون وابتداع الأمواج الصوتية والأشعة السينية واستخلاص نظرية النسبية وغيرها .

وقد رعى الإسلام النبوغ وشجع عليه .

فن علماء اليهود والنصارى الذين لقوا رعاية الخلفاء وتكريمهم ، «جورجيوس بن بختيشوع» طبيب الخليفة المنصور الذي رفعه المنصور حتى على وزرائه ، وكان يخرج ماشياً لعيادته إذا مرض .

و«بويخت» المنجم وولده «أبو سهل» وكانا مجوسيين . و«يوحنا بن ماسويه» النصراني من المقربين إلى هارون الرشيد و«يوحنا البطريق» الذي أقامه المأمون أميناً على ترجمة الكتب الطبية والفلسفية .

و«سهل بن سابور» وابنه «سابور» و«سلمويه بن بنان» النصراني طبيب المعتصم . و«حنين بن اسحاق» أشهر المترجمين وكان الخليفة المتوكل يعطيه وزن ما يترجمه ذهباً ! وأقطعه إقطاعات واسعة . وغيرهم كثير في جميع أدوار العهد الإسلامي .

فن هذا كله يثبت أن الإسلام يبنى الحضارة العلمية والفنية والعمرانية والأخلاقية بتعاليمه الصريحة ، وأن سواه من الأديان تحظر على الفكر أن يتأمل ، وتحارب العلم والعلماء ، ولا تضع في صرح الحضارات حصاة واحدة !

الرق فى الاسلام حرام

الحرية فى الإسلام هى الأصل فى الإنسان كما كتب أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب إلى عامله على مصر عمرو بن العاص وقد اشتكى عليه قبطى « يا عمرو ، منذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ! » وقد أخذ الفقهاء من هذا الأصل : أن الرق لا يثبت بإقرار المرء على نفسه وجعلوا قول منكره راجحاً على قول مدعيه . حين نزل القرآن وبعث الله نبيه محمداً لتنظيم المجتمع العام ، كان الرق نظاماً شائعاً فى المجتمعات الأربعة التى كانت تتألف منها الحياة المدنية الاجتماعية فى زمن الرسالة ، وهى المجتمع الفارسى ، والإمبراطورية الرومانية الشرقية ، ومجتمع روما ، ومجتمع الجزيرة ، كان كسرى تحتوى قصوره اثنتا عشرة ألف جارية : منهن ثلاثة آلاف يتسرى بهن ، كما روى التاريخ . وكانت القوانين فى الإمبراطورية البيزنطية (الرومانية الشرقية) تعتبر الإمبراطور هو المولى المطلق التصرف فى كل شىء حتى فى دماء رعاياه ، ومستبدأ إلى أقصى حد ، وبالأولوية فى حرياتهم ! وكانوا فى روما (الإمبراطورية الرومانية الغربية) يتجهون بمعنى الإمبراطور إلى فكرة التأليه . كما كان الفراعنة يستخدمون الشعب استخدام استرقاق صريح فى بناء الأهرامات ونحوها ، وكان العربى مهماً تنهى فقره يملك عبداً أو جارية . . !

فتصور أيها القارئ حالة نظام اجتماعى هذا وضعه ووصفه ، فلننظر بعد ذلك فى تعاليم الإسلام نحو الاسترقاق ، ونحتاج فى هذا النظر إلى أن نتفهم روح الشريعة الإسلامية ونستخلص من نظامها بهذا الصدد رأياً هو الذى ذهبنا إليه .

لماذا لم يحرم الإسلام الاسترقاق بنص صريح فى القرآن وينهى عنه ؟
علة ذلك هى أن الإسلام وهودين التنظيم الاجتماعى كما سبقت الإشارة إليه ،

علم أن تحرير هذه الملايين من العبيد سيصيب المجتمع الاقتصادى بنكسة لا ينتعش بعدها . ويشيع الفوضى الصارخة فى جوانبه : فإن هؤلاء العبيد قد تكفل سادتهم بأرزاقهم فهم لو انطلقوا ليكفلوا أنفسهم فلن يستطيعوا ، لأن الميدان الاقتصادى لن يتسع لهم فهم لابد أن يكونوا عمالا أو صناعاً (فليس فيهم ممول يمتن التجارة مثلاً) وليس منهم من يحدق عملاً أو صناعة وحتى لو كانوا يحدقون فالنكبة أشر لأن معنى ذلك تفشى العطل بين العمال الأصليين وبين هؤلاء الدخلاء عليهم .

وقد حرمت أمريكا الاسترقاق دفعة واحدة دون ملاحظة هذه الاعتبارات الجوهرية فأصبحت فكرة التحرير بصدمة حطمتها ، فهرب الأرقاء المحررون من الحرية إلى الرق من جديد . لأنهم عجزوا عن كسب أقواتهم ، وأسباب العجز فى هذا الظرف كثيرة غير ما ذكرناه .

لذلك وضع الإسلام برنامجاً عملياً إلى الغاية يكفل إلغاء الرق إلغاء تاماً تدريجياً تفادياً من الفوضى الاجتماعية التى نهنا إليها .

وسنذكر مواد هذا البرنامج ثم نذكر أدلتنا على أن الإسلام حرم استحداث الرق بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

البرنامج الإسلامى لتحرير الرقيق

أوجب الإسلام التكفير عن الذنوب الآتية بعقوبة الرقبة :

١- الظهار : وهو أن يقول الرجل لامرأته أنت حرام على كظهر أمى. فإن رغب أن يعاشر امرأته بعد ذلك وجب عليه تحرير رقبة « من قبل أن يتماسا » وقد كان الظهار عادة شائعة عند العرب فيجاب العتق فيه معناه العمل على تحرير عدد كبير من الرقيق .

قال الله تعالى « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » (١) .

(١) المجادلة : ٣

٢- اليمين الكاذبة لقوله تعالى « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهائكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة » (١) .

٣- القتل الخطأ لمؤمن لقوله تعالى « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله » (٢) .

٤- الإفطار في رمضان بالجماع (لحديث فيه مشهور) .

٥- شرع الإسلام نظام المكاتبه أى أن يطلب الرقيق (عبداً أو أمة من سيدة مكاتبته على مال يؤديه له مقابل عتقه . ولتحقيق انتفاع الرقيق بهذا التشريع أوجب الإسلام ما يأتى :

(١) أوجب على السيد قبول طالب الرقيق بقوله تعالى « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم لكتابتهم إن عاهدتم فيهم خيراً » (٣) . وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الأمر فى (كتابتهم) للندب وليس للوجوب وهذا خطأ ظاهر لأن الأصل فى فعل الأمر الوجوب فلا يحمل على الندب إلا إذا كانت هناك قرينة . والقرينة هنا منعدمة . وقد سأل بعضهم سعد ابن معاذ إمام فقهاء المسلمين : أفإن طلب إلى عبدى مكاتبته ، أفيجب على أن أفعل ؟ . فقال : ما أراه إلا واجباً . أما قوله تعالى : « إن علمتم فيهم خيراً » فعناه قدرة على الأداء .

(ب) أوجب الإسلام عن بيت مال المسلمين أن يساعد العبد المكاتب على أداء المال الذى تعهد به لسيده مقابل عتقه لقوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » (٤) .

ورأى المفسرين أن فى الرقاب معناه فى تحرير الرقاب . ولا خلاف فى هذا والسنة تؤيده ، حتى فى أسرى الحرب من المشركين وفى قصة سلمان

(٢) النساء : ٩٢

(٤) التوبة : ٦٠

(١) المائدة : ٨٩

(٣) النور : ٣٣

الفارسي أن سيده كاتبه على غرس ثلثمائة نخلة وأداء أربعين أوقية من الذهب فغرسها كلها رسول الله بيده وفاءً عن سلمان ، واستكتب المسلمين بالذهب فاكثبوا به .

(ج) أوجب الإسلام التعجيل بعثت المكاتب إذا أمكنه أن يؤدي ما كوتب عليه قبل موعده ، قال أبو سعيد المتبري : اشترتني امرأة من بني ليث بسوق ذي الحجاز بسبعائة درهم ثم كاتبته على أربعين ألفاً فأذهبت إليها عامة المال ، ثم حملت ما بقي من المال إليها فقتلت : هذا مالك فاقبضيه . فقالت : لا والله حتى آخذه منك شهراً بشهر وسنة بسنة (تريد استبقاء استرقاقها له مدة أطول هي مدة حلول الأقساط) .

فخرجت إلى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين فذكرت ذلك له ، فقال عمر : ادفعه إلى بيت المال ، ثم بعث إليها : هذا مالك في بيت المال وقد عتق أبو سعيد . فإن شئت فخذى شهراً بشهر ، فأرسلت فأخذته .

٦- شرع الإسلام نظام التبعية ومثاله أن يكون العبد أو الأمة ملكاً لعدة شركاء فيجوز لأحدهم أن يعتقه عن حصته وفي هذه الحالة يجب أن يقبل الشركاء الآخرون مكاتبته العبد على مقابل ملكهم فيه ويسمى العبد في هذه الحالة مبعثاً .

٧- أوجب الإسلام على الشريك المعتق إن كان غنياً أن يدفع إلى كل شريك مقابل حصته حتى ينال العبد حريته كاملة (من دبر بعض مملوكه وهو مالك له كله سرى العتق الى باقيه) .

٨- أوجب الإسلام عتق الرقيق إذا آذاه سيده أدنى إساءة لحديث « من ضرب مملوكه أو لطمه فكأنارته عتقه » .

٩- أوجب الإسلام على السيد إذا مازح عبده بالعتق ، أن يعتقه مهما تراجع عن مزاحه .

١٠- حث الإسلام على تزوج الإمام توصلاً إلى عتقهن لحديث « من كانت له جارية فعلمها وأحسن إليها وتزوجها ؛ كان له أجران » . وقال علماء الحديث : أى أجر بالتعليم وأجر بالعتق لأن نكاحها يعتقها .

١١- ساوى الإسلام في كل شيء بين العبيد والسادة تفويتاً للفوارق التي ترغب في الاسترقاق ، فنص على أن الحر إذا قتل عبداً يقتل به - ولم يكن ذلك في أى قانون سابق على الإسلام ، ومن مظاهر المساواة أن الرسول ولى أسامة بن زيد مولاه إمرة الجيش الذاهب إلى فتح فلسطين وكان أبو بكر وعمر أصحاب النبي المقدمين تحت إمرة أسامة يمثلون أمره . وقد تولى أبو بكر الخلافة فأقر أسامة على قيادة الجيش . وقال الأنصار لعمر : قل لأبي بكر أن يولى أمرنا من هو أقدم سنأ من أسامة (فقد كان أسامة في العشرين من عمره) فلما كلمه عمر ، أمسك أبو بكر بلحية عمر وقال « ثكلتك العشرين من عمره » ولاه رسول الله وتأنرني بعزله ؟ » . ومن مظاهر المساواة أن الرسول تبني مولاه (عبده) زيد بن حارثة . ومن مظاهر المساواة أيضاً عدم التفريق بين العبيد والأحرار في نظام الأنكحة .

١٢ - شرع الإسلام نظام (الوطء) بملك اليمين أى بدون إجراءات زواج ، توصل إلى تحرير الإماء ، لأن رأى الفقهاء أن ولادة الأمة من سيدها توجب عتقها ولهم في ذلك قاعده فقهية (الولد يحرر أمه) ولأن رأيهم أيضاً أن مجرد افتراش الرجل أمته يجعلها كالموصى بعتقها فلا تباع في دينه ولا تورث من بعده . ولا ترهن حال حياته .

١٣ - حرم الإسلام الاتجار بالرقيق لقوله صلى الله عليه وسلم : « قال الله : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بي ثم غدر . ورجل باع حراً فأكل ثمنه . ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره » . (١) وقد قلنا إن الأصل في الناس جميعاً أنهم أحرار وذكرنا أن هذا أصل فقهي مأخوذ من قول عمر ومن روح الإسلام .

١٤ - شرع الإسلام في الرقيق الهارب إلى دار الإسلام أنه يتحرر بمجرد دخولها ولو كان غير مسلم .

(١) رواه عبد الله بن عمر :

١٥ - حث الإسلام أهله على العتق والتوسع فيه لقوله صلى الله عليه وسلم في حديث « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : دلني على عمل يقربني من الجنة ويبعدني عن النار . فقال : اعتق النسيمة . وفك الرقبة . فقال : أو ليسا واحداً ؟ قال : لا .. عتق النسيمة أن تنفرد . بعثتها ، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها » .

فالحديث لا يأمر الرجل بإحدى الاثنتين ، بل بهما معاً ، ويعتبر تحرير الرقيق قرباً إلى الله يبعد من النار ويكفل الجنة لقوله تعالى : « فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة » (١) .

فهذا القانون الذي وضعه الإسلام لتحرير الرقيق السابق على الرسالة المحمدية يتألف من خمسة عشر مادة لوحظ أنها مؤدية إلى الغاية من القانون أداء منظماً . ومن مزايا الإسلام الإنسانية أنه لم يفرق في العتق بين رقبة مؤمنة وغير مؤمنة إلا في حالة واحدة هي قتل المؤمن لمؤمن خطأ . وعدم التفريق هذا يعطي صراحة أن روح الإسلام هي روح مؤاخاة إنسانية لا ترغب في الاستعباد ولا تقبله لأى من الناس ، لا للمسلمين فقط فمن العجب بعد ذلك أن يقول أحد ، إن الإسلام أباح الاسترقاق .

فالإسلام أبطل الرق السابق عليه بهذا القانون كما ذكرنا . ثم حرم استحداث الاسترقاق بعده لقوله صلى الله عليه وسلم « ما زال أخى جبريل يوصيني بالرفق بالرقيق ، حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم » . وقال الراغب في كتابه : غريب القرآن « ظن » الظن اسم لما يحصل من أمانة ومتى قويت أدت إلى معنى « العلم » فهي في الحديث بمعنى اليقين لأن السياق والنسق يقتضيان في رأى كل بصير بأساليب العريية ولأنه صلى الله عليه وسلم برىء من الوهم (الظنى) فالظن بالنسيمة له علم لقوله تعالى :

(١) البلد : ١١ - ١٣

« الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم » (١) في سياق وصفه تعالى للمؤمنين .
أى يستيقنون .

تنظيم الإسلام للرق تمهيداً لإلغائه :

وكان لابد أن يضع الإسلام نظاماً لحياة الأرقاء وعلاقاتهم بمالكهم ما دام لم يعتمد على الإلغاء دفعة واحدة واختار التدرج فيه ، فقد كانوا يعانون في رقهم من الذل والامتهان ما تأباه إنسانية الإسلام . فقال صلى الله عليه وسلم « لا يقتل أحدكم عبدي وأمتي ، وليقتل فتاى وفتاى وغلامى » وقال صلى الله عليه وسلم « إخوانكم خولكم - أى أن عبيدكم إخوانكم - جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس » وقال تعالى موصيأهم : « وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم » (٢).

ومثل ذلك كثير . وهذا هو موقف الإسلام من الرق قبله .

فلننظر هل أباح الإسلام استحداث الرق بعده أم حرمه ؟

رأينا أن الإسلام هو دين إنسانية عامة ، فرحة إنسانية أى أن مقاصدها تتجه إلى خير الإنسانية العام ، ولو كان الإسلام يعنى بتمييز المسلمين على سائر الناس وتفضيلهم لكان مذهبية عصبية ، وهو ليس كذلك .

فالقرآن في مواضع كثيرة يخاطب الناس عامة ، ويقول « ولقد كرّمنا بنى آدم » (٣) ولم يقل كرّمنا المؤمنين أو المسلمين .

ورأى بعض الفقهاء من أهل العصر أن الإسلام يبيح الاسترقاق لإذلال من تعتوا فلم يؤمنوا ، وامتهان إنسانيتهم .

(٣) الإسراء : ٧٠

(٢) النساء : ٣٦

(١) البقرة : ٤٦

وهذا عندنا مرفوض لأنه مخالف لروح الإسلام ومقاصده ، مخالفة صريحة فقد ذكرنا فيما سبق من صدر هذا الفصل أن الإسلام لم يشترط في عتق الكفار أن يكون المعتق مسلماً إلا في حالة واحدة من خمسة عشر حالة وهي قتل مؤمن لمؤمن خطأ . وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي أورده « ما زال أخى جبريل يوصيني بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن (الناس) لا تستعبد ولا تستخدم » . ووقف صلى الله عليه وسلم عندما مرت جنازة يهودى فقال الصحابة : يا رسول الله هذا يهودى فقال : « أو ليس نفساً ؟ » . فلننظر بعد ذلك هل ورد في الإسلام أى قرآنه ، نص يبيح الاسترقاق ؟ أم لم يرد ؟

والجواب على هذا السؤال أن الله تعالى قال : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثختموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » (١) .

وهذه الآية هى الوحيدة التى فيها شبهة لإباحة الرق ، فلننظر ماذا قالوا فى تفسيرها .

لإجماع المفسرين قائم على أن الأسر — وهو شد الوثائق — غايته ونهايته أن تضع الحرب أوزارها فيجب متى انتهت الحرب التى أسروا فيها أن يطلق سراحهم ، إما تكريماً وإما بالفدية . والفدية قد تكون المال ، وقد تكون مبادلة أسرى المسلمين بأسرى الأعداء ، فإذا عجز الأسرى المشركون عن الفدية كوتبوا عليها برأى الفقهاء جميعاً . كما يكون وضع الحرب لأوزارها معناه دخول المحاربين فى العهد .

فالتشريع باسترقاقهم الوقتى لا يخرق قاعدة التحريم ، لأنه موقوت (وهو المسمى بالأسر . والأسر غير الرق) ينتهى أجله بانتهاء الحرب . وقد ندب الله تعالى لإطلاقهم تفضلاً ، وهو ما تقضيه روح الإسلام من

تسامح ، فإن رأى ولى الأمر الحاجة إلى فديتهم أطلقهم بالفداء ، فإن عجزوا فقد سهل لهم استرداد حریتهم بالمكاتبه .

وكذلك الحال فى سبايا الحرب اللواتى وردت السنة باسترقاق أريد به صالحهن وحدهن فقد فقدن من يعولونهن فى الحرب ، فواجب إيوأهن وإطعامهن وما ذكرناه من توصية النبی بحسن معاملتهن يجعل كلمة الاسترقاق هنا فى غير موضعها إطلاقاً .

فإن السبايا على الخصوص ، كان يتخذهن المسلمون زوجات ولا صلة لهن بوضع الإماء والجوارى . ومنهن السيدة صفية أم المؤمنين من سبايا خيبر تزوجها رسول الله . وقال شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام فى كتابه (الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز) فى الكلام على المجاز بالحذف : (وما أفاء الله على رسوله منهم ، تقديره : وأى شيء أفاء الله على رسوله من أموالهم ويدل على هذا المحذوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يملك رقاب بنى النضير ولم يكونوا من جملة النية) انتهى كلامه ، ومعناه : أن رقاب الأسرى لا تملك !

ونقول إن النبی صلى الله عليه وسلم أطلق أسرى يوم فتح مكة مناً عليهم فعرفوا فى التاريخ الإسلامى باسم (الطلقاء) ، وأطلق المسلمون أسرى بنى المصطلق مناً عليهم بعد أن تقسموهم فى النية .

فإن هذا نقطع ونحن محققون بأن الإسلام ليس فيه أبداً إباحة للرق لأن القرآن لم يذكر كلمة (الرق) ضمن مفرداته ، وإنما استعمل كلمة الأسر ، والأسرى (رق موقوف) وقد ذكرنا أن رقاب بنى النضير لم يملكها محمد صلى الله عليه وسلم ولا رقاب غيرهم .

وأما رأى الإمام أبى حنيفة فى أن لولى الأمر أن يقتل الأسرى أو يسترقهم أو يطلقهم مناً عليهم ، أو بالفداء . فما نحسبه إلا مدخولاً على أبى حنيفة فليس فى القرآن ما يوافقه . ولا له من السنة ما يؤيده . ومثل

أبي حنيفة على رجاحة فكره لا يصح صدور هذا الرأي عنه ولو كان ناقله هو الزمخشري في تفسيره .

وقد أخذ أبو حنيفة هذا الرأي ، إن صح صدوره عنه من آية بدر وهي « ما كان لني أن يكون له أسرى حتى يشخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم » (١) .

ومن أقوال المفسرين فيها أن النبي استشار أصحابه وفيهم أبو بكر وعمر ما يفعل بأشري بدر ؟ فكان رأى أبي بكر إطلاقهم ورأى عمر قتلهم ، فنزلت « الآية » وقيل إنها تأييد لرأى عمر .

ورأينا في هذه الآية أنها خاصة ببدر وليست حكماً عاماً . بسبب ضعف الإسلام في ذلك الوقت ، وأيضاً .. أن اللوم الإلهي للمسلمين في الآية منصب لا على اتخاذ الأسرى ثم إطلاقهم ، ولكن على العدول عن قتلهم في ساحة الحرب بعد أن مكن الله للمسلمين منهم إلى أمرهم بنية أخذ الفداء .

وكان قتلهم في الحرب إعظماً لشأن الإسلام وإرهاباً لمحاربيه وليس من خلق الإسلام ولا روحه التحريض على قتلهم وهم أسرى مجردون من أسباب الدفاع . بدليل قوله تعالى : « تريدون عرض الدنيا » (أى الفدية) .

فلأن الإسلام حرم استحداث الرق ، ولأنه أتى بأعظم وسيلة عملية لإلغائه . :
فلهذا أنا مسلم !!

الباب الخامس

أنا مسلم لأن :

- ١ - المستقبل للإسلام
- ٢ - الإسلام ممدق لما بين يديه من حقائق الديانات
- ٣ - التوراة والإنجيل مفتودان
- ٤ - الإسلام جماع الدساتير الاجتماعية والسياسية والدولية
- ٥ - الإسلام دين التربية البدنية
- ٦ - شرائع الإسلام تبنى الأسرة وتقيم الزوجية

المستقبل للإسلام (١)

العلم والفلسفة يهتئان العقول والقلوب لقبول الإسلام ديناً عالمياً :

ربما خيل لمن لا يعرف الإسلام أن هذا إعلان جرىء ، ولكننا نعتقد أنه متى عرفه فسيقرنا عليه ، فكل ما علينا الآن أن نقيم عليه الدليل :

نعم ، إن العالم بفضل تحرره من الوراثة والتقاليد ، وإيمانه في النقد والتمحيص ، يتمشى على غير قصد منه نحو الإسلام بخطوات متزنة ثابتة ، لا توجد قوة في الأرض ترده عنه إلا إذا انحل عصام المدنية ، وارتكست الجماعات الإنسانية عن وجهتها العلمية . هذا إجمال يعوزه البيان فإليك :

قذف بالإنسان إلى هذا العالم جاهلاً به غاية الجهل ، عمياً عن أسرارته كل العناية ، ولولا أن خالقه جل شأنه أوجده حيث الماء والنبات لمات ظمأً وسغباً . ولولا أنه منحه معارف ضرورية يستطيع بها أن يهرب من الضواري التي كانت تتعقبه ، ويختبئ من العوارض الطبيعية التي كانت تنصب عليه ، لما أمكنه أن يبقى أكثر من أيام معدودة . ولكنه وهبه عقلاً ليس لسلطانه حد يقف عنده ، فأخذ يستهدي بنوره يسيراً يسيراً ، حتى استطاع أن يأمن شر العوادي ، وأن يجتمع على أمثاله . وأن يكتشف أوليات العلم ، ومبادئ الحكمة . ثم ما برح يرقى حتى أسس الأمصار ، وأوغل في المعارف ، وسخر قوى الكون وسبر مسانير الوجود واخترع الآلات المعجبة ، وهو اليوم يحدث نفسه بالصعود إلى الكواكب ، وكشف (٢) عالم الروح والتحكم في نوااميس الحياة .

(١) هذا الفصل بقلم العلامة محمد فريد وجدى (بك) ساهم به معنا :

(٢) نستدرك على العلامة وجدى (بك) بأن كشف عالم الروح قد تحقق بالفعل :

هذا كله مشاهد محسوس لا يحتاج لتدليل ، ولكن الذى يحتاج لتنبيه هو أن الإنسان فوق كل ما يحصله من علم ، وما يكتشفه من مستور ، يزداد معرفة بما يجب أن يكون عليه الدين الحق ، وما يلزم أن تؤخذ به النفس من الأدب التويمية ، وما ينبغى أن يقيمه لتوثباته من المثل الأعلى للإنسانية الصحيحة .

فى أثناء تمشى الإنسان فى هذه السبيل الأدبية تحت ضوء العلم والفلسفة تستقط فى نظره ، الواحدة بعد الأخرى ، جميع الأوهام الموروثة والتعصبات التقليدية ، فىرى الخضوع لها عاراً عليه ، وسقوطاً لكرامته ، ويعمل على تطهير قلبه منها ، واجتثاث جذورها المنبثة فى أقصى ثناياه ، معتبراً ذلك من متممات وجوده الأدبى .

فتكون النتيجة الحتمية من وراء هذه المحاولات الثقافية فى هذه الناحية تأسيس الأصول الآتية :

أولاً : زوال آثار الوراثة الدينية .

ثانياً : انمحاء التعصب المذموم للعقائد الباطلة .

ثالثاً : قيام النظر العقلى مقام التقليد الأعمى .

رابعاً : قبول كل عقيدة تسلم من النقد وتنهض بها حجة .

خامساً : الميل إلى إيجاد زمالة عامة بين الناس كافة ، ومحاربة كل العقائد المفرقة للأهم ، والجامعة إياها شيئاً .

سادساً : الاتجاه إلى نصب العلم فاروقاً بين الحق والباطل بغير اعتداد برأى أية طائفة من الطوائف أو فرد من الأفراد .

هذه الأصول الستة لا محيص عن تولدها كثرة طبيعية للثقافة العصرية . وقد تولدت فعلاً وصارت جزءاً من الدستور العلمى لدى ألوف من المشتغلين بجميع الفروع العلمية ، وليس بينها وبين أن تصبح عنصراً رئيسياً من عناصر العقلية الأوروبية ، إلا أن تنتشر فيها المبادئ الفلسفية

وهي لا تزال بعيدة عن الدھماء لأسباب اقتصادية ، ولكن لابد من بلوغها هذه المنزلة بعد قرنين أو ثلاثة قرون .

فلذا بلغ العالم هذه المرتبة من التعقل ، والخلاص من آثار الوراثة ، ثم لاح له أن ينظر في الأديان التي يعتبرها إذ ذاك ، بقايا أثرية للعقلية البشرية ، تبين له أنه في صميم الإسلام ، وأنه في جهاده العلمي الطويل كان يعمل لإقامة دولته ، وإعلاء كلمته ، وهو يتوهم أنه يهدمه فيما يهدم من العقائد الباطلة ، والوساوس المعطلة .

فكما جاءت الحوادث مصدقة لقوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً » (١) الآية . وقد كانوا يعبدون الله سرّاً ويخشون أن يتخطفهم أعداؤهم ويمزقوهم شذر مذر ، فأتاهم الله خلافة الأرض ، وجعل دينهم ظاهراً على الأديان كلها ، كذلك ستصدق الحوادث ما وعد الله به من أنه سيرى الناس آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أن هذا الدين هو الحق «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » (٢) .

وقد ظهرت بوادر هذا الانقلاب في أقوال الكثيرين من علماء الغرب وقد رأى بعضهم ومنهم « برنارد شو » أن أوروبا قد لا يمضي عليها قرنان حتى تكون قد اتخذت الإسلام ديناً .

أي شيء يعتبر في حكمه هذا بعيداً عن العقل ؟ أليست الأصول الستة التي أثبتناها ، وهي أخص أصول الدستور العلمي ، هي نفسها أخص أصول الإسلام ، بل هي معناه وروحه والموجب لجعله ديناً للعالمين كافة في كل زمان ومكان .

لقد كلف الإسلام كل داخل فيه أن يكون متجرداً من كل ما يربطه بالماضي من دين ووراثة وتقليد ووهم وخيال . وأن يقبل عليه خالي القلب من كل صورة ذهنية ، ورأى سابق . على مثال ما يكون عليه الطفل ساعة تضعه أمه .

فإذا تمت له هذه التصفية ولقن أمور الدين ، أمر أن يتعقلها وأن ينظر في أدلتها ، ونهى أن يأخذ بها تقليداً مهما كانت مكانة الرجل الذي يقلده . وكلف أيضاً أن يتأمل فيما نصبه الله في الكون من معالم الحق ، وأن يدرسها دراسة التتبع لأسرار الخلق ، مخضعاً كل ما يحصله لأدق أساليب التحييص والتحليل حتى لا يتورط في الأخطاء فيضل ويضل ، وهو مسئول عن كل ما يستخدمه في هذا السبيل من حواسه ومشاعره ، ومحاسب حتى على جيشات خواطره وإنا لمقتبسون لك آيات من الكتاب تريك مكان هذه الأصول منه ، فأليك :

قال الله تعالى في ماهية الدين الحق : « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١) وقد شرح النبي صلى الله عليه وسلم هذه الفطرة فقرر أنها مثل الحالة التي يكون عليها الطفل ساعة ميلاده : « وكل مولود يولد على الفطرة . وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » أى أن كل مولود يولد على الدين الحق المطلق « الإسلام » ولكن أبويه ينقشان في عقله من الصور ما يغيران به هذه الفطرة السليمة لتعلق به فلا يستطيع عنها حولا .

وقال تعالى في ذم الظنون والأوهام : « إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » (٢) وقال : « وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً » (٣) .

(٢) الأنعام : ١١٦ ، يونس : ٦٦

(١) الروم : ٣٠

(٣) يونس : ٣٦

وقال تعالى في النهي عن اتباع الهوى : « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » (١) وقال في وجوب إقامة سلطان العقل : « أفلا تعلقون » (٢) . وكرر ذلك في آيات كثيرة بألوان مختلفة ، عشرات من المرات .

وقال في ذم الذين لا يعرفون للعقل حقه « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » (٣) « صم بكم عمى فهم لا يعقلون » (٤) وقال : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » (٥) .

وقال تعالى في المسئولية الشخصية ، وفي عدم جواز الاعتماد على الغير « كل نفس بما كسبت رهينة » (٦) وقال : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى » (٧) وقال « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً . ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل » (٨) (أى فداء) .

وقال تعالى في ذم التقليد الأعمى : « وقالوا (أى يوم القيامة) ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » (٩) وقال : « إذ تبرا الذين اتبعوا (أى يوم القيامة) من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبراؤا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار » (١٠) .

وقال تعالى في وجوب طلب الدليل القاطع على كل عقيدة ، وفي النعي على الذين يعتقدون تقليداً ، بغبر حجة : « ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه » (١١) « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (١٢) .

(١) سورة ص : ٢٦	(٢) البقرة : ٤٤	(٣) الأنفال : ٢٢
(٤) البقرة : ١٧١	(٥) الملك : ١٠ ، ١١	(٦) المدثر : ٣٨
(٧) النجم : ٣٩-٤١	(٨) البقرة : ٤٨	(٩) الأحزاب : ٦٧
(١٠) البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧	(١١) المؤمنون : ١١٧	(١٢) البقرة : ١١١

وقال في تسفيه أحلام الذين يجمدون على ما ورثوه عن آبائهم من
الآباطيل : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه
آباءنا ، أو لو كان آبائهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » (١) « بل قالوا
إنا وجدنا آبائنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » (٢) .

هذا دستور ديني جاء به محمد صلى الله عليه وسلم في زمن لم يكن فيه
للدستور أيّاً كان نوعه ، دولة في الأرض ، لامن الناحية السياسية ، ولامن
الناحية العلمية . أما من الناحية السياسية فقد كان لا يعرف أحد أن للحكومة
دستوراً قط . فكان الناس من هذه الناحية غرقى إلى يافئخهم في حكومة
الفرد لا يعرفون لهم حقوقاً ، ولا وجوداً معها .

أما أمر الدين فقد كان دستوره عندهم « اعتقد وأنت أعمى » كما قاله
العلامة « لاروس » في دائرة معارف القرن التاسع عشر . أما هذا معقول
وهذا غير معقول ، وهذا يحتاج للدليل . فعبارات كانت تجر إلى النار
المحرقة في تنانير كانت أعدت لذلك !

جاء محمد صلى الله عليه وسلم بذلك الدستور الديني وهو القرآن والناس
قاطبة على ما وصفنا من العمايات المتراكبة بعضها فوق بعض ، وقد جمدوا
على ما كانوا عليه حتى صار حالاً ملازماً لهم لا يتصورون الحياة على حال
غيره ، بل لا يحبون أن يسمعو داعياً يدعوهم إلى نقيضه ، وإذا أقدم على
ذلك وصموه بالجنون . وقد حكى الله ما قالوه للنبي صلى الله عليه وسلم
حين دعاهم إلى النور فقال تعالى :

« وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون » (٣) وقالوا :
« أئنا لناركوا آل هنتا لشاعر مجنون » (٤) ؟ فرد الله عليهم بقوله :
« أم يقولون به جنة ، بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون » (٥) .

(٢) الزخرف : ٢٢

(٤) الصفات : ٣٦

(١) البقرة : ١٧٠

(٣) الحجر : ٦٦

(٥) المؤمنون : ٧٠

فإذا كانت ثمرة هذا الدستور الإلهي في البقعة الفسيحة من الأرض التي استولى عليها المسلمون في أول الإسلام ، هي دخول أم برمتها فيه ، بغير إكبار ، بل بغير دعاية منظمة ، والعقول لم تصقلها العلوم ، والنفوس لم تصقلها الشكوك ، فإذا ينتظر أن يكون عليه حال العالم المتمدن إذا عرف الإسلام حق معرفته ، وتبين الناس أنه لا ينطبق على الدستور العلمي فحسب ولكن أصوله الأولية هي ذلك الدستور نفسه ، بالغاً أكمل ما يمكن أن يصل إليه من السمو والإحاطة بكبريات الأمور وصغرياتها ، بحيث لا تنفك حتى همسات السرائر ، وحركات الضمائر . « وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » (١).

العالم المتمدن يحاول حل مسألة الدين :

قد يقول معترض : إنكم تنفقون أوقاتكم في الكلام عن العالم المتمدن من ناحية الدين ، على حين أنه قد فرغ منها ، ولم يعد يخطر بباله وقد محض نفسه للبحوث المادية . وتسخير قوى الكون لحياته الدبوية .

الحقيقة أن المعترض غير مصيب فيما يقول . فإن العالم المتمدن اليوم أشغل ما يكون بالمسألة الدينية من جميع نواحيها . فإن كان لابد من الاستشهاد بأقوال أقطابه ، فإليك ما كتبه الأستاذ « هنري بيرانجييه » في المجلد الرابع والعشرين من مجلة المجالات الفرنسية ، قال : « إن المسألة الدينية أهم ما يشغل العالم المتمدن اليوم . لأن مستقبل الأمم المتحضرة يتوقف على حلها » .

ثم قال : « إذا كان النقد التاريخي قد حطم كل الأشكال المتحجرة في الأديان . فإنه لم يستطع أن يعدو على العاطفة الدينية . بل اعترف باستمرارها وشيوعها في كل دور من أدوار التاريخ ورأى أن كل تلك الآلهة المختلفة المتعاقبة ، تشهد بأن الإنسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم أنه . ففي كل جهة وكل زمان قد شوهدت حاجة الإنسان إلى الدعاء والعبادة والتضحية في أخس الأديان الوثنية . كما في أرقى المذاهب الروحانية . هذه هي الشرارة البسيكولوجية (أى النفسية) التي استخلصها من رماد العصور

الماضية تاريخ المقارنة بين الأديان . فن المحال أن يطفئها . ولكنه سينقلها إلى المستقبل .

ثم قال : « إننا نأمل الوصول إلى حل المسألة الدينية . وبخاصة لأن الديانة الفطرية (أى الطبيعية) قد ولدت منذ مائة عام . ودرست بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنسيين فجان جاك روسو ولامرتين ولامينيه وميشليه وكينيه ، كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة الجديدة . وقريب منا أرنت رينان وجيو وشوريه وساباتيه قد أمدوها بقوة عظيمة جديدة) انتهى .

نقول : ماهى هذه الديانة الطبيعية التى يعتقد كبار المفكرين فى الغرب بأنها الديانة العالمية العلمية المستقبلية ؟

إننا نأتيك بها على لسان أحد كبار أشياعها وهو الفيلسوف الفرنسى «كارو» فقد قال فى كتابه (البحوث الأدبية على الزمان الحاضر) ماأتى :

« وأصول الديانة الطبيعية ، هى الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات وعنى بها ، وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الإنسانى ، ووجود روح للإنسان متصفة بالإدراك والحرية ومحبوسة فى هذا الجثمان المادى أمدأ لتبتلى فيه ، وهذه الروح تستطيع بإرادتها أن تطهر هذا الجثمان وتنقيه ، إذا عرجت به نحو السماء ، ويمكنها أن تسفله بإخلادها إلى المادة الصماء ، والاعتقاد المطلق بسمو العقل على الحس ، ووضع الحرية الخلقية التى هى ينبوع وأصل جميع الحريات ، تحت سيطرة الاعتدال ، وإعطاء الصفات الفاضلة اسمها الحقيقى وهو الامتحان والابتلاء ؟ وتحديد غرضها الصحيح ، وهو التخليص التدريجى للنفس من علائق الجسم . والتهيؤ لساعة الموت بالزهادة وأخيراً الاعتراف بناموس الترقى . ولكن بدون فصل ترقى الإنسان فى مدارج السعادة المادية عن العواطف الفاضلة التى هى وحدها تبرر تلك السعادة » .

نقول : هل يعنى كل هذا الجهد الجاهد من الفلاسفة والمفكرين غير

محاولة الرجوع لدين الفطرة ؟ تحت تأثير حوافز من أنفسهم ومن تعجلى آيات الله لهم وفي الآفاق المحيطة بهم مصداقاً لتلك الآية الكريمة ؟

فالدين الفطرى - أى الطبيعى - آت لا محالة باعتبار أنه دين عالمى للبشر كافة بحكم العلم نفسه . والدين الفطرى هو الإسلام بنص كتابه ، وبموجب أصوله . فإذا أنس الناس تلكؤاً فى التمشى إليه . فذلك أمر طبيعى لأن أكثر الناس عوام يجمدون على ماورثوه ، ويستمتتون فى تأييده وإن كانوا لا يعقلون . ولكن بوتقة الوجود دائبة على صهر العقول جيلاً فجيلاً من الكدر العالق بها طبقة بعد طبقة . والحقائق فى الوقت نفسه تزداد ذبوعاً بينهم فلا يزال الأمر جارياً على هذه الوتيرة حتى لا يبقى من الناس من يعتقد فيما لا يعقل . وإذ ذاك تحل الروح الإسلامية فى العالم بكل ماقامت عليه من أصول عقلية . ومبادئ علمية ، فيتحقق أعظم إصلاح عالمى يتمناه المصلحون فى العصر الحاضر :

فى ذلك اليوم لا يستطيع مفكر كالأستاذ « هنرى بيرانجيه » المتقدم ذكره أن يقول : لما كانت الأديان ليست بشيء غير مظاهر رمزية للعاطفة الدينية فستلاشى الأديان عاجلاً أو آجلاً ، ككل الآثار الإنسانية ولكن تلك العاطفة لن تتلاشى أبداً إلا مع الإنسان نفسه .

نعم لا يستطيع أن يقول ذلك . لأنه يجد الدين الأخير منها هو تلك العاطفة نفسها . كما ينص عليه كتابه فى قوله : « فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١) . ويجد أن كل ماتستدعيه تلك العاطفة الدينية من معتقدات وعبادات ومعاملات مشروط فيه الرجوع به إلى حكم العقل والعلم . لا إلى تحكم الهوى والجهل . فكل حق وهدى وعلم وخير وترق . فهو فى شرعة هذا الدين الفطرى دين . وكل باطل وضلال وجهل وشر وتدل ، فهو فى شرعته كفر .

(١) الروم : ٣٠

هذا هو الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ديناً عاماً للبشر كافة . فهل تجد محيصاً للبشر عنه ؟؟

كيف يعقل ذلك والفطرة أساسه . والعقل نبراسه . والعلم مادته ؟ وهل للبشر محيص أو محيد عن هذه الثلاثة الأصول الطبيعية مهما حاولوا ذلك وتكلموه ؟ فإن كان في العالم أصول كلما أمعنت في البعد عنها ، ازدادت قرباً منها فهي الفطرة والعقل والعلم .

وهذا كله معنى قوله تعالى : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون . قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (١) .

« يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً . فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهلبهم إليه صراطاً مستقيماً » (٢) .

« يريدون ليطفنوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » (٣) .

« ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد » (٤) .

(٢) النساء : ١٧٤ ، ١٧٥

(٤) سبأ : ٦

(١) آل عمران : ٨٣ ، ٨٤

(٣) الصف : ٨

الإسلام

مصدق لما بين يديه من حقائق الديانات

لو اختلفت شريعة الإسلام في أصول العقائد عن الأديان السابقة عليه والمعترف عند المتدينين بأنها ديانات سماوية ، لكان مبرراً جحود أهل تلك الديانات له ولكن الإسلام يقول أنه جاء مصداقاً لما بين يديه . فهل صدق ما بين يديه فعلاً ؟

أهم ما أخذه المسيحيون على الإسلام هو إنكاره التثليث وإنكاره الصلب وإنكاره ألوهة عيسى ابن مريم عليهما السلام وإنكاره بنوته الإلهية !

فهل صلب اليهود المسيح ؟ وهل ادعى هو الألوهية ؟ وهل علمت دياناته تثليث الأقانيم ؟

وهل قال عيسى أنا ابن الله ؟

عن التثليث :

جاء في دائرة المعارف الفرنسية (لاروس) تحت كلمة تثليث ما ترجمته :

«إن عقيدة التثليث وإن لم تكن موجودة في كتب العهد الجديد (الأنجيل) ولا في كتاب الآباء الرسوليين وتلاميذهم الأقربين ، فإن الكنيسة الكاثوليكية والمذهب البروتستانتي الواقف عند التقليد يزعمان أن عقيدة التثليث كانت مقبولة عند المسيحيين في كل زمان . برغم الأدلة التاريخية التي تبين لنا كيف ظهرت هذه العقيدة ، وكيف علفت بها الكنيسة بعد ذلك .

نعم إن العادة في التعميد كانت أن يذكر عليه اسم الآب والابن والروح القدس ، ولكننا سندلك على أن هذه الكلمات الثلاث كان لها مدلولات غير ما يفهم منها المسيحيون اليوم . وأن تلاميذ المسيح الأولين الذين رأوا شخصه وسمعوا قوله . كانوا أبعد الناس عن اعتقاد أنه أحد الأقانيم الثلاثة المكوّنة لذات الخالق . كما يدعون .

وما كان بطرس حواريه يعتبره إلا رجلاً يوحى إليه من عند الله . أما بولس فإنه خالف عقيدة التلاميذ الأقربين لعيسى وادعى أن المسيح أرقى من إنسان وأنه أنموذج إنسان جديد . أى أنه عقل سام مقوله من الله مباشرة . وأنه كان موجوداً قبل أن يوجد هذا العالم . وقد تجسد فيه ليخلص الناس من الخطيئة . ولكنه مع ذلك متعلق بالآب » .

إلى أن قالت دائرة المعارف الفرنسية :

« وكان الشأن في تلك العصور . أن عقيدة إنسانية عيسى هي السائدة مدة تكوّن الكنيسة الأولى من اليهود المنتصرين . فإن الناصريين (سكان مدينة الناصرة التي تسمى بها النصارى) والأيبويتيين وجميع الفرق النصرانية التي تكوّنت من اليهود . اعتقدت أن عيسى إنسان محض مؤيد بالروح القدس ولم يكن أحد يهتمهم إذ ذاك بأنهم مبتدعون أو ملحدون .

وقال «جوستن مارتن» وهو مؤرخ لاتيني من أهل القرن الثاني للميلاد : إنه كان في زمنه في الكنيسة مؤمنون يعتقدون أن عيسى هو المسيح الموعود به في التوراة . ويعتبرونه إنساناً محضاً . وإن كان أرقى من سواه .

ولكن حدث بعد ذلك أنه كلما زاد عدد المنتصرين من الوثنيين ظهرت عقائد جديدة لم تكن من قبل » .

انتهى ما قالته دائرة المعارف الفرنسية .

ونضيف نحن إلى قولها ، إن الرومان كانوا يعتقدون التثليث قبل المسيح وكان الفرس والهنود يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم .

وكان التثليث عند سكان سيديريا القدماء وعند البوذيين والصينيين .

وقد جاء في تاريخ (موسيم) النسخة الإنجليزية ما ترجمته « لم يكن التثليث معروفاً عند المسيحيين حتى أواخر القرن الثاني . وأول من نطق بكلمة ثالث في المسيحية كان الأب « اثيناغورس » مراعاة منه لعوائد الرومانيين المنتصرين » (١) .

عقيدة الصلب :

كما كان التثليث في خرافات الأمم القديمة ، كذلك كان الصلب في خرافات الأمم الوثنية قبل التاريخ ومنها أهالي (النيبال) الذين كانوا يعبدون إلهاً اسمه (اندرا) وهو عندهم كان مصلوباً وثقب بالمسامير ليخلص البشر من الذنوب . ونجد صورة الصليب في معابدهم . وقال المصريون القدماء — قبل المسيح بألفي سنة — إن أوزيريس هو المخلص وأنه الفادي والابن الإلهي وأنه قتل ليفديهم !!

البنوة الإلهية :

ذكر « أدوين جونسون » في كتابه (نشأة الديانة المسيحية) ما يأتي :

« إن قول المسيحيين بأن عيسى ابن الله ، يرجع إلى مصدر روماني هو قولهم إن : روملوس ابن رياسلفيا ، ابن الله ، ورأى هذه نذرت العفة وانخرطت في سلك العذارى في هيكل الإله (فستا) ولم يقربها رجل على زعمهم ، وولدت « روملوس » من الإله « مارس » ، إله الحرب .

فلما دخل الرومانيون في المسيحية وعلموا أن المسيح ولد بهذه الكيفية المعجزة . وشابه مولده الخرافة التي في أذهانهم استسهلوا تسميته (ابن الله) !!

(١) ذكرنا في فصل «رسالة النبي محمد تحمل في أطوارها عوامل النجاح» نقلاً عن ميريل دوبينياه وعن كتاب تاريخ الكنيسة ما يؤكد قول موسيم عن تأثير الكنيسة بالعادات والاعتقادات اليهودية والوثنية تأثراً بلغ جوهر العبادة المسيحية ذاته :

وصعود المسيح ثم ظهوره في الأرض هو صعود «روملوس» وعودته إلى الظهور في سنة ٧١٦ قبل ميلاد المسيح ، وذكرت المؤرخة الشهيرة «آني بيزانت» في كتابها (المسيحية) أن فكرة الوحدة بين الأب والابن هي عقيدة البراهمة في إلههم (براهما) .

وتكلمت المؤلفة عن الأناجيل الأربعة التي جمعها المسيحيون في القرن الثاني شارحة مطابقتها لتلك الكتب المنتشرة بين الآسيويين والهندوس والبوذيين والشتوتيزميين والسيخ (١) ، منتقلة في المقارنة من سفر إلى سفر ومن رسالة إلى رسالة ، حتى تكلمت عن الآباء القدماء الذين عاصروا المسيح التاريخي وتلاميذهم من القرن الأول والثاني والثالث .

كما ذكرت المؤلفة أن التجسد الإلهي أو الميلاد ، جاء بالشكل المنسوب للمسيح قبل ميلاد المسيح بأزمة بعيدة جداً ، منسوباً لأبولو ومثيراس وديونيسوس . .

وأما ما جاء في الأناجيل من الآيات القائلة بأن الله أبو عيسى فلا تفيد البنوة على فرض صحتها وصدقها؛ فإن نفس هذه الأناجيل جاء فيها أن الله أبو الكل (٢) كما جاء فيها أن الله واحد (٣) .

(١) آني بيزانت من زعميات الفكر الإنجليزى ، توغلت في سياحاتها الدراسية في الهند حتى يظنون أنه لم يبق في الهند مكان مطروق أو غير مطروق إلا زارته وأقامت في معابده ووقفت على تاريخ أهله .

(٢) جاء في الآية السابعة عشر من الباب العشرين من إنجيل يوحنا قول المسيح عليه السلام في خطابه لمريم المجدلية : لاتلمسينى لأنى لم أصعد بعد إلى أبى وأبيكم وإلهى (ولهمكم) فسوى في الأبوة بين نفسه عليه السلام وبين الناس في هذا القول ، فلو لزم من هذا التعبير أنه ابن الله للزم أن يكونوا كلهم أبناء الله .

وكان المسيح عليه السلام يعبر عن نفسه بكلمة (ابن الإنسان) ولعل ذلك لحكمة إلهية حتى يقوم هذا التعبير في وجه دعوى البنوة الإلهية التي أوحى إليه أنه سيكون ضحيتها وذلك يظهر لمن قرأ الآيات ٢٠ في الباب الثامن و ٦ باب ٩ ، و ١٣ و ٣٧ =

عقيدة الألوهة :

ونشأت عقيدة ألوهة المسيح عن عقيدة بنوته الإلهية التي بينا أصلها الخرافى الوثنى ، ولم يدع المسيح لنفسه صفة الألوهة .

شهادة علمية :

فيصدق إذن قول العلامة « جون ينج » :

« إن الدين المسيحى عبارة عن مجموعة من الأديان المصرية القديمة والبابلية والآشورية والبرهمية والبوذية والمثيروزمية وغيرها من الطرق الفلسفية الطبيعية والعقلية ، التي لم تكن نتاج عقل فرد واحد ولكنها مجموع أعمال وأقوال متحدة صادرة عن جملة عقول مختلفة فى مدى أجيال متعاقبة » !!

شهادة أخرى :

والعلامة « كرنيليوس فاندليك » وهو أشهر مستشرق معاصر توفى ونحن نؤلف هذا الكتاب ، يتول فى كتابه العربى (كشف الأباطيل فى عبادة الصور والتماثيل) :

إن نحو ثلثين من المسيحيين فى عصرنا هذا ، هم بالفعل عبدة أصنام وإن لم يكونوا كذلك بالاسم .

ويقول عن عصمة باباوات روما ومدى علمهم بالكتب المقدسة :
ينبغى أن نذكر هنا ما كتب به البابا غريغوريوس الثانى إلى الملك لاون الايسورى كاسر الصور حيث يقول « أنت شبيه لعوزيا الذى كسر تلك الحية النحاسية المقدسة التي أدخلها داوود مع التابوت إلى الهيكل »

= باب ١٦ ، و ٩ ، و ١٢ و ٢٢ باب ١٧ ، و ١١ باب ١٨ ، و ٢٨ باب ١٩ ، و ١٨ و ٢٨ باب ٢٠ ، و ٢٧ باب ٢٤ ، و ٢٤ و ٤٥ و ٦٤ باب ٢٦ من إنجيل متى .
(٣) وفى الآية ٣ باب ١٧ يوحنا « وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك . ويسوع المسيح الذى أرسلته » والآية ٢٩ باب ١٢ لإنجيل مرقس .

مع أن عوزيا هو الجلد الثاني لحزقيا كاسر الحية . ومع أن الهيكل لم
يبن في أيام داوود كما يعرف من له أدنى اطلاع على العهد القديم . فكيف
استطاع عوزيا أن يكسر الحية بعدموته بسنين عديدة وكيف استطاع داوود
أن يدخلها في بيت لم يكن قد بنى بعد ؟!

ويقول «فانديك» عن الكنيسة المسيحية (وهذه القصة في كتاب المجامع
الكبير تأليف لاباى اليسوعى مجلد ٨ ص ٦٥٨) :

كما جعلوا المسيح إلهاً فقد جعلوا الصليب الخشبي المعلق في الكنيـ
س إلهاً . وهذا نص التريـمة التي تقال في السبت الواقع قبل جمعة الآلام (')
ورد في كتابي الخدمة اليومية الرومانية . وخدمة العذراء المباركة) : «السلام لك
يا أيها الصليب الرجاء الوحيد ، زد نعمة للأتقياء وهب للمذنبين مغفرة الخطايا»
ويعقب « فانديك » بقوله :

ولكن كهنة للرومانيين يقولون هذا باللاتينية الميتة . وعامة الشعب
لا تفهم ما يبررون به .

ويقول «فانديك» : إن طلبة مار يوسف عند الطائفة المارونية يقولون عن
القديس مار يوسف :

« يا أيها القديس شريك الثالوث الأقدس في خلاص النفوس » :

كما تقول طائفة الروم . والروم الكاثوليك في عيد القديس سيريـدونوس
مخاطبين إياه :

« لقد ظهرت محامياً عن الجميع وصانعاً العجايب يا أبانا سيريـدونوس
اللابس اللاهوت » فالآلهة المسيحيون صاروا خمسة بل ستة ، الأب والابن
والروح القدس والصليب الخشبي والقديس مار يوسف شريك الثالوث
الأقدس . . والقديس سيريـدونوس اللابس اللاهوت !! ومن يدري كم
سيبلغ عددهم على تقدم السنين .

نخرج من هذا العرض الصريح لأقوال ثقات المسيحيين ومحققهم وأصحاب الرعامة الفكرية عندهم بأن الديانة المسيحية الحاضرة وعقائدها وطقوسها ، لعبت في تأليفها الجهالات والأهواء، جهالات البابوات وأهواء الأقسام الوثنيين واليهود . . وليست جماعة البروتستانت بأحسن كثيراً من غيرها، ونخرج بنتيجة ملازمة لهذا، هي أن العقلاء والمحققين لا يعترفون بأن الديانة المسيحية الحاضرة جديرة باسم الدين . وأنهم يجهلون حقيقة أصل الدين وتفاصيل شريعته .

صحيح أن بعضهم قرروا أن عقائد التثليث والألوهة والبنوة لم تكن معروفة عند المؤمنين المسيحيين . ولكن قانون البحث العلمي يلزم في حالتنا هذه (١) بأن نرفض التسليم بوجود شخصية في التاريخ تدعى (عيسى المسيح) كما يلزمنا بإنكار هذه الديانة .

فلولا القرآن الذي أكد شخصية المسيح تاريخياً ورد شريعته إلى أصلها، لاعتبر التاريخ الديني أن تلك الديانة وذاك النبي خرافة من خرافات الأمم القديمة قياساً على ما ذكرناه من العقائد الوثنية والخرافات الماثلة لهذه المسيحية المبتدعة .

ويؤيد قولنا هذا ما ذكره «إدوين جونسون» أيضاً في نفس الكتاب السابق ذكره . قال : « إن دين اليهود كان قد تلاشى تقريباً قبل ظهور الإسلام . وإن دين النصارى كانت باقية منه مبادئ قليلة جداً في وسط الأمم الأوروبية حتى كأنه قطعة من السكر في البحر الملح .

فلما ظهر الإسلام قوى اليهود قوة كبيرة وصار علماءهم يكتبون باللغة العربية، واكتسبوا أموراً كثيرة من الإسلام حتى أحيوا دينهم بواسطة العلوم الإسلامية » .

(١) أى حالة وجود أصول في الديانة ثبت اختلافها وفسادها . ووجود صفات للمسيح يرفض العقل إقرارها

الصلب والألوهة أيضا

ومما يجب ذكره هنا أن بعضاً آخر من المؤرخين (١) قال إن نشوء القول بألوهة عيسى راجع الى أن الأحبار والكهنة اليهود خافوا اتباع الناس لديانته بعد رفعه ، إذ كان عليه السلام على سنن مقبول وقريب من القلوب فأشاعوا عنه أنه ادعى الألوهة ليزهدوا الناس فيه ويصرفوهم عنه .

وقالوا عن الصلب : إن دعوى الصلب نشأت عن اليهود المكذبين لعيسى ، لأنه لم ينتملها أحد من تلاميذه ولا من المؤمنين باعتباره شاهداً لوقوعها . وإنما أشاعها خصومه المكذبون له . وهذا سبب للتشكيك في صحتها على الأقل ، إن لم يكن سبباً لرفضها قطعاً .

جاء الإسلام إذن ليرد المسيحية واليهودية إلى أصلهما الإلهي وينفي عنهما التحريفات والأكاذيب . وكان في زمن الرسالة المحمدية علماء من أهل الديانتين ، أسلموا لأن الإسلام يطابق ما لديهم وينفي الابتداع عن دياناتهم ، ويحيى مصداقاً لبشاراتها ونبوءاتها ومصادقاً لأقوال النبيين موسى وعيسى عليهما السلام ، أن الله سيبعث من نسل إسماعيل رسولا بشرع وكتاب .

ولو لم يكن هناك دليل على أن الديانة المسيحية الحاضرة غير صحيحة إلا نفي القرآن لصحتها ، لوجب على كل ذى فكر حر أن يقبل هذا الدليل فإن منطق القرآن في النفي منطق عظيم مقنع لكل عقل . فهو لم يكتف . بأن ينفي عقائد المسيحيين المبتدعين (في التثليث والألوهة والصلب والبنوة) ولكنه قرن نفيه لها بأن تحداهم بأن يقدموا دليلاً على صدقها .

ومنطق العقلاء يقول إن صاحب الدعوى ملزم بتقديم الدليل عليها . ولكن القرآن قرر وهو يطالبهم بالتدليل ، أنهم عاجزون عن الدليل ولم يكتف بهذا بل تطوع بأن يبرهن على صحة نفيه لدعواهم وهذا أبلغ وسائل البرهنة لأنه برهان يستند إلى أربعة أركان .. قال القرآن :

(١) نقله الامام ابن القيم في كتابه (هداية الحيارى) .

« قالوا اتخذ الله ولدًا ، سبحانه ، هو الغنى ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، إن عندكم من سلطان بهذا ، أتقولون على الله ما لا تعلمون » ؟ ! (١)

وقال : « يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » (٢)

فما أعظم هذا العتاب الإلهى لو كانوا يدركون ، وما أشده على النفوس المؤمنة لو كانوا يؤمنون .

وقال مستدلا بالعقل والعرف على كذب عقائدهم :

« ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أياؤمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » ؟ ! (٣)

وهذه الآية التالية تفيد أنه ليس عند الله تعالى يهودية ولا مسيحية ، ولكنها شريعة واحدة أنزلها مجزأة حسب استعداد الأمم ومراعاة لمصلحتها فالإسلام هو هذه الشريعة ، والمسيحية الصحيحة هى إسلام ، واليهودية الصحيحة هى إسلام .. والرسالة المحمدية إنما هى تكميل الإسلام وتتميم بنائه . وقيم القرآن الحجة عليهم من أنفسهم حين تنازعت الديانتان ، فعلماء المسيحية يقولون : كان إبراهيم على شريعة عيسى ، وعلماء اليهودية يقولون : بل كان على شريعة موسى ، فيقول لهم :

« يا أهل الكتاب » (٤) - وما أبلغ هذا النداء لقوم يقدرّون نعمة الله عليهم بأن جعلهم أهل كتابه - « لم نحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ، أفلا تعقلون » ؟ ! (٤) فلو كنتم تعقلون لعلمتم أنه

(٢) آل عمران : ٧١

(٤) آل عمران : ٦٥

(١) يونس : ٦٨

(٣) آل عمران : ٧٩ ، ٨٠

لا يمكن أن يحسب من النصارى ولا من اليهود لأن اليهودية أمة، والنصرانية أمة، وليستا ديناً ، وقد عاش إبراهيم قبل زمان موسى وزمان عيسى ! .

«ها أنتم هؤلاء حاجبتم فيما لكم به علم» (١) - أى فى المسيح الذى تعلمون أنه ليس إلا بشراً وقلتم بألوهيته وقامت الحجة عليكم - «فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون. ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » (١) .

وكيف يعقل الفكر أن الإله يصلب ويصرخ ويستغيث بالله (٢) .
إن الله الذى أراد أن تبقى الدلائل على أصل الديانة التى حرفها كهانها ، قد زين لهم الإمعان فى الوهم والتحريف بصيغ متناقضة ليكون التناقض دليلاً عقلياً على فعلتهم :

فإنهم لو قالوا : إن عيسى نبي وإنسان ، ثم قالوا بصلبه ، لكان جائزاً فى العقل . . ولكنهم سموه إلهاً وصلبوه ! .

فلم يستطع العقل المسيحى المستنير أن يقبل هذا التناقض . فالتمس المتأخرون من كهنة المسيحية مبرراً يسوغ به فى العقل جواز صلب الإله ! فابتدعوا عقيدة الفداء والخلاص . . فأضافوا إلى المستحيل العقلى الأول . مستحيلاً ثانياً فاضطروا إلى أن يقولوا : الدين فوق العقل .

ونحن نقول معهم إن الدين فوق العقل ، ولكننا نفهمها على غير ما يتأولون ، هم يريدون إرغام العقل على قبول ما لا يهضمه .

ونحن نقول إن الدين يوجه العقل ويوسع له آفاقه ، ويشترط عندنا لقبول الشريعة أن تكون مقبولة عقلاً ، فالدين فوق العقل - أى أنه أعلم من

(١) آل عمران : ٦٦ ، ٦٧

(٢) ورد فى جميع الأناجيل مع اختلاف قليل فى الصيغة قول المسيح الذى نسبوه إليه حين وقع ماتوهموه من الصلب : (إلهى إلهى لم تركننى) ؟

العقل يأخذ بيده إلى مراميه فيقبلها العقل . ومن أصول ديانتنا أن نرفض من العقائد والشرائع ما يرفضه العقل لأنه حينئذ لا يكون شريعة صحيحة . ولكن تاويلهم لهذه الأصولية جعل عقلاء المسيحيين يتجهون إلى التحرر من الدين ، لأنهم لا يعرفون من الأديان إلا هذه الخرافات التي تأبأها عقولهم .

ولما كان الدين ضرورة للفطرة البشرية كما برهنا على ذلك ، فسيبحث هؤلاء المتحررون ، عن دين معقول . . وسوف لا يجدون ديناً معقولاً إلا دين الإسلام ، دين العلم والعقل .



مما قدمناه في هذا الفصل وفي غيره يثبت أن الإسلام مصدق لما بين يديه من حقائق الديانتين وأنه أصدق مؤرخ لسيرة عيسى وموسى عليهما السلام وأصدق مقرر لأصول ديانتهما وأنه حقاً تتميم للشرائع ونسخ للابتداع . ومن القرآن وحده يمكننا معرفة حقيقة الديانتين وليس أمامنا إلى هذه المعرفة سبيل سواه بعد ما اعترف علماء التحقيق التاريخي للأديان (١) بعجزهم عن تبين الصحيح من الزائف من متناقضات مؤلفي الأناجيل وكتب أصول الشريعة .

وبعدما بينا أن الإسلام خالف من العقائد المسيحية ، كل عقيدة لا يقبلها العقل ، وأقر ما عدا ذلك يثبت ، أن الإسلام دين صحيح .

فالإسلام ينكر استحالة مليون قطعة من الخبز إلى مليون جسد للمسيح لأن المسيح كان له جسد واحد (٢) وينكر أن الله يلد ابناً بأي طريقة من طرق الميلاد — كما ينكر العقل هاتين الدعويين !

(١) يراجع تفصيل ذلك في فصل « الإسلام نسخ اليهودية والمسيحية » وفصل « التوراة والإنجيل مفقودان » .

(٢) فإنه إذا قام بقداس الاستحالة ، مليون قس في ليلة واحدة ، يمكن في عقيدتهم أن تم استحالة ملايين كسرات الخبز ، إلى أجساد للمسيح باللاهوت والناسوت !

وينكر أن الله يتجسد . وينكر أن الشينيين المختلفين طبيعة يتحدان
فيتحولان إلى طبيعة أحدهما (١) ، وينكر أن الله يصلب .

وينكر أن الله يكون ثلاثة ، مهما أولوا هذا التثليث .

وينكر أن الله ينزل على نبي واحد أربعة كتب مقدسة ، مختلفة متناقضة
يكذب بعضها بعضاً ، ويطعن الله فيها على أنبيائه الثابتة نبوتهم ، بأنهم
زناة وعبداء أصنام !

وينكر الإسلام أن الديانات خارجة عن معقولة البشر .

هذا هو الإسلام المصدق لحقائق الديانات .

وتلك هي عقائده . ومن عقائد الإسلام أن تفكر بعقلك لتؤمن ولكن
المسيحية تعتقد أن عليك أن تؤمن أولاً ثم تفكر فيما يقوى إيمانك وأن
الدين قد يناقض أحكام العقل . وأن الدين منحة لادخل للعقل فيها !

فأى السبيلين أهلى ؟!

(١) وهو اتحاد اللاهوت بالناسوت وتحولها ناسوتاً كما برهنا على استحالة في
فصل « الاسلام نسخ اليهودية والمسيحية »

التوراة والانجيل مفقودان

لم يبق في نظر التحقيق التاريخي أى شك في أن التوراة التي أنزلت على موسى قد ضاعت نسختها الأصلية تماماً ومحييت من الوجود، وكذلك الإنجيل الذي أنزل على عيسى .

أما التوراة الحاضرة المتداولة بين أيدينا فمن تأليف جماعة من البشر :
وأما الإنجيل المنسوب إلى الحواريين الأربعة . فشأنه شأن التوراة ،
وبعض نصوص التوراة الحاضرة مطابق لأصل التوراة .

وبعض نصوص الإنجيل الحاضر مطابق لأصل شريعة عيسى .
وقد اهتدى المؤرخون إلى صحة هذه النصوص بالأدلة العلمية، واهتدى إليها المسلمون بتأييد قرآني لها .

أدلة ضياع التوراة :

التوراة كلمة عبرية معناها « التعاليم والشرعة » وتطلق عند اليهود على خمسة كتب يقولون إن موسى كتبها بيده وهي :

- ١ - سفر التكوين أو سفر الخلق .
- ٢ - سفر الخروج .
- ٣ - سفر الأحبار .
- ٤ - سفر العدد .
- ٥ - سفر الاستثناء .

وعلى كتب أخرى يزعمونها مكملات للتوراة فتصير بها ٣٨ كتاباً .

ومن المسلم به أن شرط التسليم بصحة كتاب ، والإقرار بأنه إلهي ،
أن نعلم بالسند التاريخي أن النبي الذي أنزل عليه الكتاب ، كتبه أو أملاه

على ثقة ، ثم أن يثبت أن هذا الكتاب وصل إلينا متواتراً أى معلومة مراحل انتقاله بين الأيدي الثقة ثم أيدينا .

وهذا السند التاريخي مفقود بالنسبة للتوراة بل توجد براهين من التاريخ تنطق بأن التوراة التي كتبها موسى مفقودة تماماً . فإن التوراة ظهرت لأول مرة بعد أن ملك يوشيا بن أمون أحد ملوك بني إسرائيل بثمانى عشرة سنة . وهذه النسخة أيضاً فقدت في غزو بختنصر لفلسطين . كما اعتمده جميع المؤرخين وفقدت معها سائر كتب العهد القديم . ثم كتبها عزرا (واليهود متفقون على هذا) معتمداً على حفظه وعلى بيانات ناقصة مغلوطة ، والخلاف بين المؤرخين وبين علماء اليهود ، هو أن عزرا كتب التوراة على أنها توراة موسى ، فالمؤرخون ينكرون هذا لأن الكتابين الأول والثاني من أخبار الأيام ، وقع فيها أغلاط كثيرة تاريخية فحقق المؤرخون أن التوراة هذه ليست إلا مجموعاً من الروايات والقصص المشتهرة بين اليهود في ذلك العهد ، جمعها الأخبار في كتاب بغير نقد ولا تمييز ، وسموها توراة . ونسبوا إلى عزرا بعد ضياع ما كتبه .

ولما كان الخطأ الكثير قد تحقق وقوعه في هذه التوراة قرر المؤرخون أنها لا يمكن أن تكون إلهاماً أو نصاً إلهياً نزل على موسى . فليست هي بتوراة موسى .

ونذكر هنا مواضع خطأ التوراة — كما أثبتها رجال التحقيق التاريخي لنشرك عقل القارئ في الاستنتاج الصحيح .

ذكرت التوراة العبرية (وهى المعتمدة عند اليهود بخلاف اليونانية والسامرية) أن الزمن من عهد آدم إلى طوفان نوح هو ١٦٥٦ عاماً .

وذكرت التوراة اليونانية أنه ٢٢٦٢ عاماً وذكرت السامرية أنه ١٣٠٧ وقد حقق المفسران العالمان (هنرى . و . اسكات) في تفسيرهما المشهور للتوراة أن صحة هذه المدة هي ما ذكرته السامرية ، بجدول

تفصيلي ذكرنا فيه أعمار الأشخاص الذين تسلسلوا من آدم إلى نوح . وأيد هذا الرأي العلامة «آدم كلارك» .

واختلطت النسخ الثلاثة في الإحصاءات العددية فقالت الآية التاسعة من الإصحاح ٢٤ من سفر صمويل الثاني « بنو إسرائيل كانوا ٨٠٠ ألف رجل شجاع وبنو يهودا ٥٠٠ ألف رجل شجاع » وجاء في الإصحاح ٢١ من سفر الأيام الأول « بنو إسرائيل كانوا ألف ألف ومائة ألف رجل شجاع ويهودا كانوا ٤٧٠ ألف رجل شجاع » .

فقال «آدم كلارك» في المجلد الثاني من تفسيره في ذيل عبارة صمويل لا يمكن صحة العبارتين وتعيين الصحيحة عسير .

وفي التوراة الحاضرة أخبار عن سليمان عليه السلام ، تدل على أنها مكتوبة بعد عهده ، أى بعد وفاة موسى بمدة ٥٠٠ عام فضلاً عن أن صيغة ما جاء فيها عن النبي سليمان تدل على أن مؤلفها فاسق ملحد في الباب الحادى عشر من الملوك الأول :

« أن سليمان ارتد في آخر عمره وعبد الأصنام وبنى لها الهياكل » .

وفي سفر التكوين في الباب التاسع عشر أن لوطاً زنا بابنتيه وحملتا منه ووضعتا ولدين ، وفي سفر صمويل الأول في الإصحاح الحادى والعشرين أن داوود زنا بامرأة أوريا وحملت منه فقتل زوجها بحيلة وتصرف فيها .

وقال دكتور «اسكندر كيدوس» في مقدمة قاموس بايبل—أى التوراة—

ما يأتى :

ثبت لى بظهور الأدلة الخافية أمور ثلاثة ، ثبوتاً يقينياً ، أولها : أن التوراة الموجودة ليست من تصنيف موسى ، والثاني : أنها كتبت في أرض كنعان أى بعد وفاة موسى لأن قومه لم يدخلوا أرض كنعان ولا أورشليم في عهده . والثالث : أنها كتبت بعد سليمان أى قبل نحو ألف سنة فقط من ميلاد المسيح ، في عصر هوميروس الشاعر ، أى بعد وفاة موسى بمدى خمسمائة سنة .

وقارن المؤرخ « نورتون » لغة التوراة بلغة غيرها من الكتب الموضوعية في عصر خروج الإسرائيليين من أسر بختنصر لهم في بابل ، فوجدها لغة واحدة لا اختلاف بين أساليبها . مع أنه بين الزمن المقول بان التوراة كتبت فيه وزمن خروجهم من الأسر ٩٠٠ سنة ، ومن المستحيل أن لا تكون اللغة قد طرأت عليها تغيرات في الأساليب والتراكيب والاستعمالات ؛ لأنه ثابت أن أى لغة في الدنيا لا تبقى على أسلوب واحد مدى ٩٠٠ سنة .

وأيده في رأيه المسيو « ليوسلن » أحد المتضلعين في آداب اللغة العبرية وتاريخها وقال « جون ملز » في صفحة ١١٥ من كتابه طبعة دربي سنة ١٨٤٣ : « اتفق أهل العلم على أن نسخة التوراة الأصلية وكذا نسخ العهد القديم ، ضاعت من أيدي عسكر بختنصر ، ولما ظهرت نقولها الصحيحة بواسطة « عزرا » ضاعت أيضاً تلك النقول في حادث « أنيتوكس » .

واتفق العلماء أيضاً على أن التوراة العبرية الحاضرة منقولة عن اليونانية مع بعض التحريف فيها وأنها ليست أصلاً لليونانية !

والطوائف المسيحية متفقة على أن اليهود حرفوا توراتهم في سنة ١٣٠ للميلاد ، ولا تعتمد هذه الطوائف إلا التوراة اليونانية . ومما يذكر بالعجب أن الترجمات المختلفة للتوراة غير منسوبة إلى مترجميها فلا تعرف أسماءهم (١) .

ثم ذكر المؤرخون نصوصاً استدلو بها على التحريف للتوراة ، بالزيادة عليها وبالنقص منها ، وبتأويل ألفاظها تأويلاً تعسفياً ... لا نرى أن نذكرها مخافة التطويل .

(١) ولو عرفت أسماءهم لكان ذلك عاملاً مهماً في معرفة زمان التحريف وأسبابه ومواقعه .

أدلة فقد الانجيل وتحريفه

لابد أن نشير إلى أن إجماع المسيحيين على صحة الأناجيل ، إجماع لا قيمة له من وجهة النظر العلمية فقد ثبت تاريخياً :

أن المسيحيين حتى سنة ٣٢٤ ميلادية . كانوا يرفضون التسليم بثمانية كتب من كتب العهد القديم وهى من أصول الإيمان المسيحى وهذه الكتب هى :

(١) كتاب استير (٢) كتاب باروخ (٣) كتاب طوبيا (٤) كتاب يهوديت (٥) كتاب زدم (٦) إيكليز ياستيكس (٧، ٨) الكتابان الأول والثاني لمقايين .

وكان رفضهم إياها لاعتقادهم أنها غير إلهية ، ثم انعقد منهم مجمع فى سنة ٣٢٥ ميلادية فى عهد قسطنطين إمبراطور الرومان ، فقبل هذا المجمع من الكتب المرفوضة : كتاب يهوديت . ثم انعقد مجمع آخر فى سنة ٣٦٤ م فقبل كتاباً آخر هو كتاب استير ، ثم انعقد مجمع آخر فى سنة ٣٩٧ فقبل جميع الكتب التى رفضتها المجمع السابقة ورفضها الشعب !!

ثم مجمع الإصلاح البروتستانتي فى زمن « لوثر » فقرر من جديد رفض الكتب الثمانية عدا تسعة فصول من كتاب استير (وعدده ١٦ فصلاً) .

فمن هذه التواريخ الجامعة تبين لنا قيمة إجماعهم ، ويسقط اعتبار هذا الإجماع سنداً تاريخياً يصح التعويل عليه .

وقد اتفق المؤرخون المسيحيون العلماء على أنه لا يوجد سند تاريخي يثبت أصول الإنجيل الصحيح ولا وجوده ، وكان الأسقف « كليمان » أسقف روما يدعى أن النصوص الأصلية كانت موجودة فى عهده وأنها هى المتداولة الآن وقد أثبت المؤرخون كذب الأسقف « كليمان » لأنهم حققوا أن توليه الأسقفية كان فى سنة ٩٥ م وحققوا أن الإنجيل لم يكتب

إلا في سنة ٩٦ م وهذا لا يدل على أنه إنجيل عيسى ، فقد كتب بعد رفعه بثلاث وستين سنة . واستشهدوا بأن الإنجيل الذي نزل على عيسى هو إنجيل واحد ، وليس أربعة أناجيل متناقضة ، فضلا عن سبعين إنجيلا كانت معتبرة حتى عهد «أوجستين» ، ثم عقد أوجستين مجعاً مسيحياً لاختيار أربعة منها ، وتروى عن كيفية الاختيار خرافة مضحكة وهي أنهم وضعوا الأناجيل على منضدة في حجرة مقفلة بالشمع ثم عادوا إليها في اليوم الثاني فوجدوها كلها على الأرض عدا الأناجيل الأربعة !

تحريف الانجيل

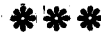
يكفي في إثبات تحريف الأناجيل أن ننقل ما قاله القس « ميخائيل مشاقه » في كتابه المطبوع باللغة العربية في بيروت (: أجوبة الإنجيليين على أباطيل التقليديين) . قال :

وأما تحريفهم لأقوال الآباء القدماء فلا بد أن نقدم دلائله فنقول :

« إن الأفشين المنسوب إلى يوحنا فم الذهب ، السدي يتلى في الكنائس في خدمة الافخارستيا . لا نجده مطابقاً عند الطائفة الواحدة لما عند الطائفة الأخرى فإنه عند الروم يطلب فيه من الأب السماوي أن يرسل روحه القدس على الخبز والخمر ، ناقلا إياهما إلى لحم ودم ، وأما عند الكاثوليكين فيقال فيه أن يرسله على الخبز والخمر لكي ينتقلا ويستحيلا . ولكنهم في مدة رئاسة مكسيموس غيروا فيه وقالوا : المنتقلان المستحيلان ، هرباً من دعوى الروم عليهم بأن الاستحالة تتم به .

وأما عند السريان الكاثوليك فيقال : « أرسل روحك القدس على هذا الخبز الذي هو سر جسد مسيحك ، ولا يوجد فيه كلام يدل على الاستحالة وربما كان هذا هو قول فم الذهب الصحيح ، لأن تعليم

الاستحالة في عصره لم يكن قد تقرر في الكنائس ، وقد ثبت عندنا أن واضع تعليم الاستحالة هو « نيكفور » بطريرك القسطنطينية » .



فإذا كان هذا التحريف والحلط واقعاً في كلام أحد القديسين في عصر انتشرت فيه الطباعة ، فما بالناس بعصر الإنجيل الذي لا طباعة فيه ولا كتابة ، وفيه كانت للأقلية الكاتبة ، الحرية المطلقة في الوضع دون خوف من رقابة أحد .

وهذه الأدلة مضافة إلى غيرها مما ذكرناه استطراداً في فصول هذا الكتاب ، تؤكد أن التوراة والإنجيل مفقودان وأن نصوص وتعاليم الديانات (المسيحية واليهودية) الحالية إنما هي تعاليم فاسدة للأحبار والقسيسين الجهلة ، كما اعترف عليهم مؤرخوهم الثقات .

ودين ضائع مفقود الأصل ، مخلوط بالأوهام محرف بغاية الجرأة لا يجوز اعتناق عاقل له .

فلهذا أنا مسلم !



الإسلام جماع الدساتير

الاجتماعية والسياسية والدولية

نكرر أن الإسلام لا يكتفى في تقرير أنظمتة الإصلاحية بالقواعد ولكنه يتجه بها لتكون مجدية عملية فهو من هذه الناحية يخالف النظريات الفلسفية الحاملة، كما يخالف في نواحيه الأخرى كل شيء سواه. فالتشريع الإسلامى، والأدب الإسلامى، والمجتمع الإسلامى ليست متأثرة بسواها ولكنها خالصة يميزها قلبها وأسلوبها وطريقتها.

كشفنا للقارئ عن كيفية بناء الإسلام للحياة العائلية وعن تكييفه للعلاقات بين الأفراد، وفي هذا الفصل نكشف عن مفاخر الإسلام السياسية والدولية وطريقته في نظام الحكم واختيار الحاكم.

طبيعة مهمة الحكومة الأولى : وهى حماية أمن الناس وأعراضهم ودمائهم وأموالهم ونشر العدل فيهم ، تستلزم توفر خصائص واشتراطات في شخص الحاكم ، ونظام الحكم .

جاء في القرآن قول الله تعالى حكاية لقصة موسى على لسان ابنة شعيب عليه السلام « يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوي الأمين » (١) ولا شك أن استئجار شعيب لموسى عليهما السلام ، كان ليوليه أموره وهذا نوع من الولاية والسيادة يدخل في باب الحكم .

روى عن أبي ذر رضى الله عنه قال : « قلت يا رسول الله ألا تستعملنى ! قال : فضرِبَ بيده على منكبى ثم قال : يا أبا ذر إنك ضعيف . وإنها

أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذ بحقها وأدى الذى عليه فيها » .

وأبو ذر من الصحابة المقربين من الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن النبی صارحه مع ذلك بأنه لا يصلح للحكم . . فاشتراط القوة فى الحاكم واشتراط الأمانة ، يقصدهما معنى واسع ، فالقوة يراد بها قوة البأس وقوة الفهم وقوة الشخصية وقوة ضبط النفس ليدفع الحاكم بهذه الصفات أذى بعض الناس لبعضهم ولكى لا يظلمهم ، ولكى يستطيع بقوة فهمه تعرف أحوال رعيته والفصل بينهم ، وليستطيع بقوة ضبطه لنفسه أن يعلم أن الحكم ليس سلطة يستبد بها كيف شاء ، وأنه ليس لذة شخصية ولا نفعاً مختلساً وإنما هو تكليف .

واشتراط الأمانة هو إحاطة للحاكم بسياج من الأخلاق الفاضلة التى يستلزمها والاضطلاع بمهمة الحكم . ومن الأمانة الحرص على شئون الرعية المادية والأدبية ، والحرص على الدفاع عنها . والحزم ، فإن الحازم لا يخون الحقوق بشفاعة الشافعين ، لا حقوق الأفراد ولا حقوق المجتمع على المذنب ولا حقوق الله على معتدى حدوده . ولا يعيل الحازم مع عاطفته الشخصية فى تقريب الأفراد أو إبعادهم .

وقد عد الفقهاء فى باب الأمانة : الرحمة والرفق بالرعية وتأديب المفسدين العائين بالأمن العام .

ف تلك الآية الصريحة وهذا الحديث النبوى قسم من دستور الحكم وما تتطلبه الحكومة من صفات لشخص الحاكم .

ويتممه قوله صلى الله عليه وسلم « من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم ، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة » .

وقوله صلى الله عليه وسلم « أبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغها إلى ؛ فإن من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة » وفي رواية . . « سد الله خلته يوم القيامة » .

فالإسلام حين يشترط في الحاكم ألا يحتجب دون حاجات الناس ، يسد باب المحسوبية وباب الرشوة. ويوفر للمحكومين أول أركان الاطمئنان وهو العدل فيهم والوقوف على احتياجاتهم .

وفي التشريع الإسلامي لا يجوز أن يعهد بالحكومة أو ولاية الأقاليم أو المدائن أو القرى (أو أى وظيفة عامة) إلى رجل يطلبها بنفسه أو يتطلع إليها لأن طلبه للحكم يجعله في نظر الإسلام رجلاً غير أمين وصاحب غاية شخصية، إما أن يكون الانتفاع المادى عن طريق الولاية أو الاستمتاع بلذة السلطان . وكلا الأمرين مناقض لمصلحة الشعب المحكوم .

ومن قديم الزمان كان طالب الحكم يعلل طلبه له بأنه يرى في نفسه القدرة عليه ، ولكن التعليل الإسلامى لهذه الرغبات هو الضعف وفساد الذمة وعدم الأمانة .

وشدد الإسلام على الحكام، حذرهم من الظلم وخوفهم الآخرة وقرر أن السلطة تقابلها المسؤولية « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته الحديث » وهذا أصل من أصول القانون الدولى الخاص فى العصور الحديثة، ابتدعه الإسلام ولم يسبقه غيره إليه .

ومن أحسن ما نرويه فى باب المسؤولية ليعطى القارىء فكرة عن الحكومة الإسلامية قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب « والله لو عثرت دابة فى العراق لرأيتنى مسئولاً عنها . فقيل له : وما ذنب أمير المؤمنين فى ذلك ؟ . فقال : أمير المؤمنين مكلف بإصلاح الطرق وتسويتها ليمشى عليها الناس والدواب ، بدون عثار واضطراب » .

فهذه الرواية عن عمر وهو إمام مشرع فى الإسلام تدل على أن الحاكم العام الإسلامى يجب عليه أن يباشر الولاية الخاضعين له مباشرة دقيقة فى كل شأن صغير .

تلك صفات الحاكم الإسلامى ، إن فقد بعضها لم يصلح للولاية .. ومن الولاية الإسلامية مناصب القضاء وكل ما يعطى صاحبه سلطة على الناس . وقد ندد القرآن بالحكام الظالمين ووصف حكام بنى إسرائيل مشدداً السخطة عليهم لظلمهم وأخذهم الرشوة فقال : « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه » (١) .

نظام الحكم :

ونظام الحكومة الإسلامية نظام دستورى بأوسع المعانى فالأمير يستمد سلطته وولايته من البيعة الشعبية العامة وتكون البيعة من أهل السيف (لأنهم قوته فى حماية الدولة) وأهل العلم ورؤساء العشائر ، وهذا التقسيم هو أوسع الحقوق الانتخابية فكل رئيس عشيرة إنما ارتضته واختارته عشيرته وانتخبته . وكل ذى سيف يتبعه فرسان يدينون له كما كان الحال فى الجاهلية وفى الإسلام وفى العصور الوسطى (وذو السيف هنا هو المحارب المشتهر) فكأنه بمثابة أحد القواد ، وأهل العلم معتبرون أعيان الوجوه فى كل مملكة متحضرة .

والأمير مسئول مسئولية دستورية كاملة لا أمام ناخبيه وأصحاب بيعته فقط ولكن أمام كل فرد من رجال الشارع . فالأعرابى الذى واجه أمير المؤمنين عمراً وهو فوق المنبر قائلاً : « والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحمد السيف » يمثل حدود هذه المسئولية الدستورية .

ومن أحسن ما يستدل به على أن الفرد فى ظل الحكم الدستورى الإسلامى لا يفقد حقوقه المباشرة فى السلطة والحكم ، أن من أصول شريعة الإسلام ، إذا بسط فرد مسلم حمايته على رجل غير مسلم وجب على الأمير احترام هذه الحماية ولو كان قوم الرجل فى حرب مع المسلمين . . . !

بينما لا يوجد اعتراف للأفراد بمباشرة حقوقهم في السلطة في أى نظام
دستورى من الأنظمة الحديثة .

وكفلت الشريعة الإسلامية جميع الحقوق العامة والخاصة فالأول منها،
الحريات المختلفة في التفكير والرأى والعقيدة والانتقال والاجتماع . والخاصة
كحقوق الزواج والملكية والحقوق العائلية والاقتصادية .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في إعلان الحرب وفي
المعاهدات وفي كل ما هو داخل نطاق الحكومة . فشرع بذلك النظام البرلماني
ويؤيد أن الحكومة الإسلامية حكومة اشتراكية القواعد ، أن بيت المال
يجمع الصدقات من المسلمين ليوزعها بنفسه على فقرائهم وهذا هو أساس
الاشتراكية الحديثة التي تحتكر الإنتاج وتوزع الربح ، ولكن الحكومة
الإسلامية نجت من الأضرار الاقتصادية لاحتكار الإنتاج واحتكرت جزءاً
من ربح الإنتاج تقوم هي بتوزيعه على مستحقيه وليس هذا الجزء باليسير
مضافاً إليه غيره من صدقات الكفارات وصدقات النافلة (١) :

وكما نجت الحكومة الإسلامية بهذا النظام الاقتصادي الفذ ، كذلك نجا
الشعب من هذه الثورات المدمرة والفتن التي تشوه نظام العالم بسبب حرص
الأغنياء وجوع الفقراء . فما دامت الزكاة مؤداة على وجهها الشرعى ولا
ضمان لهذا إلا أن يجمعها بيت المال ويوزعها ، فالاجتمع الإسلامى سليم
وأنظمتة موطدة . فإذا ما شحت نفوس الأغنياء فأكلوا تلك الحقوق فبشرهم
بحرب من الله ورسوله ، وحرب من الشعوب الجائعة ، يكونون حطامها
المبعثر .

(١) فان الصدقات المفروضة في الإسلام عدا صدقات النافلة التي رغب فيها بكل
وسائل الترغيب هي :
زكاة المال . وهي : (١) الأنعام (٢) والحراث (٣) والعين : وفرضت الزكاة
على التاجر في عروض تجارية . وزكاة الفطر

ومن اشتراكية الإسلام الدولية ، محو الفوارق الجنسية وإحلاله الإخاء العالمى الإسلامى محلها ، وهو جنسية لا غبار عليها فى نظر القوانين الحديثة فإن المراد من تكليف الجنسية هو تنظيم الحقوق والواجبات وتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم . وقد نظمها الإسلام كلها على أساس الإخاء العام وقد آمن فقهاء التشريع من الأوروبيين بعظمة هذا النظام فى ضمانة السلام العالمى فاقترح (جورج بوديبيراد ملك بوهيميا فى سنة ١٤٦٠ ميلادية) مشروع حلف أبدي مسيحى لتحقيق السلام الأوروبى بين المسيحيين ؟

واقترح « توماس كبانيل » صيانة السلام بتأسيس وحدة أوروبية تحت سلطة الكنيسة وملك أسبانيا .

وأشار « سولى » بحلف يكون أساسه المبادئ المسيحية . و« جان جاك روسو » اقترح حلفاً بين أولياء أمور أوروبا لأن قيام دولة عهدية استقلالية كان فى نظرهم هو وحده الكفيل بتحقيق السلام الأبدى ومع ذلك لم يتحقق هذا الحلم الأوروبى ، الذى جعله الإسلام - وأوروبا فى ظلمات الجاهلية - حقيقة واقعة ونظاماً قائماً ، فإن الحكومة الإسلامية كانت حكومة عهدية استقلالية بكل معانى الكلمة الدستورية والفقهية .

والحكومة العهدية الاستقلالية (١) هى فى الوضع السياسى مرادف للحكومة الاشتراكية من حيث المعنى الاقتصادى . ولا أظننى فى حاجة إلى تفسير هذا كى لا نخرج إلى بحث دستورى ليس من موضوع الكتاب .

(١) والمراد بالحكومة العهدية الاستقلالية هى ذات النظام الاتحادى كاتحاد الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الألمانى قبل الانقلاب الأخير فقد كان لكل مقاطعة أميرها وكان الإمبراطور هو ممثل الدولة العهدية المتحدة ، فلا بد فى الإسلام من إمبراطور مسلم يرمز إلى مجد الإسلام ، كما يرمز الملك إلى مجد الدولة ويمثلها . فإن الإمامة أصل من أصول الحكم فى الإسلام وهى غير موجودة اليوم فالمسلمون يصفهم أمة لا يعرفون لهم ملكاً وإن عرفت كل أمة مسلمة كصر والعراق والحجاز أن لها ملوكاً ولكنه ملك سياسى : لا يغنى عن وجود المالك الإسلامى الذى يمثله إمام ملك واحد .

وإنما نذكر أن الشريعة الإسلامية التي يقول قرآنها: « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » (١) لا يكون أساس نظامها إلا اشتراكياً ، فصراحة الآية في نفي المفاخرة بالقوميات واللغات والألوان ومحو فوارقها ، دليل على دعوة الاشتراكية والمساواة ، التي يبرهن عليها الإسلام ويذكر أنها أصل كوني ، ببيدته تستلزم ذلك وهي وحدة الأصل وتساويه .

والإسلام الذي يحارب الأثرة في الأفراد ، يحارب الأثرة في الأمم والشعوب فلا يجعل لأمة على أمة سبيلاً ، ولا يجعل أمة هي أذكى من أمة ولا سبيل لمحى الأثرة الدولية إلا النظام الاشتراكي والحكومة العهدية الاستقلالية ، كما جاء بهما الإسلام .

وأول من عقد المؤتمرات بمعناها الحديث للتشاور في مصالح الأمة على اختلافها ، هو الإسلام .. فالقرآن يقول « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات » (٢) الآية .

فشهود المنافع المقصودة أيام الحج هو الانتماء في شئونهم والتفكير في الوسائل المؤدية إلى خيرهم وهذا هو أول مؤتمر دورى دولى عرفه العالم .

من أنظمة الإسلام الدولية :

١ - عصبة الأمم ٢ - المحالفات ٣ - السفارات .

مقتضى نظام الدولة العهدية الاستقلالية أن لا تكون لأمة سيادة على أمة ، وأن لا تعتدى أمة على سيادة أمة . وهذا ما يسمى في القانون الدولى العام : نظام التبعية المتبادلة ، وهو الضمان للسلام الإنسانى العالمى ولوحدة كيان الأمم .

ويقتضى هذا النظام قيام هيئة دولية تحميه ، هي هيئة عصبة الأمم في الاصطلاح الحديث : وقد فشلت عصبة الأمم لأنها لا تملك جيشاً دولياً يحمي إرادتها ويقوم بحرب الجزاءات ضد الدولة التي تخرق نظام العهد ولكن الإسلام وضع نظام عصبة الأمم على أقوم أساس في قول القرآن :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأبغضنا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين » (١) .

وألحق الإسلام بأمم المؤمنين ، كل أمة لها عهد مع أمة مسلمة فإنه لا يجوز للأمة الإسلامية أن تنصر دولة معتدية على دولة ، ولو كان المعتدي عليها غير مؤمنة ، وبذلك أعلن الإسلام حقوق الأمم الدولية إعلاناً تطبيقياً كما هو مذكور صراحة في موادعة النبي لليهود التي جاء فيها :

« وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . . . وأن يهود بني النجار ويهود بني الحارث ويهود بني ساعدة ويهود بني جشم ويهود بني ثعلبة ولجنّة ولبنى الشطيبة مثل ما لليهود بني عوف وأن موالي ثعلبة كأنفسهم ... وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم » .

فعصبة الأمم كما دلت عليها نصوص هذه المعاهدة تتكون من الأمم الإسلامية واليهودية والمسيحية على أوضح أساس ولكل أمة متعاهدة حقوقها الصريحة المعلنة في هذا العهد فليرجع إليه في مكانه .

ولعصبة الأمم الإسلامية جيش يوقع الجزاء الحربي على الأمة المعتدية كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين نقضت قريش العهد فإن قبيلة بكر حلفاء قريش قد اعتدت على خزاعة حلفاء النبي ، فأعلن الإسلام الحرب

على بكر وحلفائها واعتبر نقضها العهد وعدم تأديب حلفائها لها . اشتراكاً من الحلفاء في نقض العهد يقتضى توقيع الجزاء وانتهت هذه الحرب بفتح مكة وانتصار المسلمين .

وقد حاز القانون الإسلامى الدولى أرفع مراتب العظمة لأن أساس السياسة فى الإسلام هو الخلق الفاضل ، فالقرآن يقول فى الوفاء بالمعاهدات :

« وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين » (١)

وما أعظم أن يجعل الإسلام ، الوفاء بالعهد السياسى ، من التقوى أصل الإيمان ، وأن ينهى عن نقض الحلف ، وأن يبيح تجديد العهد لمن رغب من المشركين تجديده .

يضع القرآن - دستور الإسلام - هذه القواعد النبيلة وهو يعلم أن كفار قريش كانوا يتعاهدون مع النبي ليأمنوا سطوته وهم على نية الغدر بعهدهم متى استعدوا للحرب . ومع ذلك يحرص على سياسته الدولية الفاضلة ولا يجاريهم فى خفر الذمة ونقض العهد .

وينحاف الإسلام على أهله أن يؤثر فيهم غدر هؤلاء الناس فيقابلوهم بمثله ، فيستعد لذلك بطريقته الخاصة من التأثير فى القلوب .

فيمهد بقوله :

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون . . . » (٢)

وإلى هنا نجد أن هذه الأخلاق التي يوصى بها إنما هي أول أركان الآداب الإسلامية وأنها مستقرة في نفوس المسلمين ، يألفونها ويستيقنون ضرورتها لإسلامهم .

فيعقب على هذا الأمر اليقيني بقوله : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » (١) فيعلمهم أن الوفاء بالعهد يدخل ضمن خلق العدل والإحسان وأن الإخلال به يدخل مع الفحشاء والمنكر والبغى ، لتسترد نفوسهم الغدر كما استردت البغى والفحشاء والمنكر .

ويسمى العهد عهد الله ، تعظيماً له وتوكيداً .

ثم يقول « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً » (٢) فلم يقتصر الإسلام في هذا الأمر الخطير - أمر قوم أقوياء بالوفاء لقوم مخادعين غادرين ضعفاء - لم يقتصر على العظة وإنما أرسى هذا الأمر على صخرة المعتقد الديني النفسى . وهذا جانب من سياسة الإسلام الفاضلة ومن طريقة تعليمه السياسى الفذة .

وفى ظل القانون الإسلامى الدولى وجدت كل أمة سلامها وسلامتها فأمان خالد بن الوليد فى خلافة أبى بكر لأهل العراق ولأديانهم وعاداتهم ، وصلحه مع أهل الحيرة ،

وأمان عمر رضى الله عنه لأهل إيلياء يعطينا الفرق الهائل بين العهد الإسلامى النبيل وبين الاستعمار الأوروبى .

ونثبت هنا أمان عمر كثال لصيغ ودلالات العهود الإسلامية :

«بسم الله الرحمن الرحيم .. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين ، أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم

وسقيهما وبرئها وسائر ملتها ، أنه تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من حيزها ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم . ولا يكرهون في دينهم ولا يضار أحد منهم . ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية (١) كما يعطى أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم . فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام معهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ... الخ» (ص ١٥٩ من الجزء الرابع من تاريخ الأمم والملوك للطبري) .

مقارنة سطحية :

حين تعلن أمة الحرب على أمة في هذا العصر الحديث ويكون لاحدى الأمتين رعايا في بلاد الأخرى تعتمد الأمتان المتحاربتان إلى اعتبار رعايا كل منهما أسرى حرب بدون حرب ! فانظروا إلى هذا وانظروا إلى النظام الإسلامى وإلى نص الدستور القرآنى ، فإنه يأمر من شاء أن يبقى في البلد التى تحارب قومه على شرط أن لا يغدر ولا يخون . فليبق وهو آمن آمناً كاملاً ، ومن شاء أن يرحل إلى بلاده وجب تأمينه ووجبت حراسته حتى يصل إلى بلاده ، وتعتبر حمايته إلى أن يصل بلاده فرضاً شرعياً على الوالى المسلم . . . ومتى وصل إلى . . . قومه اعتبر بعد ذلك محارباً .

لو لم يكن فى سياسة الإسلام الدولية إلا هذه الأمور التى ذكرناها لكان جديراً بأن تسجد الأمم وتعنو لعظمته ، لأنه معلن حقوقها وكافل سلامها وأمنها ، ولكن فيه غير ذلك كثير .

فى الإسلام مناطق الحياد ، وفى الإسلام نظام التحكم :

وفى الإسلام أن الصلح الحربى يكون بين جميع الأمم المتحاربة لا مع إحداها .

(١) هى فى مقابل الحماية ونفقة الحرب كما سبق أنوضحناه :

وفيه أن عصبة الأمم الإسلامية تعمل لحساب الأمم والشعوب لحساب الدول .

وعصبة الأمم الإسلامية مستوفية لجميع الأركان . ففيها :

نظام الاشتراكات المالية ، إذ أن الخراج يصرفه الوالى فى مصالح الأمة التى يحكمها ويرسل الباقي إلى الإمام لسد نفقات الجيوش والدفاع .

وفى نظام تسجيل المعاهدات . فقد كان التسجيل معروفاً بتعليقها على الكعبة .

وفى الوساطة والتحكيم والصلح . وفى الجيش الدولى الذى ينفذ قراراتها - وهذا ما ليس لعصبة الأمم الأوروبية ولا لهيئة الأمم المتحدة !

وفى النظام الدولى الإسلامى حق تقرير المصير ، وفى مبدأ الاستفتاء العام (١) .

وفى أخيراً الكمال والوفاء والشهامة السياسية ، والنبيل الإنسانى . وحكومته أصلح حكومة . وحكامه أسمى الرجال .

فدين هذا جانب واحد من جوانبه ، جدير بأن يكون عقيدة كل مثقف .

فلهذا أنا مسلم

(١) يمكن مراجعة تفاصيل هذه المبادئ والأنظمة بتوسع فى كتاب (عصبة الأمم) للعلامة أحمد وفق :

الاسلام

دين التربية البدنية

إذا نظرنا إلى الألعاب الرياضية في تاريخ الإسلام نظرة العصر الحديث إليها من حيث هي ضروب متعددة من الألعاب لها حركات مرسومة وشروط موضوعة ومباريات وقوانين معترف بها اعترافاً دولياً حكمنا بأن العرب والدول الإسلامية لم تبلغ في الرياضة مبلغاً يستحق الذكر . وإذا نحن قسناها بما عرف عن الإغريق القدماء وجدناها دونهم بلا جدال فإن الألعاب الأولمبية القديمة وما كان يحيط بها من مراسم وحفلات وأعياد لم يكن لها شبيه في تاريخ الإسلام ، ولم يهتم المسلمون حتى في العصور التي تلت صدر الإسلام والتي كثر فيها النقل عن المذنبات المجاورة ، بممارسة الرياضة على الوجه الذي عرفه الإغريق من حيث الأعياد الرياضية والبطولات في مختلف الألعاب .

أما إذا نظرنا إلى الألعاب الرياضية من حيث هي تربية بدنية وحياة تأنف الترف والحمول والترهل ، وتدفع إلى النشاط المتجدد والحركة الدائمة وتبعث في النفس قوة الإرادة ومضاء العزيمة ، وضبط العواطف وحب الكفاح . فلنا نجد تاريخ الإسلام عامراً بالشواهد التاريخية التي تثبت أن العرب خاصة والمسلمين عامة كانوا يحبون حياة رياضية بالمعنى الواسع ، تلك الحياة التي تبنى الأجسام بناء جميلاً رشيقاً قوياً تحتمل معه الصعاب وتدللها فتسعى لبلوغ المثل الأعلى في الحياة .

والواقع أن الحياة التي كان يحياها العرب من أقدم العصور ثم في عصور الإسلام هي حياة رياضية لا شك فيها . ولقد فرضت عليهم الطبيعة والبيئة نوعاً من الثقافة الرياضية والتربية البدنية ، لم يكن له مثيل في البلاد المترفة

ذات الطبيعة المواتية والرخاء والدعة ، فإن طبيعة البلاد العربية الوعرة وجوها الجاف ، وعيشة القبائل الرحل ، وما تمتاز به من حياة حرة طليقة تعتمد على الرعى والفروسية والغزو ، كل ذلك جعل العربي يولد ويعيش ويموت في بيئة كلها حركة ومخاطرة وكفاح . ولئن افتخر الإسبرطى بألعابه المختلفة وخبرزه الجاف وصرامة تربيته فإن العربي يفخره بألعاب الفروسية والسيف والثريد الأسمر ، وقسوة الطبيعة التي تهب القوى كل شيء وتحرم الضعيف من كل شيء .

ألعاب القوى :

وفي حياة النبي صلى الله عليه وسلم مثال باهر لتلك الحياة الرياضية الفذة . فإن كتب التاريخ والسيرة النبوية تحدثنا بأنه عليه أفضل الصلاة والسلام انتزع من أمه « آمنة » ومربيته « بركة » ليجري على سنة العرب من إرضاع أبنائهم في الصحراء وتنشئتهم هناك لتشيع أجسامهم من هواء البادية الصافي النقي ، فتقوى رثاتهم وتصح أبدانهم . وتألف نفوسهم شظف العيش وخشونته ، فلا تميل إلى الترف والحمول والدعة . وهذه الحياة فيها من ضروب الرياضة الخفيفة كالجرى والسباق والتفزز من فوق الصخور وما إلى ذلك ، ما يجوز أن نسميه (ألعاب القوى) وقد مارس النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحياة في طفولته ، كما مارسها كل من ساروا على تلك السنة من أشرف العرب وساداتهم . وقبل البعثة النبوية بسنين عديدة كان عليه الصلاة والسلام يحيا حياة خشنة مرهقة ويقضى معظم أوقاته في تسلق الجبال المكية الوعرة للوصول إلى غار حراء ، الأمر الذي يتطلب مرونة في الجسم وقوة لا توائى إلا كل من قضى طفولته وشبابه في تمرينات رياضية وبيئة تنفر من الكسل والتراخي . وحتى في أواخر أيام حياته كان عليه الصلاة والسلام حريصاً على رياضة جسمه ، فقد ذكرت عائشة رضي الله عنها أن النبي سابقها في الجرى في أحد أسفاره فسبقها مرة وسبقته أخرى .

الجمباز :

وفي الإسلام رياضة أخرى تشبه (الجمباز) في العصر الحديث وإن تكن في صورة مصغرة ، ونعني بها الصلاة التي كتبت على المؤمنين « كتاباً موقوتاً » (١) فانصلا - فضلاً عن كونها عماد الدين وفرض من أهم فرائضه رياضة جمبازية خفيفة تفيد الجسم جداً لو أدت على وجهها الصحيح ، فهي وقوف وركوع وسجود وجلوس على العقبين في حركات منتظمة يستغرق كل منها وقتاً بطول ويقصر حسب ما يتلى فيها من الآيات والدعوات والتحيات وفي تكرارها بعد كل أذان خمس مرات في اليوم والليلة ، تنشيط للجسم والدورة الدموية - قال الله تعالى في سورة البقرة « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » (٢) وفي سورة هود « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل » (٣) .

الفروسية :

وركوب الخيل (الفروسية) رياضة إسلامية هامة لا نبالغ إذا قلنا إن أحداً من الشعوب لم يهتم بها اهتمام الإسلام . ويكفي أن الله شرفها بالذكر في كتابه العزيز إذ قال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » (٤) وقال : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة » (٥) وقال : « إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد » (٦) وأكثر من ذلك : أن الله عز وجل شرفها بالقسم إذ قال « والعاديات ضبحا . فالمواريث قدحا . فالمغيرات ضبحا . فأثرن به نقعا . فوسطن به جمعا . إن الإنسان لربه لكنود » (٧) .

وتحدثنا كتب السيرة النبوية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان سيد الفرسان في عصره . وقد سمع ذات يوم نبأ هجوم مفاجيء فقفز فوق فرس غير مسرج ولا ملجم وراح يعدو به والصحابة من خلفه يعدون .

(٣) هود : ١١٤

(٢) البقرة : ٢٣٨

(١) النساء : ١٠٣

(٦) سورة ص : ٣١

(٥) النحل : ٨

(٤) الأنفال : ٦٠

(٧) العاديات : ١ - ٦

ومن أقواله عليه الصلاة والسلام في الخيل : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة » وهو يعنى بالخير آداب الفروسية وما تغرسه في النفوس من الشجاعة والشهامة والنبيل . وجاء رجل ذات يوم فقال للنبي صلى الله عليه وسلم « إني أريد أن أعد فرساً » فقال عليه الصلاة والسلام « فاشتره إذن أدهم (أسود) أو كيتاً (بين الأسود والأحمر) أقرح (أتم خمس سنين من عمره) أو محجلاً (أبيض القوائم تجاوز البياض أرساغه) مطلق أيمنين فإنها ميامين الخيل » ، وقال : « عليكم بإناث الخيل فإن ظهورها حرز وبطنها كنز » ، وكان صلى الله عليه وسلم يستحب من الخيول الشقر ويقول : « لو جمعت خيول العرب كلها في صعيد واحد ما سبقها إلا الشتر » . وكان يكره من الخيل الشكال (أن تكون ثلاث قوائم محجلة والواحدة مطلقة أو العكس) .

وكان عمر بن الخطاب يأخذ بيده اليمنى أذن فرسه اليمنى وبيده اليسرى أذن فرسه اليسرى ويثب فوقها فكأنما ولد على ظهر فرس .

ومما وصف به العرب الخيل قولهم عن الجواد الجيد : (إن تركته نعس وإن حركته طار) ... وقولهم عن أحب الخيل : (الذي إذا استقبلته قلت نافر ، وإذا استعرضته قلت زافر ، وإذا استدبرته قلت زاجر) (أي عظيم الكفل ممثله) . وأرسل مسلم بن عمرو ابن عم له إلى الشام ومصر لشراء خيل له فقال ابن العم : (لا علم لي بالخيل) فقال : (أأنت صاحب قنص ؟) قال : بلى . قال : فانظر كل شيء يستحب في كلب الصيد فاطلبه في الفرس . فاشترى خيلاً لم يكن في العرب مثلاً .

ولأننا استرسلنا في ذكر الخيل وما وصفت به طوال العصور الإسلامية لاحتجنا إلى فصول طويلة ، فقد عني بها العرب والمسلمون أكبر عناية وأطلقوا عليها من المسميات شيئاً كثيراً جداً ، حتى أنهم لم يدعوا عضواً من أعضاء الفرس ولا ظاهرة من ظواهره إلا وصفوها وسموها . وفي كتاب (عيون الأخبار) لابن قتيبة و (أبيات المعاني) في وصف الفرس

و (أدب الكاتب للمؤلف نفسه) وغير ذلك من المؤلفات سجل كبير لمن أراد التوسع .

وكانت الخيل تتخذ في السلم رياضة للعدو بمختلف أنواعه والقفز والسباق واللعب بالسيف والرمح والجريد ، وفي الحرب مركب قتال وكانت لها أنساب كأنساب الشرفاء قد تمتد إلى أكثر من عشرة بطون .

الصيد والقنص :

رياضة قديمة جداً وكان لها في تاريخ الإسلام شأن يذكر .

ومن اشتهروا ببراعتهم في صيد الغزلان من المسلمين حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب وغيرهما من الصحابة والأنصار . وقد ورد الصيد والقنص في القرآن الكريم وأولع به من الخلفاء عدد كبير ، وكان بعض خلفاء مصر من الفاطميين كالعزيز يصطادون السباع في البراري وكانوا يصطادون راجلين أو على جيادهم بالقسي والنشاب والرمح ويصطحبون كلاب الصيد والصقور ولهم في ذلك أخبار وأشعار كثيرة .

وقد قالوا : إن علامة سرعة الكلب أن يطول ما بين يديه ويقصر ظهره ، وكثيرا ما كان الصيادون يعمدون إلى الخيل في اصطياد السباع إذ كانوا يحفرون لها آباراً فوق التلال ويغطونها بالأعشاب لتسقط فيها . وكانوا يقطعون السمك الكبير ثم يشرحونه ويلقونه في النار حتى تفوح رائحته لاجتذاب السباع ثم يطرحون إلى جوار النار قطعاً من اللحم ممزوجة بالخرق الأسود (نوع من السم الخفيف والأفيون) حتى إذا أقبلت السباع أكلت منها فتخدرت فاصطادها الصيادون بدون مخاطرة أو مجهود يذكر . أما في صيد الغزلان فكانوا يطلقون الكلاب خلفها ، حتى تخور أو يصيبها الصياد بنشابه . وما يدل على عناية الخلفاء بـكلاب الصيد أن الحاكم بأمر الله الفاطمي أصدر في سنة ٣٩٥ هجرية أمراً بقتل جميع الكلاب في القاهرة ما عدا كلاب الصيد .

وهي رياضة تشبه (البولو) شهاً كبيراً وهي أصل لها بلا جدال . وقد اقتبسها العرب من الفرس . وكان الخلفاء والوزراء والكبراء يمارسون تلك الرياضة اللذيذة على ظهور جيادهم في ميادين خصصت لذلك . وكانوا يقيمون لها مباريات وصفها بعض الشعراء وصفاً دقيقاً . ومن قواعدها المعروفة إذ ذاك أن يضرب الفارس الكرة ضرب خلسة يدير فيه يده إلى أذنه ويميل صولجانه (مضربه) إلى أسفل من صدره ويكون ضربه متفرقاً مترسلاً ، وتوخى الضرب تحت مخرم الفرس (حزامه) في رفق واحتراس من عقره أو إيذاء من جرى معه في ميدانه وحسن الكف للفرس في شدة جوية وضبط حركاته والتوقى من الصدمات والسقوط ومجانبة الغضب والسب إلى غير ذلك من قواعد اللعبة وآدابها . وكان عرض ميدان اللعب ستين ذراعاً وحوله جدار يجلس عليه المتفرجون ولقد كان لمصر نصيب موفور من هذه الرياضة وخاصة في عصر الفاطميين إذ ألحقت ميادين الصوالة بالقصور وكان الخلفاء يلعبون فيها في أوقات متقاربة جداً لفرط ولعهم باللعبة .

السلح :

وهنا أيضاً نجد أنفسنا إزاء رياضة إسلامية مجيدة كان لها في تاريخ الإسلام شأن خطير . ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم سيفاً من الطراز الأول ويكفي السيف أنه لعب هذا الدور الخالد في تاريخ الإسلام ، ويكفيه فخراً أن خالد بن الوليد سمي « سيف الله » وأن السيف كان ثالث ثلاثة : الإسلام أو الجزيرة أو السيف .

وأخبار السيف في تاريخ الإسلام أكثر من أن تحصى ، لذلك نقتصر هنا على ذكر طرف مما يقتضيه المقام .

غزوة الحندق ضرب الزبير بن العوام عثمان بن عبد الله بن المغيرة فقطه إلى القربوس قالوا « ما أجود سيفك » فغضب ؛ يريد أن العمل ليدعوبراعته لالسيفه

قال أحد الشعراء :

وما السيف إلا كالنجد لزينة

إذا لم يكن أمضى من السيف حامله

وقال عمر بن الخطاب لعمر بن معد يكرب : (أخبرني عن السلاح)
قال ... سل عما شئت : قال : الرمح ؟ .. قال : أخوك وربما خانتك . قال :
النبيل ؟ قال : (منايا تخطيء وتصيب) قال : الترس ؟ قال : (ذلك المجن
وعليه تدور الدوائر) قال : الدرع ؟ قال : (مثقلة للراجل متعبة للفارس
ولإنها لحصن حصين) قال : السيف ؟ قال : (ثم ...) أى أن السيف
أفضل من الجميع .

ومن عناية العرب بالسيف لإطلاقهم عليه أسماء كثيرة كالحسام والمهند
واليماني الخ ...

وقيل في آداب العرب (لا شيء أسرع من حد سيف) .

ولقد كانت المبارزة بالسيف شائعة عند المسلمين في السلم والحرب
وكانت لها قواعد دقيقة وآداب اشتهر بها أناس كثيرون وكانت مبارزات
شبيهة بمبارزات الـ Sabre الآن لأن المبارزة بالنصل لم تكن معروفة في
أوائل عصر الإسلام . وإن كان من المرجح أن عرب الأندلس اقتبسوها
من جيرانهم الإيطاليين .

قذف الرمح :

أما الرمح فكان يقذف بنفس الطريقة المتبعة الآن : وكان يحمله الراجل
والفارس . ويستعمل في السلم كأداة للصيد وإصابة الهدف ، وفي الحرب
للطعان . وكان ذا لونين أسمر للعقب ، وأزرق للسنان . قال الطائي في
وصف الرماح :

مثقفات سلبن الروم زرقتها والعرب سمرتها والعاشق القصفاً

والقصف يعنى : النحافة . .

وقال دعبل يصف رحمه :

وأمر في رأسه أزرق مثل لسان الحية العبادى

رمى النشاب عن القوس :

وتلك أيضاً رياضة للسلم والحرب برع فيها العرب براعة فاقت
ما عرف عن الروم والفرس . ولقد كانت في قبائلهم قبيلة يسمى
أفرادها (رماة الحدق) أى أنهم كانوا من فرط براعتهم في الرمي عن
القوس يصيبون حدقة العين عن بعد . وكان العرب يعلمون أولادهم الرمي
عن القوس في طفولتهم فيشبون على ممارسة هذا الضرب من ضروب
الرياضة ويتخذونه أداة للصيد والقنص في وقت السلم ، وأداة من أدوات
الفتك في زمن الحرب وقد جعلوا له قواعد مرسومة . منها إمساك القوس
باليدين اليسرى بقوة العضد الأيسر والنشابة باليد اليمنى وقوة العضد الأيمن ،
ويضم الرامي كفه إلى صدره ويلقى ببصره إلى معلم الرمي (الهدف)
وإجادة نصب القوس بعد أن يطأطئ الرامي من سيتها بعض الطأطأة ،
وضبطه إياها بثلاث أصابع وإحناؤه السبابة على الوتر وضمه الثلاث
ضماً ، وتحويله ذقنه إلى منكبيه الأيسر وإشرافه رأسه وإرخاؤه عنقه
وميله مع القوس ، وإقامته ظهره وإدارته عضده ، ونزعه الوتر إلى
أذنه من غير تحويل لعينه أو ارتعاش من يديه أو ارتعاش جسده •

شرائع الاسلام

تبني الأسرة وتقيم الزوجية

من مفاخر الإسلام أنه حرم الزنا ، فالزنا عدوان على ملك الغير ، واغتصاب . فلما أن يكون الزنا بامرأة ذات زوج ، فيدخل على زوجها مولود ليس من دمه ، يقتضى الزوج حقوق بنوة غير صحيحة أصلاً ، ويرث في تركته بعد موته ، ولما أن يكون بغير ذات زوج ، تقتل وليدها غير الشرعى أو تلقى في الطريق فينشأ محروماً من الحنان والعطف ، محروماً من التربية والتقويم وربما أصبح زعيماً لقطاع الطريق ، أو عضواً في عصابة سفاحين قتلة ، إجابة لثورة نفسه ضد مجتمع لم يؤد له حقوق رعايته صغيراً ، وقد يتزوج هذا المولود أخته من أبيه الزانى وهو لا يعلم . . . ! وذلك قبيح فى الذوق قبيح فى الطب . إذا لم تأخذ بقبحه فى الشرع . . .

والعرض فى ذاته ، حتى لو لم يؤد الزنا إلى ثمرة غير مشروعة ، ثروة معنوية ومظهر لشرف المرأة ، فاغتصابه بطريق الإغراء ، أو تحت تأثير الحاجة ، أو بانتهاز فورة شهوية عند المرأة ، كل ذلك من أبواب الغضب . والذوق الأخلاقى يمجّه أيضاً ويستقبحه . والشرائع كلها تمجّه كذلك وتستردله فتحريم الإسلام للزنا واشتداده فى عقوبة الزانى ، هو الحجر الوطيد الأول فى بناء الأسرة .

أباح الإسلام للرجل أن يستمتع من المرأة بكلها ، بجسدها وبخدمتها له وبنسلها منه وأعطى المرأة مقابل هذا ثمناً (١) أو ما يشبه الثمن .

(١) الحديث : ما صدقتم عليهن فبما استحلتم فروجهن .

تشكون المقايضة المشروعة قائمة ، أعطائها الصداق والنفقة على كسوتها ومسكنها ورعايتها في مرضها وكهولتها وشيخوختها ووثق العلاقة الزوجية برباط روحي رفيع .

وكانت المرأة قبل الإسلام متاعاً في البيت لا رأى لها في الزوج ولا اختيار ، بل يفرض عليها دون ملاحظة أى اعتبار .

كانت تورث في تركة زوجها ولبن ورثها أن يتزوجها بغير صداق جديد وأن يتزوجها لسواء فتصوروا كيف يقع في الذوق أن يتزوج الولد امرأة أبيه . وهى له في حكم الأم من وجوه عديدة . وأن يتزوجها بالميراث أقبح وأوقح !

وكان للرجل أن يجمع الأختين في فراش واحد !!

وكانت المرأة لا ترث في تركة زوجها ، والأطفال مثلها لا يرثون ولا يجوز لها التملك . ولزوجها التصرف في مالها بدون إذنها ، وهذا ما كان عليه القانون الفرنسى إلى فبراير سنة ١٩٣٨ .

وكانت البنت تدفن حية عند ميلادها .

وكانت زيادة النساء على الرجال بسبب الحروب والغارات أعظم ممهد لتسود الطبيعة الحيوانية غير المهذبة ولتنطلق ، أى أعظم باعث على انتشار الزنا .

كان كل هذا بعض ما تضار به المرأة قبل الإسلام .

ولم يكن للمرأة وضع اجتماعى أبداً ونعنى بالمرأة الفاقدة الوضع الاجتماعى جنس المرأة في العالم فالمرأة الأوروبية قبل الإسلام ؛ كانت أمه ورقيقاً ومتاعاً حيوانياً . فنقل القانون الرومانى عن التشريع الإسلامى بعض حقوق المرأة ولولا شريعة الإسلام لبقيت المرأة الأوروبية الحاضرة

غير بعيدة كثيراً عن أمها الغابرة . جاء الإسلام فأدب المرأة بتعاليم خاصة وكفل لها حقوقاً واسعة وأوصى بها ورفع من شأنها وحررها من أسارها وحث على تعليمها وتزويجها بمن تختار لنفسها وفعل غير هذا كثيراً لأجلها .

ورفع عنها مهانة أن تورث بعد وفاة بعلمها ، ومنع مهانة الزواج كرهاً من ابن زوجها ، وأرضى غريزة المرأة فحرم الجمع بين الأختين وصان حياء كليهما . وجعل لها الحق أن ترث زوجها وأبناءها وحرّم إكراهها على البغاء ، وحرّم دفنها حية . ومنحها حرية التملك وحق التصرف فيما تملك وقبل شهادتها في المحاكمات حتى في حدود الله وفي القصاص ، وقبل شهادتها منفردة ، وحكم بمقتضى هذه الشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ، وقال عليه الصلاة والسلام إعلاء لشأن المرأة مشيراً إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء» (مصغر حمراء) .

ونظم الإسلام (الخطبة للزواج) فشرع للرجل أن ينظر إلى وجه خطيبته وكفيها أكثر من مرة والوجه مقياس الجمال الجسدى ومظهر جمال الروح ، فإن العينين كما هو معروف ، تنبئان عن الروح والخلق ، وتقسيم الوجه منبىء كذلك ، والكفان مقياس صادق لجمال الجسد من حيث النعومة والحشونة والدقة والفرطحة وغلظ الأصابع ونحافتها وطولها وقصرها وبروز العروق في ظهر اليد أو اختفائها.. إلى آخر صور القياس .

(١) في الصحيحين عن عقبة بن الحارث : أنه تزوج أم يحيى بنت أبي إهاب ، فجاءت أمة سوداء فقالت : قد أرضعتكما (أى أن زواجهما غير جائز شرعاً) فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأعرض عني . قال : فتنحيت فذكرت ذلك له . قال : فكيف وقد ذكرت أن قد أرضعتكما ؟ فأخذ الرسول بشهادة الأمة السوداء منفردة ، وأبطل هذا الزواج .

وفي السنة أنه إذا لم يستطع النظر إليها بعث امرأة أمينة يثق بها لتنظر إليها وتصفها له لأنه صلى الله عليه وسلم « بعث أم سليم إلى امرأة وقال انظري عرقوبها (١) وشمي عوارضها » . وكفل لها مقابل ما تمنح كما قدمنا . ثم أقام العلاقة الزوجية بعد ذلك على أسس من التراضي والراحم والمحبة وتبادل النفع وكفالة الحقوق وصيانة الكرامة . ولم يترك الإسلام حالة من الحالات النسائية إلا ووضع لها حكماً وشريعة تنصف المرأة . قال القرآن في المرأة الوارثة يمتنع وليها عن تزوجها أو يمتنع عن تزويجها طمعاً في ميراثها ، وفي الأطفال الوارثين وعليهم ولي يتصرف في مالهم ، وفي المرأة اليتيم ، من حيث الميراث والصدقات « ويستفتونك في النساء ، قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط ، وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليمًا » (٢) .

وقال في تنظيم علاقة الزوجين وإنصاف الزوجة :

« وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً ، والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » (٣) وقال فيها المفسرون إن توقعت منه تقصيراً في نفقتها ؛ لبغضه لها وطموحه إلى سواها ، أو نشوزاً عن فراش زوجيتها أو إعراضاً بوجهه عنها ، فليتصالحا على اتفاق يستبقيان به عسرتيهما فإن لم تقبل النزول عن بعض حقها ، ألزم الزوج راعماً بأداء كل تلك الحقوق وقالوا : وإن تحسنوا عشرة النساء وتفقوا الجور عليهن يجازكم الله خيراً بما عملتم . وكان الزوج إذا أراد أن يتخلص من زوجته أساء عسرتها لتفتدي نفسها منه

(١) أثبت الطب الحديث علاقة بين صفتي تكوين عرقوبي المرأة وبضعها .

(٤) النساء : ١٢٨

(٢) النساء : ١٢٧

بما مهرها أو بإبرائه من مؤخر صداقها ونفقة اعتدادها ، فحرم الإسلام ذلك واستثنى كرامة الرجل في هذا الصدد فقال القرآن : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ؟ ! (١) » .

وطلب القرآن إلى أهله ، أنه إذا كره الرجل منهم امرأته فليعاشرها بالمعروف فمضى أن يجعل الله له في ما كره خيراً كثيراً كأن تلد له ولداً باراً به .

حيث قال : « فإن كرهتموهن فمضى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » (٢) .

وقال القرآن في إنصاف النساء « ولهن مثل الذي عليهن » (٣) فلم يجعل وضعها وضع المكلف بالواجبات فقط ، بل أوجب لها حقاً مثل الذي عليها من الواجبات وقد أباح لها أن تتخذ مكان الرجل في أهم أركان عقد الزوجية بأن يكون لها هي حق التطليق إذا رغبت فيه .

والإسلام في صيانة كرامة المرأة وحقوقها ، وتنظيم علاقتها بالرجال في الزوجية وفي غيرها ، قد أنصفها وكرمها ورعاها .

تهذيب الإسلام للنساء : وضع الإسلام للمرأة آداباً توافق فطرتها . وتكمل بها وتزيد بها فتنتها وإغراؤها وتنضج بها أنوثتها وتشرف وتعز بها أعراضها « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن

(٢) النساء : ١٩

(١) النساء : ٢٠ ، ٢١

(٣) البقرة : ٢٢٨

أو أبنائهم أو أبناء بعولتهم أو إخوانهم أو بنى إخوانهم أو بنى أخواتهم
أو نسائهم أو ما ملكت أيماهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال
أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء» (١) .

وهذه الآداب والتعاليم كفيلة بأن تجعل المرأة في عين الرجل شيئاً
جذاباً جميلاً مطلوباً محتاجاً إليه ممنوعاً عليه إلا بالوسيلة الوحيدة المشروعة
فيفشو التزاوج وتتحل أزمتها التي تعاني منها مصر وغيرها أشد الويل
الأخلاقي والاجتماعي . أما مخالفة هذه الآداب فقد عرفنا ما أدت إليه
من نتائج وما جلبت على النساء من سقوط مكانتهن وعدم الإحساس بالحاجة
إلهن زوجات ، وعدم الاطمئنان إلى صلاحيتهن للمنازل .

قوامه الرجل على المرأة : قال الذين يلغون في الإسلام ويمارون
فيه : لكنكم في إسلامكم تورثون المرأة نصف الرجل وتبيحون له
أن يضربها .

أما تورث الرجل ضعفها ففخرة من مفاخر التشريع الاقتصادي
في الإسلام ، فإن الرجل ملزم بأن ينفق عليها ويقضى كل حاجياتها ،
وعلى أولاده منها ، وهو الذي يستثمر المال الموروث ، أما هي فلم تهياً للعمل
ولا للتجار والاستثمار . ثم إن استبقاء الثروات في العشيرة وفي الإقليم
وفي الدولة ، وهو مبدأ اقتصادي حديث تحرص الأمم والدول الكبرى
عليه لحيويته بالنسبة لوجودها ، يستلزم أن يرث الرجل ضعف المرأة .
فإن ورثت المرأة كالرجل ضاعت الثروات بموامل منها :

(١) أنها لا تحسن استثمارها . بل ستبددها بالإففاق .

(٢) أنها قد تزوج أجنبياً عن قومها وعشيرتها ، فله التصرف بما لها
عادة برضاها وإذنها فلا ضمان لبقاء المال في الدولة وعدم خروجه إلى
يد أجنبية قد تعين قومها ضد قوم الزوجة .

(٣) ثم إن نفقة المرأة ليست محمولة على نفسها ولكن على الرجل ، على زوجها وعلى غيره أباً أو أخاً أو طليقاً أو أبناء عم ونحوهم . لها في عنق كل أولئك نفقة يؤديها أيسرهم وأقدرهم على أدائها بحكم الإسلام . وكلف الإسلام المرأة بكل شيء كما كلف الرجل فساوى بينهما في أهم مظاهر المساواة .. وإن لم يكلفهن بالجهاد فقد أباحه لهن . وقال القرآن حين قالت أم سلمة : « ليتنا كنا رجالا فجاهدنا وكان لنا مثل أجر الرجال : » **« ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن »** (١) فاعتبر القرآن في شريعته أن طاعة الرجال بالجهاد وهو أعظم الطاعات ، تساويها طاعة النساء بحفظ فروجهن وإرضاء أزواجهن وتربية أولادهن ومثل ذلك .

أباح الإسلام للرجل أن يضرب زوجته ضرب التأديب وأوجب معاقبته إذا ضربها ضرب التبريح والإيذاء . ولا يستطيع إنسان يعقل أن يعترض على هذا الحق المترتب على ولاية شرعية ، لا ترجع مشروعيتهما إلى حكم الإسلام فقط ولكنها ترجع إلى استحسان العقل والفترة ، واقتضاء النظام الاجتماعي .

فإن هذا الحق الذي للرجل على المرأة ، يقابله حق لها ، هو أن يقوم القاضي بتأديبه إذا جافاها في المضجع . وغير ذلك من وجوه الإخلال بواجباته . فولاية الوالى على الرجل ، نظير لولاية الرجل على المرأة .

الطلاق في الإسلام :

أما الطلاق الذى يأخذون على الإسلام إباحته ، ففخرة عظمى لهذا الدين العظيم ، وتنظيم تقتضيه طبيعة التعاقد الزوجى .

فإنه لا يباح إلا بشروط وفي حالات تتعذر معها الحياة الزوجية وكل

صلة أو تعاقد ، إن لم يكن سبيل إلى فصمها والتحلل منها عند تعذر التوفيق كانت قيداً وغلا .

والطلاق قد يكون لصالح المرأة ، أكثر مما هو لصالح الرجل .

فهذه المرأة التي يغيب عنها زوجها ، فتفقد بغيابه الطويل المنقطع (في سفر أو سجن أو غيرهما) أول أركان الزوجية وهو ركن المعاشرة الجنسية كيف تريدها أن تبقى معلقة ، إن عاشرت آخر رجعت حتى تموت ، وكيف يمكن استبقاؤها على الامتناع عن المباشرة الجنسية وهو مخالف للطبيعة والفطرة !!؟

وهذا الرجل المعدم الذي لا يستطيع الإنفاق على امرأته ، كيف تريدونها أن تبقى في كفالته. ولا تنهى الصلة القائمة بينه وبينها مع انعدام ركن الإعاشة ، وهو أساس من أسس الحياة الزوجية .

وهذا الرجل الخنون مثلاً . يقال فيه كذلك .

وهذا الرجل العنيد الذي يعتبر كأنه ليس زوجاً .

وهذا الرجل الأبلخر الذي تتأذى امرأته برائحة فمه — وغير ذلك ومثل ذلك كثير .

ومع هذا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الموضح لمجمل التشريع يقول : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » وقد نص ابن عابدين في حاشيته وهي من أهم مراجع الفتيا والقضاء الشرعي ، على أن الأصل في الطلاق أنه حرام . وأن الإباحة إنما طرأت على حكم تحريمه للحاجة إلى الخلاص . فحيث تجرد عن الحاجة المبيحة له شرعاً ، يبقى على أصله من التحريم . وهذا الحكم مأخوذ من قوله تعالى : « فإن أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » (١) .

(١) النساء : ٣٤

وقد نص الفقهاء على أن المكثّر من الطلاق في حكم الزاني ، لأنه يعدل بذلك عن الغاية من تشريع الزوجية إلى أن يتلذذ بالنساء ويذوق طعم كل منهن ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الصنف من الناس : « لعن الله الذواقين والذواقات » .

والطلاق في الإسلام مع كل ذلك يستتبع التزامات ومسئوليات فهو ملزم للمطلق بمؤخر صدق ، ونفقة اعتداد ونفقة استبراء من الحمل . ونفقة إرضاع المولود إن ثبت حملها ، أو كان وليدها لم يقطع .

ومن حكمة التشريع الإسلامي أنه يشترط وقوع الطلاق في طهر ، أي بعد الحيض ، فربما كان حيض المرأة وما يوجبها من رثاءة منظرها باعثاً على نفرة الزوج ، فيعيد إليها الطهر دواعي استئناسه بها وميله إليها .

ومع كل ذلك أيضاً ، شرع الإسلام ، ما يعني على أثر الطلاق الذي لا يحبه والذي أباحه للضرورات ، فأباح المراجعة بين الزوجين ثلاث مرات . ولا يجوز الإسلام طلاق السكران ولا المجنون ولا المكره ومثله المتورط ومن في حكم هؤلاء .

ويحرم الإسلام على ولي المرأة أن يمنعها من العودة إلى طليقها إذا أراد مراجعتها ووافقت .

تعدد الزوجات في الإسلام :

عرضنا للقراء بعض الحالات الزوجية التي تستلزم فصح علاقة الزواج وبيننا أنه يكون جحياً إذن لازواجاً . إذا عرضت إحدى تلك الحالات ثم لم يكن في الشرع علاج لها .

وبرهنا على أن الطلاق موضوع علاجاً فقط ، تقتضيه ضرورات . وهو مكروه في ذاته عند الشريعة وعند واضعها سبحانه وتعالى .

فإذا في تعدد الزوجات الذي زعموه حيوانية وشهوية يطلق لها الإسلام حبلها ، ومظهراً من مظاهر استثارة غرائز الغيرة في المرأة وإضعاف شأنها؟

لدينا الحالات الآتية أسألكم لها علاجاً فإن وجدتكم غير التعدد فلن أكون مسلماً ، وإن كان التعدد أجمل وأكرم وأصون لها فاعلموا أنه لهذا أنا مسلم :

١ - أمة كمصر زاد عدد إنائها على ذكورها (وفق إحصاء سنة ١٩٣٧) زيادة تقرب من ربع مليون امرأة ٠٠ أين تذهب النساء الزائدات ، بفرض أن غير الزائدات قد وجدن جميعاً أزواجاً وهذا لم يحدث فإن حركة الزواج راكدة كما نشاهده في بلادنا بأنفسنا .

٢ - تزوج رجل امرأة ثم مرضت مرضاً مزمناً أو مرضاً معدياً . فمنع ذلك من قيام المباشرة الجنسية بينهما ٠٠٠ فإذا يفعل ؟ يطلقها وقد لا يكون لها عائل سواه ، أم بمسكها ليقوم على رعايتها ويتخذ أخرى سليمة مستعدة لأداء وظيفتها الجنسية .

٣ - رجل سوداوى المزاج (يميل بجبلته) إلى مباشرة امرأته كثيراً . ماذا يفعل أيام حملها وحيضها ونفاسها ومرضها ؟ هل يزني ؟ أم يتخذ أخرى تسد هذا الفراغ في بناء زوجيته وتقيم الركن الأول لها .

٤ - رجل تزوج امرأة لا تميل إلى المباشرة الجنسية إلا كل شهر مرة وفي أيام برثها من الحيض والنفاس والحمل ، هل يزني مع أخرى فتكون النتيجة أخطر شر يسهل على القارئ تصوره ؟ أم يتزوج بدل أن يزني ؟ إذ لا بد له من إحدى الحالتين : الزنا ليرضى غريزته الجنسية ، أو تعدد الزوجات ليرضيها إرضاءً مشروعاً .

٥ - رجل تزوج امرأة ثم اتضح أن لا ملائمة تناسلية بينهما ، بأن كان عضو التناسل فيه فوق ما يطبق تشريحها التناسلي أو كان الأمر بالعكس وكانت امرأته متعلقة به أو فقيرة أو يتيمة أفيمسكها ويتزوج غيرها ، أم يرسلها إلى الشوارع تقعات بعرضها ؟
وهناك غير ذلك من موجبات التعدد .

هذه جوانب من حكمة مشروعية التعدد في الإسلام ؛ ترونها لا تفوقها حكمة . ومع ذلك كله فالإسلام لا يبيح التعدد على إطلاقه . ولكن بشروط وقيود .

أن لا يزيد العدد على أربعة ، أن يضمن الرجل ويتأكد أنه يستطيع العدل بين زوجاته حتى في القبلة وحتى في نوع الابتسامة .

أن يكون ذا يسار يمكنه من الإنفاق عليهن وعلى أبنائه منهن .

فإذا توفر في الرجل هذا ، مع قلة عدد الرجال ، ثم مع قلة عدد الراغبين ، أفيكون خيراً للمرأة أن تنال ربع زوج أم يكون الأجمل بها أن لا تنال شيئاً ، فتظل غريزتها الجنسية تصرخ وتدفع بها إلى السقوط ، وتظل حاجات حياتها بلا قوامة عليها ولا تلبية لها . ؟

لو حرم تعدد الزوجات لكانت حالات كالتى ذكرناها من زيادة عدد النساء على الرجال وعدم إقبال الرجال على الزواج بسبب عوامل منها الاقتصادية ، والاجتماعية ، سبباً فعالاً في تدمير المجتمع وتقويض أركانه وإشاعة الإباحة في نواحيه .

من كل ما استعرضنا من أنظمة الإسلام لبناء الحياة الزوجية نعلم أن الإسلام يبنى الزوجية على أوضح الحدود ويقيم الأسرة على وطيء الأسس ، والزوجية والأسرة نواة المجتمع العام وأولى أشكاله ، يصلح المجتمع بصلاحها .

... والله المستعان ... وهو الموفق

محتويات الكتاب

الصفحة

الإهداء	٣
إنسانية الدعوة الإسلامية : للإمام الشهيد « حسن البنا »	٥
لماذا أسلمت : للمجربى المسلم الدكتور جرمانوس	١١

الباب الأول

(١٧ - ٦٢)

طرق الاستدلال على وجود الله يوحى بها التأمل والفكر	١٩
وراء هذا الكون كوناً روحانياً آخر	٢٨
أدرك بالنفس ما ليس يدركه الحس	٣٧
الحقيقة الإلهية كما أظهرها الإسلام	٤٤
الدين لا يخضع للعلم ودين الإسلام يدعى العلم ويعظم العلماء	٥١
هداية العقل البشرى لا تغنى عن هداية النبوات	٥٥

الباب الثانى :

(٦٣ - ١٠٦)

شخصية النبي محمد أعظم شخصيات التاريخ كله	٦٥
نبوة النبي محمد قامت الأدلة على صدقها	٨٠

رسالة النبي محمد تحمل في أطوارها عوامل النجاح	٨٩
نظرات في القرآن	٩٦
القضاء والقدر إيمان وعمل	١٠٥

الباب الثالث

(١٠٧ - ١٤٢)

الإسلام دين القوة والتسامح	١٠٩
الإسلام دين الحرية والإخاء والمساواة الإنسانية	١١٧
الإسلام دين يتطور وفق مطالب الأمم والعصور	١٢١
الإسلام يلائم الغرائز البشرية	١٢٥
الإسلام نسخ اليهودية والمسيحية	١٣٢

الباب الرابع :

(١٤٣ - ١٦٥)

غاية الإسلام	١٤٥
حضارة الإسلام أعظم حضارة في التاريخ	١٤٩
الرق في الإسلام حرام	١٥٦
البرنامج الإسلامي لتحرير الرقيق	١٥٧

الباب الخامس

(١٦٧ - ٢٢٨)

١٦٩	المستقبل للإسلام
١٧٩	الإسلام مصدق لما بين يديه من حقائق الديانات
١٩١	التوراة والإنجيل مفقودان
١٩٨	الإسلام جماع الدساتير الاجتماعية والسياسية والدولية
٢١٠	الإسلام دين التربية البدنية
٢١٨	شرائع الإسلام تبني الأسرة وتقيم الزوجية
٢٢٩	محتويات الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٧٥١ / ٨١
الترقيم الدولي ١ - ١٢ - ٧٣٣٥ - ٩٧٧

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نويار (لاطوغلى) القاهرة
ص ٠ ب ٥٨ (الدواوين) - تليفون : ٢٢٠٧٩

هذا الكتاب

● كان الاسلام — ولا يزال — هو محور الهجوم عليه من أعدائه .. منذ أربعة عشر قرناً من الزمان .

وقامت حملات التشكيك الواسعة .. واستخدمت أساليب الدس والادعاءات الباطلة .. وتهجموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. باعتباره رسول — الاسلام — فإذا نالوا منه .. يكونون قد هدموا الاسلام كله ..

والبسوا هذا التشكيك لباس العلم والعقل والمدنية ..

وطرحوا أسئلة وأقاويل .. منها :

هل الرسالة المحمدية .. هي خاتم الرسالات .. ولماذا ؟

هل القرآن الكريم .. نزل من عند الله .. وكيف ؟

هل الاسلام .. ينسخ الشرائع الأخرى .. ولماذا ؟

هل الاسلام .. يصلح أن يكون دين البشرية جمعاء .. وكيف ؟

وهل هذا يوافق العقل والعلم والمدنية ؟

● وهذا الكتاب ((لماذا أنا مسلم ؟)) يتضمن الرد على هذه الأمور وغيرها .. فقد تولى الإجابة على هذه الأسئلة .. وغيرها .. مجموعة من العلماء والمفكرين — منهم المسلمين — أصلاً — مثل الامام الشهيد حسن البنا .. والمرحوم الأستاذ محمد فريد وجدي .. ومنهم علماء غربيون — لم يكونوا مسلمين — منهم من أسلم — بعد البحث والتنقيب — مثل الدكتور آدمز .. والدكتور براون .. وغيرهم من علماء الكيمياء والطبيعة والتاريخ وعلم النفس ..

وبعد أن يشرح كل منهم .. أدلته العلمية واستقراءاته الفكرية .. يقول :

لهذا أنا مسلم ..

مكتبة الوفاء